الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة منتوري قسنطينة

كلية الآداب واللغات　　　　قسم اللغة العربية وآدابها

صورة المجتمع الصحراوي الجزائري

في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين

مقاربة سوسيوثقافية

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب المقارن
شعبة: أدب الرحلة

إعــداد الطالب
أحســن دواس

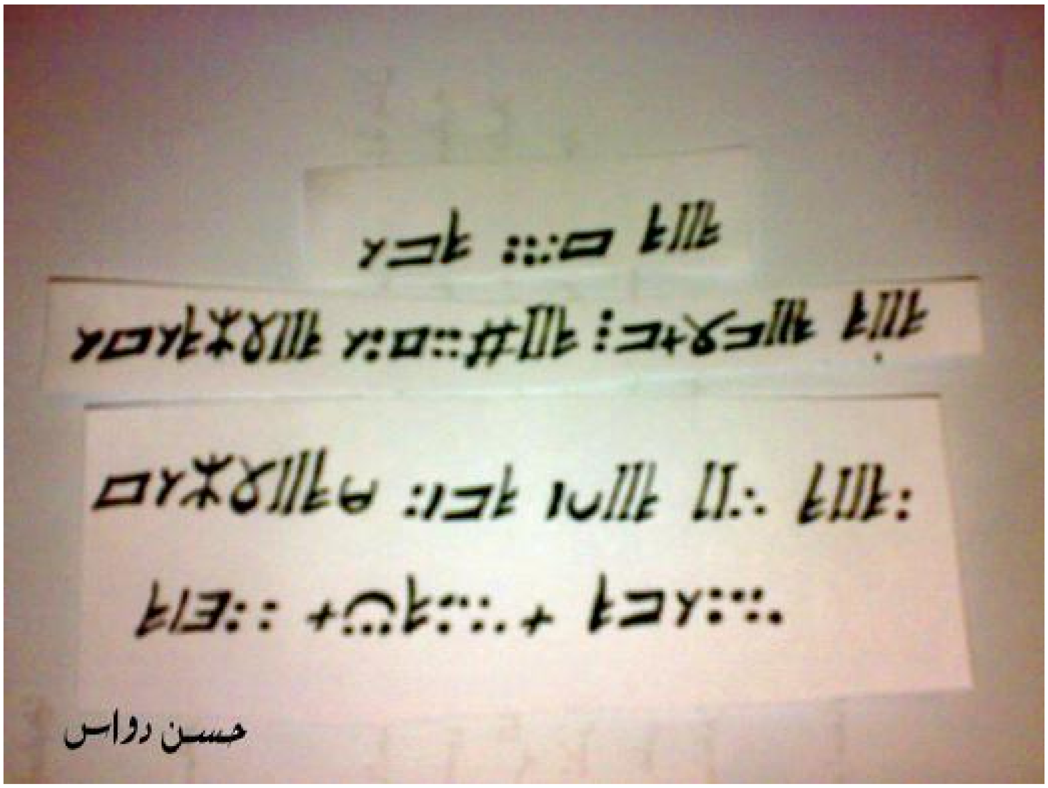
إشراف الأستاذ الدكتور
الأخضر عيكوس

لجنة المنـــاقشة

أ.د عبد الله حمـــادي	جـامعة منتوري قسنطينة	رئيـــسا
أ.د الأخضر عيكوس	المركز الجامعي أم البواقي	مشرفا ومقررا
أ.د عزيز لعكايشي	جـامعة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا
أ.د ليــلى جبـــاري	جـامعة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2007 - 2008

إهـــــداء [ä]



إلى روح أمي ...

إلى المجتمع الصحراوي الجزائري...

وإلى كل الذين آمنوا بالجزائر قيما وثقافة ووطنا.

[ä] الإهداء مكتوب بحروف التافيناغ أو التاماشاك؛ لغة الطوارق التي استطاعت المرأة الطارقية الحفاظ عليها على مدى العصور

يعتبر أدب الرحلات الباعث الأساس في ظهور الاهتمام الجاد بفكرة الآخر كتيمة منفردة في البدء ليتحول هذا الاهتمام إلى تخصص قائم بذاته، يعمل على دراسة الآخر دراسة شاملة ؛ تغوص إلى أعماقه وتدرس تاريخه وحضارته، وتفكك آليات تركيبته الثقافية والمعرفية، وتحلل جذور قيمه الاجتماعية وأبعادها النفسية . وهكذا ظهر مبحث دراسة الصورة أو علم الصورة أو الصورولوجيا كما يحلو للبعض تسميتها كترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي Imagologie ، أو الصورائية كما يروق للبعض الآخر، وقد ارتبطت هذه الدراسات كما يقول الدكتور د.عبد النبي اصطيف في دراسته الموسومة ب "دراسات الصورة بين الدرس المقارن للأدب والعلوم الإنسانية" منذ نشأتها بالرغبة في تطوير الدرس المقارن للأدب في المدرسة الفرنسية التقليدية ولا سيما لدى جان ماري كاريه وتلميذه فرانسوا غويار، وتوظيف هذا التطوير بغرض تبديد المرددات السلبية التي تحتفظ بها الشعوب الأوربية كل منها عن الآخر.[1]

ومما لا شك فيه أن صورة المجتمع الجزائري بما عليه الآن قد تشكلت ملامحها تدريجيا عبر العصور ولأنه لا يتسنى فهم بنية المجتمع الجزائري المعقدة إلا باستنطاق تاريخ تكوينها، جاء هذا البحث والموسوم بصورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين – مقاربة سوسيوثقافية- ليحاول تسليط الأضواء الكاشفة على تجليات المظاهر الاجتماعية والثقافية للمجتمع الصحراوي الجزائري خلال هذه الفترة، و إن اختيار الاعتماد على كتابات الرحالة لتشريح تركيبة المجتمع ينبع من اعتقادي بأن الرحالة أكثر الكتاب حرية -مثلهم مثل الشعراء= في نقل مشاهداتهم وتسجيل ملاحظاتهم حول مجتمع ما أو دخول ثقافة ما على عكس المؤرخين الذين ينطلقون من منطلقات إيديولوجية و سياسية.

إن اختياري لهذا الموضوع ينطلق من عدة أسباب ودواع فرضت علي الخوض في مثل هذا الموضوع أ أهمها استحواذ الموضوع على اهتمامي وجدة الموضوع ومحاولتي الكشف عن جوانب لم تزل غامضة وغير مدروسة سواء من طرف علماء الاجتماع أو

---

[1] د. اصطيف عبد النبي ، **دراسات الصورة بين الدرس المقارن للأدب والعلوم الإنسانية**
http://www.aladalanews.net/home/modules.php?name=News&file=print&sid=22

المؤرخين ، وإلقاء بعض الضوء على ما كتبه هؤلاء عن الجزائر وعن المجتمع الجزائري عموما، والمجتمع الصحراوي خصوصا، يمكن أن يساهم في فهم جذور تركيبة المجتمع الجزائري.

إن من خلال هذه المقاربة السوسيوثقافية للمجتمع الصحراوي الجزائري سأحاول أن أجيب على عدة أسئلة أهمها: ما هي هذه المظاهر وإلى أي مدى ساهمت في تشكيل صورة المجتمع وبنيته الحالية وهل بعض الظواهر المتفشية الآن في المجتمع لها جذورها عبر تاريخ هذا المجتمع ومراحل صيرورته إلى ما هو عليه الآن؟

وللإشارة فإن موضوع الجزائر والمجتمع الجزائري من خلال كتابات الرحالة الأجانب موضوع تم طرقه والخوض فيه من طرف عدة باحثين جزائريين لهم باع طويل في تاريخ الجزائر وسوسيولوجيتها ولعل أهم العناوين التي درست الموضوع هي على التوالي:

1 – الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز للباحث والمؤرخ الكبير أبوالقاسم سعد الله

2 – صورة الجزائر في كتابات الرحالة الألمان للكاتب والباحث المرحوم أبوالعيد دودو

3 – The image of Algeria, in the anglo Saxon Travel Writings

- صورة الجزائر من خلال الكتابات الرحلية الأنجلوسكسونية الأمريكية للباحث عثمان بن شريف .

غير أن هذه الدراسات لم تتطرق إلى تحليل المجتمع الجزائري تحليلا سوسيوثقافيا و لم تتعد أحيانا إلى ترجمة أعمال هؤلاء الرحالة والتعليق عليها كما فعل أبو العيد دودو بترجمة أعمال هاينرش فون مالتسان وغيره.

ومن خلال عناوين هذه الكتب يتضح أنها لا تتقاطع جوهريا مع هذا البحث إلا في كونها تعالج الجزائر موضوعا والرحلة مصدرا للموضوع كما اقتصرت هذه الدراسات على الرحالة الألمان والإنجليز والأمريكان و لم أعثر حسب تنقيبي على دراسة أفردت للرحالة الفرنسيين ولا للمجتمع الصحراوي على الخصوص عدا رسالة الدكتوراه الموسومة ببصورة الجزائر والجزائري في الكتابات النثرية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر التي قدمها الباحث رشيد رايس وناقشها عام 2005 والتي تختلف في طرحها عن هذه المذكرة كونها تعمد أساسا على الكتابات الأدبية للكتاب الفرنسيين .

و قصد الإجابة عن الإشكاليات التي يطرحها هذا الموضوع ارتأيت أن أتبع منهجا تحليليا وصفيا في تتبع تجليات صورة هذا المجتمع في تلك الكتابات و هو المنهج الكفيل برصد خصائص هذا المجتمع و تحولاته عبر مظاهره المختلفة (اجتماعية، ثقافية، أنثروبولوجية...)، و هو منهج منفتح يستفيد من مناهج عدة .

أما بالنسبة للمرحلة التي غطاها هذا البحث فإنها تعتبر من أهم المراحل التي خصها الكتاب الفرنسيون على اختلاف تخصصاتهم ؛ أدباء، مؤرخين، انتروبولوجيين، رحالة وذلك لتزامن هذه الحقبة مع المد الاستعماري الفرنسي والذي حاول بكل الطرق معرفة المجتمعات التي يستعمرها، قصد التمكن من بسط سيطرته عليها فكريا أولا وعسكريا ثانيا ولهذا السبب خصت الجزائر بالعديد من الدراسات من طرف الفرنسيين في هذه المرحلة، حتى غدت موضوعا متكامل الملامح في كتاباتهم المختلفة.

وللوصول إلى ذلك قسمت المذكرة إلى أربعة فصول ؛ خصصت الفصل الأول للحديث عن الصحراء الجزائرية من الناحية الجغرافية والتاريخية وبعض مظاهرها كمنطقة جغرافية متميزة، ورؤية الرحالة الفرنسيين لهذه الرقعة وتعلقهم بسحرها وطبيعتها .. كما حاولت أن أجتهد في وضع مصطلح بديل للاستشراق ينطبق في اعتقادي أكثر على نوعية الدراسات التي خصصت

للصحراء كرقعة جغرافية متفردة ولمجتمعاتها التي لا بد انها ستتأثر بتلك البيئة المتفردة لتكون نمطا خاصا للحياة الاجتماعية والثقافية.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحياة الصحراوية وللبداوة خصوصا كنمط حياتي متميز يشكل نظاما اجتماعيا منفردا معرجا على بعض مظاهر الحياة الأسرية لدى المجتمع الصحراوي الجزائري وتركيبة هذا المجتمع في أبعاده الاجتماعية والثقافية واللغوية دائما من خلال رؤية الرحالة الفرنسيين له . ثم انتقلت إلى فضاء المدينة في البيئة الصحراوية الجزائرية مدرجا ثلاث صور لمدن صحراوية جزائرية نموذجية.

أما في الفصل الثالث فقد تعرضت للمظاهر الاجتماعية للمجتمع الصحراوي التي تجلت أكثر وبوضوح في كتابات الرحالة متطرقا إلى المظاهر الإيجابية في المجتمع الصحراوي وتلك القيم الاجتماعية التي تجعل من هذا المجتمع نموذجا متميزا في إنسانيته، وقد تجذرت بكيانه معالم الأصالة العربية ومقوماتها اللغوية والدينية والحضارية ومتمسكا بخصوصياته كالكرم وحسن الضيافة ، معرجا على بعض المظاهر السلبية التي لا يخلو من أي مجتمع كالسحر والشعوذة والدعارة والثأر وغيرها.

وفي الفصل الرابع والأخير تحدثت عن المظاهر الثقافية التي تميز هذا المجتمع الصحراوي والتي شكلت مادة معتبرة في مدونات الرحالة الفرنسيين على اعتبارها أهم المظاهر التي ميزت الصحراويين ثقافيا وتمثلت هذه المظاهر في الزي والرقص والشعر والقصة الشعبية والموسيقى .

هذا وأتمنى أن أكون قد وفقت من خلال هذا البحث في كشف بعض خصوصيات المجتمع الصحراوي الجزائري، وإضاءة بعض الزوايا التي أخالها كانت مظلمة من خلال عيون هؤلاء الرحالة والكتاب الفرنسين وبرغم نظرتهم المحدودة أحيانا والغرائبية أحيانا أخرى هذه الغرائبية التي قال عنها الغرائبية د. عبدالله حمادي في دراسة بعنوان " الكتاب الفرنسيون واستقلال الجزائر" المنشورة بين طيات كتابه أصوات من الأدب الجزائري الحديث: " وكانت كتابات هؤلاء الكتاب ، أي كتاب العبور إلى الغرائبية منها أقرب إذ حفلت بالمظاهر العجائبية التي تصور الجزائر كقطعة منسية من تلك الفراديس الموعودة ، ويمكن أن نقول أن تلك الكتابات

كانت تخبئ وراء خطابها الميسر الرغبة والشهية في التوغل أكثر والتمكن أكثر، ليتحول الحلم إلى حقيقة والخبر على بقين . ويضيف وقد اكتفى بهذه النظرة العجائبية كتاب من أمثال ألفـــونس دودي و فلوبير وموباسان ومونترلان الذين يمكن اعتبارهم كتاب عبور على أرض الجزائر.[1]

ولكن برغم هذا وبرغم تلك الأحكام النابعة من خلفيات استعمارية توسعية أو عقدية إلا أنهم سجلوا بعضا من تاريخ وثقافة وأدب هذا المجتمع.

وأشير وأنا مدرك أنني ما وفيت كل جزئية من جزئيات هذا البحث حقها من الدراسة والتمحيص إلى صعوبة التحكم في كل مسارات هذا الموضوع الشاسع وذلك لندرة المراجع العربية من جهة وتشعب الموضوع من جهة أخرى. كما أشير إلى صعوبة ترجمة النصوص التي اشتغلت عليها خاصة منها النصوص الإثنية التي عثرت على بعضها كما هو بلغته الأصلية أي اللهجات البربرية القديمة والطارقية وغيرها وكذا تلك النصوص الجزائرية التي ترجمها الفرنسيون والتي كنت مضطرا إلى ترجمتها محاولا قدر الإمكان إعادتها إلى صيغتها الأولى.. خاصة منها النصوص الشعرية .

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بكل الشكر الجزيل إلى كل من قدم مساعدة ولو بسيطة ساهمت في إنجاز هذا البحث المتواضع وأخص بالشكر والعرفان أستاذي الدكتور الأخضر عيكوس الذي كان نعم المشرف من أول خطوة في هذا البحث وهي إعداد الخطة الأولية إلى آخر نقطة به. والذي رغم توجيهاته الصارمة أحيانا ترك لي مجالا واسعا من الحرية في تغيير بعض الأمور وحملني مسؤولية الكثير من النقاط وهي ثقة أعتز بها كثيرا.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى السادة الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة معربا لهم عن خالص امتناني على كل ملاحظاتهم التي سأعمل على الاستفادة منها للارتقاء بهذا البحث المتواضع.

---

[1] د. حمادي، عبد الله: **أصوات من الأدب الجزائري الحديث**، دار البعث، قسنطينة، 2001 ، ص 254

فصل أول

تجليات مظاهر الاستصحار

ماهية الصحراء

ما هي الصحراء؟

"إنها أرض غير مزروعة " هكذا يقول عنها النبي (ارميا 2،2). وتصفها الشاعرة: " مكان قفر ، متروك وغامض" ويفكر البيولوجي: " منطقة شحيحة السكان والحيوان والنبات"، أما بالنسبة للجغرافي فهي منطقة تسودها المناظر الطبيعية وأثر نشاط الإنسان فيها قليل جدا.

ليس من السهل تعريف الصحراء ومع ذلك فثمة اتفاق شامل على أن الصحراء منطقة جافة، وهذه الميزة المناخية تحوّله إلى بيئة حياتية فريدة.

والصحراء تعبير نباتي ، تعني افتقار الإقليم للحياة النباتية والحيوانية ولكن هذا لا يعني الفقر التام ، إذ مما لا شك فيه أن هناك حياة نباتية وحيوانية في الصحراء.[1]

تضاريس الصحراء

هي إقليم شاسع، أغلب تكويناته صخور قديمة بركانية، تمتاز بالرتابة والانبساط؛ وأهم التشكيلات التضاريسية للصحراء هي :

-نطاق المنخفضات: في الشمال الشرقي، حيث منخفض ملغيغ (32م) تحت مستوى سطح البحر؛ وتنتشر هنا أهم واحات الجزائر: في وادى ريغ، ووادى سوف والزيبان.

-نطاق الهضاب الصخرية: ويحتل مناطق وسط الصحراء، أهمها هضبة تادمايت 836 متر فوق سطح البحر، وحمادة تينرهرت قرب الحدود الليبية، وحمادة الذراع غرب

---

[1] د .أعشي، مصطفى:**نماذج من التواصل الحضاري بين شمال أفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ**، معهد الدراسات **الأفريقية** جامعة محمد الخامس /الرباط

تندوف. هذا النطاق تكويناته صلبة، تغطيها صخور جيرية رملية، على شكل صفائح طبقية تسمى الحمادة.

-نطاق المرتفعات في الجنوب الغربي للصحراء، في منطقة التاسيلي ناجر، أغلب تكويناته الجبلية ناتجة عن اضطرابات بركانية، لا تزال فوهاتها بارزة، وهي شاهقة الارتفاع:2254م متقطعة بها وادى جرات الذي يشكل معلما اثريا عالميا، حيث رسوم التاسيلي القديمة. وفي منطقة الهقار الشاسعة، حوالي 0.5 مليون كلم^2، المكونة من الصخور البركانية، أعلى قمة في كتلة الأتاكور، شمال تامنراست، في تاهات: 2918م، وهي أعلى ارتفاع في الجزائر.

-نطاق الرمال: وهو عبارة عن سهول تغطيها الرمال تشمل أكبر أجزاء الصحراء ، وأهم أشكالها

1. الرق وهو سهل صخري يغطيه الحصى، أو أحواض منخفضة ملأتها السيول الجارفة للرواسب الصخرية، وهي صالحة للحركة، حيث تشكل مسارات العديد من الطرق الصحراوية

2. العرق وهو سطح واسع الأطراف تغطيه كثبان رملية يتراوح ارتفاعها ما بين 260 و 500 م وتنتشر بكثافة في الشرق، حيث العرق الشرقي الممتد من الحدود التونسية حتى المنخفض الذي يفصل تادمايت والمنيعة، وفي الغرب حيث العرق الغربي، الممتد ما بين بني عباس والمنيعة إضافة إلى عرق الشاس وإيقدي.[1]

[1] لعروق، محمد الهادي، **أطلس الجزائر والعالم**، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر 1998 ص 12.

جيولويجيا الصحراء

الصحراء جزء من القاعدة الإفريقية الكبرى، تغطي قاعدتها الريكامبرية المتبلورة تكوينات قديمة تعود للزمن الآركي، مؤلفة بشكل أساسي من الغرانيت والغنايس، وصخور متحولة، وأخرى رسوبية وغير رسوبية.[1]

والصحراء إقليم منخفض، لأنه عبارة عن حوض واسع، تتخلله منخفضات بنائية، أهمها: منخفض شمال شرق الصحراء، وتحيط به كتل جبلية كبيرة، وهي جبال الأطلس الصحراوي شمالا، وكتلة الهقار جنوبا، ويمتاز بسماكة تشكيلاته الصخرية، وبسيطرة الأراضي المنخفضة التي تغطي القاعدة القديمة بتشكيلاتها الصخرية والجيرية والقارية، والكثبان الرملية. ثم المنخفض الصحراوي الغربي الذي تغطيه التوضعات القارية الرباعية، وتفصل بين المنخفضين سلسلة من الصدوع.

مناخ الصحراء

يشكل الأطلس الصحراوي الحد المناخي الفاصل بين شمال وجنوب البلاد، الأمطار قليلة وغير منتظمة، تقل عن 200 ملم/سنة، والجو جاف ، والحرارة عالية، والفوارق الحرارية اليومية والفصلية مرتفعة، باستثناء منطقة الهقار المتأثرة بالمناخ المداري، حيث الأمطار تسقط صيفا، والحرارة أكثر اعتدالا.

يتغير هذا المناخ تدريجيا، ابتداء من السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي الذي يقدم صورة مناخية فريدة، حيث السفوح الشمالية تكسوها الغابات، وقممها تغطيها الثلوج، بسبب

---

[1] المرجع السابق، ص14

وصول التأثيرات البحرية الرطبة الباردة، وبمعدل مطري يتراوح ما بين 800 و900 ملم /سنة، والسفوح الجنوبية المواجهة للصحراء التي تتأثر بالمناخ الصحراوي القاحل، وهكذا تتعايش غابات الصنوبر والسدر، مع واحات النخيل على بعد 30 كلم.

النبات:

تترك الظروف المناخية السائدة في هذا الإقليم بصماتها على الغطاء النباتي ، حيث يبلغ الجفاف هنا ذروته، ويقل متوسط الأمطار عن 200ملم / سنة والطبيعة قاسية والتربة نادرة لأن الأراضي التي تكسوها الرمال المتحركة، أو التي تكون مكسوة بطبقة صخرية كالحمادة، إضافة إلى الملوحة، لا تساعد على نمو النبات.

ويقتصر الغطاء النباتي في هذا الإقليم على التشكيلات المتآلفة مع الجفاف وارتفاع الحرارة، التي تحتل مجاري الأودية والمناطق التي توجد بها مياه باطنية قريبة من سطح الأرض، خاصة في الواحات، وهناك مناطق خالية من النبات تماما تسمى محليا " تانزروف" ، كما أن الأنواع النباتية في هذا الإقليم محدودة، لا تتجاوز بضعة أنواع ، معظمها مجرد من الأوراق، فروعها قصيرة، وتكثر بها الأشواك للتغلب على الجفاف والتبخر، وجذورها طويلة بحثا عن المياه الباطنية : وأهم هذه التشكيلات، النخيل في الواحات والدرين والعناب والطرفة والسنط.[1]

الصحراء الجزائرية لدى الرحالة

الجزائر واحدة من ثلاثة بلدانٍ في حوض البحر الأبيض المتوسّط التي تشترك في هذا البحر الهائل من الرّمال المعروف بالصّحراء الكبرى. ومع أنّ الوصول إليها لم يعد صعبًا، فما يزال للصّحراء الكُبرى سحرها وغموضها الخاص. ووجود المطارات والطُّرُق البرّية الجيّدة والفنادق المُريحة يتيح المجال لرؤية جمال طبيعتها، على الأقل في قسمها الشّمالي.

[1] المرجع السابق ، ص15

وقد وصف الرحالة الفرنسيون الصحراء الجزائرية أوصافا مختلفة فهذا ريني بوتيي René Potier يقول بأن الصحراء كما يطلق عليها إداريا بالإقليم الجنوبي لفظ يطلق على منطقة شاسعة جدا وهي جغرافيا المنطقة المتصحرة التي تحزم الكرة الأرضية، ولها حدودها الطبيعية من الأطلنطي في الغرب، دعامة الأطلس والبحر الأبيض المتوسط في الشمال ،البحر الأحمر في الشرق.

فالصحراء ليست تلك المنطقة المتصحرة التي تستحيل فيها الحياة إلا على البدو الرحل، وهي ليست بلادا مجدبة ولكنها بلاد جافة بحيث أنه يكفي أن تمطر غيمة على منطقة انعدمت بها النباتات لتزهر الأرض وتكتسي حلة بهية من الأزهار والورود في خلال أيام معدودات. وبرغم الرمال وزوابعها فإن الصحراء يقول بوتيي ليست هي تلك الصورة التي في أذهان الأوروبيين التي توارثوها من خلال بعض الجغرافيين القدامى على أن الصحراء؛ رقعة ممتدة من الرمال وبعض النخيل .

وللصحراء أربعة مظاهر مختلفة:

-الجبل في الشمال والوسط ودعامة الهضاب العليا والهقار والطاسيلي

-الحمادة سهول صخرية منخفضة ولكن السطح تغير بسبب الزلازل التي أعطت للصحراء تضاريسها

-الرق: رقعة منخفضة أخرى تتوزع فيها الصخور

-العرق: تراكم للغبار ومواد أخرى من مناطق أخرى نقلتها الرياح ثم أوقفتها حواجز لتشكل كثبانا تتوزع هنا وهناك على مساحة الصحراء، وأشهر مجموعتين هما العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير.[1]

---

[1] POTTIER.، René: **Le Sahara**

أما الرحالة ألفرد بارودون Alfred، BARAUDON فيقول :"الصحراء بحصر المعنى هي ذلك الإقليم الشاسع الممتد من الجزائر وليبيا إلى السودان ومن الأطلنطي إلى مصر، ربع إفريقيا. ونعني بالصحراء الجزائرية تلك القطعة الممتدة من توات وسهول تادميت وتينقبرت من الجنوب،

في الخلف تقف جبال الأهقار على علو ثلاثة آلاف متر بقممها المتوجة بالثلوج، موطن الطوارق.

في الصحراء نجد كل شيء؛ سهول شاسعة رتيبة كتلك التي تمتد من بسكرة إلى ورقلة، هضاب مفصولة بوديان كشبكة الميزاب وكثبان رملية موحشة متعذر عبورها.[1]

وعما تمنحه الصحراء للناظر يقول لومبال:"تمنح الصحراء للناظر سلسلة من السهوب، أو الأراضي القاحلة التي لا تصلح للزراعة، وتنقسم كالتل إلى منطقتين متوازيتين؛ تتكون الأولى من سهل براح ينتج النجيليات والنباتات العطرية، غير أننا لا نجد بها لا غابات ولا أراض زراعية. أما المنطقة الثانية وباستثناء زراعة النخيل ونباتات الواحات فإنها تمثل وجه الجفاف. كل هذه المناطق المختلفة مفصولة بثلاث سلاسل جبلية هي الأطلس الصغير ، الأطلس المتوسط والأطلس الكبير والتي ترتفع بدرجات متفاوتة عن مستوى سطح البحر".[2]

مسارات الصحراء

حين تزمع الرحيل خاصة للمرة الأولى إلى الصحراء الجزائرية تجد نفسك أمام ثلاث طرق متوازية مؤدية إلى هذه الرقعة الغامرة بالجمال وهي طريق الجنوب الوهراني ، طريق الجنوب الجزائري وطريق الجنوب القسنطيني يقول ريني بالنسبة لي لا مجال للتردد فأحسن مسار للتوغل في الصحراء هو مسار الجنوب القسنطيني لأنه المسار الوحيد الذي يدخلك عمق

---

[1] BARAUDON، Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris librairie Plon 1893 p 190

[2] Le conte de Lombelle **Illustrations d' Afrique**. Tour Alfred name et fils editeurs.p10

الصحراء أما المساران الآخران فقد تجانب الصحراء وتخسر التمتع بالواحات التي ستصادفها في طريقك إذا كان المسار من الجنوب القسنطيني.[1]

تاريخ الصحراء

فحسب ماكس مارشون Max Marchand فإن تاريخ الصحراء يبدو بسيطا إذا أخدنا بعين الاعتبار الموقع الجغرافي الذي يمكنها من التفتح على تأثيرات الجنوب والشرق والغرب والشمال، فيقول هكذا كانت الصحراء خاضعة بالتعاقب وفي الوقت نفسه إلى :

- تأثير الوسط شرق(برابرة الهقار)
- تاثير الشرق (ليبيون ، أشوبيون، مصريون)
- تأثير الجنوب (سود النيجر)
- تأثير الغرب (المغاربة)
- تأثير الشمال وهو الأكثر أهمية (قرطاجيون، رومان، ثم عرب الجزائر وأخيرا فرنسيون)[2]

سكان الصحراء

يسكن الصحراء الجزائرية مجموعتان عرقيتان، هما العرب والبربر. المجموعة الأولى هي مجموعة متجانسة أما الثانية فتنقسم بدورها على عدة عناصر ، يقول كلاماجرون:" جنسان يعمران الصحراء؛ البربر والعرب. ينقسم البربر إلى مجموعتين بارزتين: الأولى وهي تلك التي

---

[1] POTTIER، René: Sahara، B.Arthaud، France، 1950، p 30

[2] Marchand، Max: **Le Sahara**، édition la fougue 1957.p 45

رضخت للسيطرة العربية ، وتعيش على زراعة الواحات، أحيانا لحسابها الخاص ، وفي غالبها لحساب أصحابها. والمجموعة الثانية، والمتميزة بأنها أكثر جرأة وإقدام، وأكثر حب للحرب والقتال، فقد تمركزت بمناطق لا يستطيع العرب الوصول إليها، هذه المجموعة هي الطوارق"[1].

سحر الصحراء

يورد ريني بوتيي في مقدمة مؤلفه: " الصحراء" قول للكاتب ثوف دو درين الذي يقول : " برغم السينما و الأدب لم تزل الصحراء أرض الأسرار، لم تزل الأرض التي تستمر الآراء الخاطئة تروج حولها".

ومن خلال هذا القول نفهم أن الرحالة يعلم أن الصحراء قطعة من الفردوس لم تزل مجهولة لدى الكثيرين، وكانت عبارة أرض مجهولة Terra Incognita هي العبارة التي يشير بها الفرنسيين والأوروبيين عموما إلى الصحراء على خرائطهم. وأنه برغم ما كتب حولها من خلال الآثار الأدبية أو الإنتاجات السينماتوغرافية فإن الصحراء الجزائرية أرض عذراء لم تكتشف بعد و لم تستطع هذه الكتابات ولوج عوالمها وكشف أسرارها. وقد أكد هذا الجهل بالصحراء في أذهان الفرنسيين الكاتب بول بوندولفي في مجلة إثنولوجيات مقارنة يقوله:

"كانت الصحراء بالنسبة للغرب أرضا مجهولة ولعهود طويلة، إلى غاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد احتلال فرنسا للجزائر، لينطلق استكشاف هذه المنطقة، الذي جاء فيما بعد."[2]

---

[1] CLAMAGERAN. J.J، L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873. Paris. Laibrairie Germer Bailliere، 1874، p 172.

[2] PANDOLPHI Paul ،: Avant- Propos *N°7*، Revue **Ethnologies Comparées**، *Printemps 2004*

فالصحراء ليست هي ذاك الخلاء الموحش وذاك القفر الداكن الموحي بالخطر بل تلك البقعة الفردوسية الرائعة، وجاءت كتابات الكثير من الفرنسيين، لتعرف بهذه البقاع، ولحثهم على زيارتها،كما يشرح ذلك ريني بوتيي حين يقول في مقدمته للكتاب المذكور آنفا: " إن الهدف من هذا المؤلف حث المسافرين على زيارة هذه البقعة التي تعتبر من أجمل البقاع في العالم إن لم تكن الأجمل على الإطلاق"

والصحراء عند بارودون هي ذلك الفضاء البديع الشاسع، الموشح بالألوان والسحر؛ "تمتد الصحراء في شساعتها البديعة، بيضاء اللون تحت سماء ذات زرقة غامضة لا تسبر. سهول إفريقيا ليست دائما منبسطة، صقيلة ومن هذا العلو تبدو ذات تموجات صغيرة كتلك التي يحدثها نسيم خفيف فوق سطح البحر...

الشمس في المساء تختفي وراء قمة حجر رملي أحمر...فتبدد أشعتها الموازية تقريبا للسهل تدريجيا.. الوشاح الشفاف المسترسل على الأرض، فتغلف تورمات وتقعرات الأرض بظلال كبيرة، فتؤول بقع الواحات الخضراء إلى اللون الأسود، كما جزر، والرمل نفسه يتألق في إشراق فاتح ليتحول من أصفر أصهب إلى رمادي ويعطي انطباعا كأنه بقع مائية لامعة. فيبدو الأفق المرئي في أعماقه الصافية، كما شريط أزرق وكأنه يصّاعد ليمتزج مع زرقة السماء، وكأنه بحر بعيد ذو شواطىء مجهولة، مبهم وغامض تحت البخار المذهب الذي يملأ الفضاء".[1]

وهي نفس تلك الألوان الباهرة عند الرحالة إيزابيل إبرهاردت التي عشقت ليل الجزائر وفجرها، فغدت لا تتنفس هواء غير هوائها ولا تفترش أرضا غير رمال صحرائه؛

عين الصفراء، ، الوادي، قمار ، بوسعادة، ...لا بقاع أرحب وأروع من هذي البقاع؛ ماؤها، رملها، سماؤها، شمسها، كان كل شيء ، في عيون إيزابيل في الجزائر جميلا ، ساحرا:

---

[1] BARAUDON، Alfred: **Algerie et Tunisie Recit de voyages et études**، Paris librairie Plon، 1893 p 178 et 179

" لقد مضى زمان طويل وأنا هنا، والبلد أخاذ إلى أبعد الحدود، وبسيط إلى أبعد الحدود، بتضاريسه ذات الرتابة المتوعدة، ليكون هذا التعلق وهما عابرا وجماليا، بالتأكيد لا، ما أسرني ولا سحرني أبدا إلى هذا الحد مكان أخر على الأرض كما فعلت فضاءات الوحشة المتحركة للمحيط الكبير الناشف، والتي من السهول الصخرية لقمار ومن منخفضات شط ملغيغي الملعونة تؤدي إلى صحارى سيناون وغدامس عديمة الماء "

و تواصل إيزابيل في قصتها النقيب وصف الصحراء وسحرها فتقول وهي تتحدث عن جاك الفرنسي الذي أحب هذه الرقعة المتميزة من الجزائر: "يذهب إلى مقهى مغاربي، مقابل للمكتب العربي تقريبا، وهناك، مستلقيا كان يتأمل روعة السحر المتجدد يوميا، والمختلف دوما عن الساعة القرمزية.

أمامه، كانت بنايات البرج اللبنية تتلون في البدء باللون الوردي، ثم وشيئا فشيئا تصبح حمراء تماما، بلون الجمر، بشكل خارق وباهر...

كانت كل الخطوط المستقيمة أو المنحنية التي تستجنب على أرجوان السماء، وكأنها تخرج من الذهب... خلف القباب الملتهبة للمدينة، الكثبان الكبيرة تتأجج... ثم يخفت الكل تدريجيا، يعود إلى لونه الوردي المتقزح... تنزلق سحابة باهتة ذات لون أصفر فضي على نتوءات البنايات، وعلى قمم الكثبان.

تعزيزات عميقة للون الأسود،أروقة ضيقة بين الكثبان، تزحف ظلال الليل البنفسجية، تتسلق باتجاه القمم الملتهبة، تطفئ الحريق... ثم يغرق كل شيء في نور خفيف أزرق بحري عميق.

عندها ومن على منارة سيدي سالم الكبرى، ومن على الشرفات الصغيرة للمساجد الأخرى المتلفة، يرتفع صوت المؤذن، الأبح والآبد قبلا، و الجاذب.

و مع هذا الصوت الحالم يتوقف آخر ضجيج إنساني للمدينة، التي بـــلا بـــلاط، وبـــلا سيارات، ومع كل مساء ينطلق هناك، في الشوارع الطللية للمصاعبة، بغرب الوادى ناي بدوي هامسا حزنا سرمديا، قطعيا.[1]

إن كل الأشياء آيلة إلى الزوال والذبول إلا عشقها للصحراء وجمالها: "الأشـــياء، كـــل الأشياء ربما يعتريها الذبول، فتذوي، تندثر إلا حبها لصحرائها: "" نعم أحب صـــحرائي، وفي حب غامض، خفي، عميق، يتعذر شرحه، ولكن حقيقي خالص وسرمدي"[2]1

وتضيف : " لست سوى شخصا غريب الأطوار، حالمة تريد أن تعيش بعيدا عن العـــالم، أن تعيش الحياة الطليقة والراحلة، لتحاول بعد ذلك أن تقول ما رأت وربما أن تنقل إلى البعض بعض الارتعاشات الكئيبة المبهمة والآسرة التي تحس بها أمام الروائع الحزينة للصحراء"

بعض مظاهر الصحراء

تتوفر الصحراء على مظاهر مختلفة أبهرت الرحالة وسحرت ألبابهم ، لتميزها وتفردها، بما تمنحه لهم من مشاعر تمتزج فيها الدهشة بالغرابة ، بل ولانعدامها في أي مكان آخر عدا الصحراء، كمشهد غروب الشمس ، ومشهد سير القوافل والخيام والنخيل.

غروب الشمس

من بين المظاهر الطبيعية التي سحرت الرحالة الفرنسيين وغيرهـــم بالصـــحراء؛ غـــروب الشمس، ذلك المشهد الاستثنائي، الطافح بالألوان، والمترع بالجلال.. غروب شمس لا يســـتطيع وصفه إلا كاتبا مثل فيكتور هيجو كما يقول أوغست بيسي ... تغرب الشـــمس في اللـــون الارجواني، والعصافير ترتل صلواتها المسائية.[3]

---

[1] *EBERHARDT، Isabelle*: **Le Major**، Document électronique

[2] *EBERHARDT، Isabelle:* ***Lettres et journaliers*** *P 206*

[3] BESSET، Auguste: **A Travers l'Algérie d'Aujourd'hui**، Imprimerie Roy frères، Chagny، 1896، p 183

فهي حين تختفي في المساء وراء قمة حجر رملي احمر...تبدد على حد تعبير الرحالة ألفرد بارودون BARAUDON Alfred أشعتها الموازية تقريبا للسهل تدريجيا الوشاح الشفاف المسترسل على الأرض، فتغلف تورمات وتقعرات الأرض بظلال كبيرة، فتؤول بقع الواحات الخضراء إلى اللون الأسود، كما جزر، والرمل نفسه يتألق في إشراق فاتح ليتحول من أصفر أصهب إلى رمادي ليعطي انطباعا وكأنه بقع مائية لامعة.فيبدو الأفق المرئي حتى إلى أعماقه الصافية، كما شريط أزرق وكأنه يصاعد ليمتزج مع زرقة السماء، وكأنه بحر بعيد ذو شواطىء مجهولة، مبهم وغامض تحت البخار المذهب الذي يملأ الفضاء.[1]

وغروب الشمس يضفي أحاسيس غريبة لدى الرحالة فهو بداية الحلم بالشرق وإفريقيا السراب بالنسبة لفليسيان شومسور CHAMSAUR،Félicien: "إنه الحلم بالشرق يبتدئ الآن، إفريقيا السراب، العطش ونار السماء، مضيق القنطرة، خليج على سهل شاسع أغرقته الأنوار، واللآلئ المتغيرة، وسط الذهب الأشقر، والشمس التي تغمر الآفاق، تسربل الأشياء، ينصهر الكل، يمتزج، وتتسق الظلال... تنمحي الأشكال، مغمورة تقريبا، لتصبح صورا ضبابية، غامضة، في المساحات القزحية، المتموجة المهتزة، جراء ألأضواء الذهبية. فيكتنف الغموض حدود المنازل، جذوع الشجر، والأسوار الطينية التي تدهن بالبياض عند كل موسم محمدي. كل هذا مسربل بلون الذهب السحري. تحت السماء الأصفر المدمقس، أين تسترسل خطوط قرمزية، وتتمايز ألوان الأوراق العريضة والدقيقة، أفنانا سوداء، غير أنها تبدو وكأنها ترسل غبارا منيرا. تتورد جبال الأطلس في الشرق. ها تصبح السماء الآن خضراء داكنة، مخططة بالبرتقالي، مزركشة بالذهبي... هناك بعيدا تبدو القمم زرقاء، وردية، بألوان الياقوت والزبرجد المحترق. والأوراس بمرتفعاته المتمزقة، يبرز بوضوح قممه وسط مجد الشمس، التي تبدو وكأنها تختفي خلسة، والتي في بطء تختفي وسط شعفتين في شكل فك وكأنها اختطفت. في هذه اللحظة غدا الأوراس بنفسجيا أو خبازيا.

[1] BARAUDON، Alfred: **Algerie et Tunisie Recit de voyages et études**، Paris librairie Plon، 1893 p 178 et 179

فجأة يتوهج الشرق... يشتعل كما مجمرة أسطورية؛ يلتهب كل شيء فجأة ، المنـــازل ، النخيل، الأسوار في مشهد رائع من الألوان والأحلام، فتبدو الصحراء وكأنها صورة ثابتـــة في أنوار ساحرة؛ أزرق، كل درجات الأزرق: اللازورد، الفيروز، الأرجواني، الليلكي، البنفسجي ، الأصفر، البرتقالي ، الأخضر الفاتح، الزمردي، البرتقالي المورد ،الوردي، الأبيض الفضي.

فجأة يمتد حجاب بنفسجي، ليسربل بظله، الكثيف لحظة بعد أخرى الأشكال، المنـــازل البسيطة، الرعاة وقطعان الماشية، وبسرعة يغيب الكل وسط ظل لامع".[1]

النخلة

كانت النخلة - هذه الشجرة المباركة- و لم تزل رمزا للشموخ العـــربي والصـــحراوي؛ باسقة، جليلة، تناطح السحاب، وتعانق الآفاق، وقد سحرت بعليائها ألباب الرحالة والشـــعراء والكتاب، لما تكتسيه من أهمية وجمال وسحر، فهي عروس الصحراء وأميرتها.

كانت زراعة نخيل التمر معروفة منذ سبعة آلاف سنةٍ عند الحضارات التّي قامت في مـــا بين النّهرين وفي الجزيرة العربية وما جاورها. فالباحثون يُحدّدون مسقط رأس النّخلة بالمنطقـــة الواقعة بين ما بين النّهرين أثناء الحضارة البابلية وشرقي الجزيرة العربية بما في ذلـــك البحـــرين، وعلى وجه الخصوص في جزيرةٍ صغيرةٍ، عُرِفَت بإسم "هارفان" أو "خارقان".

منذ ذلك التّاريخ الغابر وحتّى اليوم، كانت النّخلة حاضرةً، لا في البساتين وحسب، بـــل في ثقافات الشّعوب واقتصاديّاتها. والشّواهد على ذلك عديدة منها العملات الفينيقيّة والإغريقيّة التّي وُجِدَت على السّاحل الشّرقي للمتوسّط وعليها نقوش لصورة النّخلة، كمـــا وُجِـــدَت في إحدى مقابر السقارة بمصر مومياء فرعونيّة في مقبرة الزّريقات ملفوفة بحصيرٍ من سُعُف النّخيل.

[1] CHAMSAUR، Félicien: **Le Baiser du Soleil**، Ferenczi et fils editeurs، 1888،p233 et 234،

ومن بلاد ما بين النّهرين وصلتنا آثار المعابد والقصور التّي شكّل النخيل جــزءًا رئيسًــا منها، إضافةً إلى التّيجان المَلَكيّة التّي حملت نقش النّخلة. إلاّ أنّ أهمّ ما وصلنا في هــذا المجــال مجموعة قوانين "شريعة حمورابي" التّي تضمّنت موادًا تتعلّق بشراء النّخيل وبيعه وتلقيحه، إضافةً إلى مادّةٍ عقابيةٍ تقضي بتغريم من يقتلع نخلة.

ولتمر النخلة قيمة غذائية كبيرة حيث أنها تحتوي على 58% من السكريات، 2% مــن البروتينات والأملاح المعدنية.

المناطق الجغرافيّة الصّالحة لزراعة نخيل التمر في مناطقنا تمتدّ من باكستان شرقًا إلى إيــران والجزيرة العربيّة وبلاد الشّام والعراق وموريتانيا غربًا.

في العالم اليوم أكثر من مئة مليون نخلة تنتج حوالى ثلاثة ملايين طُن من التّمور.

أهمّ غابات النّخيل وواحاته في العالم وأجود أنواعه تتوزّع بين العراق حيث توجد حوالى ثلاثين مليون نخلة، والمملكة العربيّة السّعوديّة وفيها 23 مليون نخلة. وهذا ما يُؤكّد أنّ النّخلــة كانت –وما تزال- عربيّة الهويّة.

وقد أورد العديد من الرحالة فقرات عن هذه الشجرة الصحراوية؛ يقول ألفرد بــارودون واصفا إياها: "آه النخلة ! إنها ملكة الصحراء؛ تغذي بثمارها كل أقوام وتحدد من بعيد منــابع الماء للقوافل الظمأى، والأرض تحت ظلالها تحافظ على رطوبتها فتنبت الأزهار والخضر، تقوس ساقها لقبلا الريح القوية ولا تنكسر، تأوي تحت مظلتها المشرعة الكل، وترسم علــى الأرض ظلالا غريبة عند الغروب. تجدها أينما حللت، في خط أسود على تخوم الآفاق، كما حــارس متقدم بمداخل الواحات... إنها النخلة العظيمة، ذات الجمال الذي يتعذر وصفه، الهيفاء، الملكية، الفريدة، ترفع رأسها في جلال وشموخ نحو السماء."[1]

[1] BARAUDON, Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris librairie Plon 1893 p 172 et 173

و أهمية النخلة لدى سكان الصحراء ترجع إلى كونها المصدر الذي لا ينضب للرزق ، والظل الفارع، الذي يمتد على رمال الفيافي ، يقي المسافر حر الشمس ولهيبها، وكل سكان الصحراء؛ سواء كانوا من العرب أو البربر أو الطوارق يعيشون على التمر، سواء بالاستهلاك المباشر او عن طريق المقايضة.

النخلة واسمها اللاتيني(Phoenix dactylifera)[1] ، هذه الشجرة المصدر الإلهي لهذه المنطقة، سواء في مناطق المياه السائلة، أو في مناطق الآبار، في سهول الجبس أو السهول الرملية. والنخلة حسب مثل عربي تريد أن تكون أرجلها في الماء وراسها في النار. في الشتاء تستطيع أن تتحمل درجة حرارة باردة جدا يمكن ان تصل حتىعدة درجات تحت الصفر.[2]

لا تنمو النخلة إلا تحت درجة متوسطة من الحرارة تقدر ما بين عشرين وخمس وعشرين درجة...تتفتح أزهارها في كل ربيع، في أوخر شهر مارس، وتنضج ثمارها في أواخر شهر أكتوبر. وتسقى كل نخلة على حدة، ويتم ذلك بحفر حفرة دائرية الشكل بجانب الجذع، يتصل عن طريق قنوات بباقي النخيل ، وهكذا تأخذ كل شجرة نصيبها من الماء أثناء السقي. ويقدر محصول كل نخلة بحوالى ثمانية غلى عشرة كيلوغرام في السنة[3]

ولأهمية النخلة بالصحراء فقد حيكت حول الأساطير فالنخلة يقول أهل وادى سوف هي أمنا من أبينا آدم، إذ أنه وبعد أن عجنت الملائكة التراب لخلق سيدنا آدم، بقي قليل من الطين المعجون، فأمر الله بصنع نخلة منه. ويقولون بأن من قطع نخلة مثمرة، وإن كانت تنتج حفنة من تمر، فكأنما قتل سبعين نبيا.[4]

---

[1] وهناك أواع أخرى من النخيل كالنخلة ذات السكر، Phoenix sylvestri النخلة الزرقاء Phoenix eylanica s والنخلة القزم Phoenix roebelenii

[2] CLAMAGERAN. J.J، **L'Algérie I mpressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873.** Paris. Librairie Germer Bailliere، 1874، p 176.

[3] DE BOISROGER. A ، **Le Sahara Algérien Illustré**، **Souvenirs de Voyage** 1886-1887، Paris، p 8

[4] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 151.

وللنخلة قداسة ومهابة في العقلية الصحراوية، ولا شك أن هذه القداسة الـــتي تكتســـبها النخلة ليس من كونها مصدر رزق كل سكان الصحراء ولكن مما لها من مكانة في التراث العربي وكذا العقيدة الإسلامية فالرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بالنخلة خيرا. ويقول : " لا تؤذي أختك النخلة".

"والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام"[1]

وقد ورد في القرآن الكريم أن النخلة من أشجار الجنة يقول جل جلاله: " فيهـــا فاكهـــة ونخل ورمان، فبأي آلاء ربكما تكذبان"[2]

وهي رمز للخصب والنعمة، يقول سبحانه وتعالى: هزي إليك بجذع النخلـــة، تســـاقط عليك رطبا جنيا"[3]

وفي النخلة يقول الشاعر الصحراوي:

النخلة نخـــــلة ربي * والصـــلاة على النبي

النخلة نخـــــلة الله * وابليس عليه لعنة الله

عمرهـــــا وثمرها * ومن فضلك لا تقمحها

واصلحهـــا يا صالح * الأمور رب العالمـــين

النخله جبـــاره * والعرجون كبير يملا غراره

النخـــــله قارح * والعرجون فيها صـــالح

عمرها وثمـــــرها * ومن فضلك لا تقمحها

[1] سورة الرحمان الآيتان 10 و11 من

2 سورة الرحمان الآيتان 68 و 69 من

[3] سورة مريم، الآية 25.

يا نبي الله.. احييني * يا ربي لن ناكل غلتها[1]

الخيمة

لوحة حقيقية للحياة البدوية؛ خيام حمراء مخططة بالأسود، مثبتة بعدد من العكاكيز، وممسوكة بالأرض بحبال وأوتاد. تراكمت بالداخل وبطريقة عشوائية أدوات المطبخ، وأثاث البيت، وعدة الحرب لصاحب الخيمة، الرحى الحجرية، لطحن الحبوب، المهراس الثقيل لدق الفلفل، الصحفة الخشبية أين يعجن الكسكس، الغربال، الكسكاس، جفان الحلفاء المضفرة، أكياس السفر أو التليس، بردعات الجمال، زرابي الخيام؛ النول لنسج الصوف، الفرجون الحديدي العريض والذي يستعمل في نفش صوف الجمال...الخ . ووسط هذه الفوضى صندوق أو صندوقان يحويان إضافة إلى حلي المرأة، الأشياء الثمينة الأخرى التي تمثل كل ثروة صاحب الخيمة.

في الخارج، أرضية مطروقة، مرعية، حتى من الجذور، مليئة بالأوساخ، مغطاة ببقايا الأشياء القديمة وعظام الحيوانات، إضافة إلى مكان يكسوه السواد؛ الكوانين المحفورة في الأرض، والمتكونة من ثلاثة أحجار تشكل موقدا؛ أكداس من العليق والأشواك اليابسة، وقرب سوداء، معلقة بثلاثة أوتاد على شكل هرم، وحول هذا كله السهل الشاسع، والجمال التي تسرح بها نهارا بلا حارس، لتعود في المساء إلى الدوار على صوت البوق.

هو ذا المترل المتنقل، أين يقضي البدوي الصحراوي نصف عمره.[2]

ويواصل فرومونتان وصفه للخيمة بقوله:"يمكن القارئ أن يكون فكرة عن الخيمة العربية بأن يتخيل فضاء مربعا يقدر ب40 قدما مغطى بقطعة قماش مصنوعة من وبر الجمال وضفائر

---

[1] سونك :**الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب**، موفم للنشر، 1994 ،ص364

[2] FROMENTIN،Eugenne: **Un été au Sahara**. Paris Librairies Plon p 53 et 54

القش، وهي مثبتة بالأرض بأعمدة أطولها أعمدة الوسط التي يتصل إلى حوالى 7 أو 8 أقدام ، في حين لا يتعدى ارتفاع أعمدة الجوانب الثلاثة أقدام ، بحث يتوجب عليك أن تنثني إلى نصفين لتتمكن من الولوج إلى داخل هذا البيت المتميز.

وإذا كان المظهر الخارجي يبدو غريبا فإن الداخل مثير للدهشة أكثر، فالأرضية خليط من الأقمشة والحصائر المفروشة، لتحمي ساكنيها من رطوبة الأرض. والخيمة مقسمة بقطعة مصنوعة من وبر الجمال كذلك .."

القافلة

و استحوذ وصف القوافل على حيز كبير من كتابات الرحالة لما يتميز به من مشهد غرائبي فريد مدهش ،كما يقول دي بواروجي DE BOISROGER. :"يقدم مشهد القبيلة وهي راحلة للناظر مشهدا مدهشا... يتقدم المسيرة رجال على الخيول، والبنادق تتدلى بمحاذاة السروج، وهم يوجهون الصف الطويل للجمال التي تسير ببطء، ثم تاتي قطعان الماعز والغنم تتبعها بعض الأبقار الهزيلة، الأحمرة الحاملة لأثقال فوق طاقتها.. على أن يقول تقطع النساء الشابات أو العجائز الطريق على الأقدام. فقط اللواتي ينتمين على عائلات بعض العرب الأثرياء يسافرن على ظهور الجمال، مسترخيات في هودج يطلق عليه اسم الباصور. وعلى الجانبين وفي مؤخرة القافلة يسير باقي الفرسان الذين يسهرون على السير الحسن والنظام العام للقافلة، ويساعدون المتأخرين على اللحاق بالركب. وبمجيء الليل تخيم القافلة في مكانها، لتنطلق عند الفجر.[1]

وحول تكوين القافلة وأقسامها جاء في رحلة بارودون: "كل قافلة مقسمة إلى ثلاثة أقسام بين الواحد و الآخر من مائتين إلى أربعمائة متر، وذلك من أجل تجنب الازدحام وإثارة الغبار.

[1] DE BOISROGER. A ، **Le Sahara Algérien Illustré**، **Souvenirs de Voyage** 1886- 1887، Paris، p 98

عدد الجمال غير محدد، ويمكن أن يتراوح ما ثلاثين إلى ثلاثمائة، وفي الغالب ما بين ثمانين إلى مائة جمل. يتقدمهم الحادي على مهاري ممتاز. وهو الذي يحدد نظام السير والتوقف، وهو القادر على معرفة الطريق في حالة زوالها بسبب الأمطار والرياح. القوافل الكبرى تتجه من الساحل إلى السودان، هذا البلد الغني جدا حتى أن المثل الصحراوي يقول بان السودان علاج للفقر مثلما هو القار علاج لجرب البعير.وهناك يتم تبادل الأقمشة القطنية والأسلحة والمواد الغذائية الأوروبية مقابل الجلود المدبوغة، العاج والبترين وغيرها.[1]

ويواصل بارودون وصف طريقة سير القافلة فيقول تسير الحيوانات ببطء ، لثقل الأحمال والسلع،محمولة بحركة أرجلها المتموجة، فتأخذ شكل سفينة يكون الرأس بمثابة الجؤجؤ. على ظهورها تراكمت علب وحزم من البضائع يجثم أحيانا فوقها رجل وكأنه وثن على هرم. وأحيانا أخرى أقمشة مخددة بالأزرق والأحمر مزينة بالأسجاف تسترسل على الأرض تشكل شبه خيمة تتسع في الأعلى. في هذا العش تجلس اربع أو خمسة نساء متراصات الواحدة جنب الأخرى، يرتدين أسمالا متنوعة، متعددة الألوان.وعند إعلان التوقف للاستراحة كل جزء من القافلة يخيم بمكانه، تحت خيام رمادية، وتنطلق الجمال جماعات لترعى غير بعيد من مكان التخييم.[2]

أما فيلسيان شامسور فيشبهها وهي تتهادى على رمال الصحراء بالثعبان العملاق:" على رمال الصحراء، تتهادى القافلة بطيئة... وسط سلسلة من الأضواء الشرقية... ذبذبات النور على الرمل وفي الهواء الأزرق، على قبعات الكتان الأبيض الاستعمارية ، والبرانيس... إرهاق ومعاناة الجمال بعيونهم المنقادة المستسلمة تحت الجفون، والبقع القرعاء لوبرها الصوفي المحبحب، على أرجلها النحيلة، وعلى أرداف الخيول العريضة و اللامعة... في تتابع جميل، لصور متعددة الألوان... هكذا تتقدم القافلة، مع ظلالها الطويلة والقصيرة حسب تغير الوقت.

[1] BARAUDON، Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études**، Paris librairie Plon 1893، p 162

[2]. المرجع السابق ص،163

المشهد متباين، لهذا الثعبان العملاق، المكون من الرجال ،الخيول والجمال.[1]

من الاستشراق إلى الاستصحار

لقد حظيت الصحراء خلال القرن التاسع عشر باهتمام بالغ ، فظهرت دراسات عديـــدة تركز على الصحراء كموضوع مثير ، شمل مختلف المجالات ؛ الجغرافية والإثنوغرافية والجيولوجية والتاريخية وغيرها .

وقد حدث وأنا مستغرق في صياغة هذا البحث عن صورة المجتمع الصحراوي الجزائـــري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، أن انتبهت إلى أنني أضطر في كـــل مرة، وأنا أتحدث عن رحالة أو مؤرخ أو رسام أو اثنولوجي أو أديب كتب عن الصـــحراء، إلى أن أشير إلى أن هذا الكاتب أو هذا الأنتروبولوجي قد اهتم اهتماما خاصا بالصحراء، وخصص لها كذا مؤلف، وهذا الرحالة استهوته الصحراء فزارها أكثر من كذا مرة وكتب عنها أكثر من كذا رحلة.ولاحظت أنني أكرر مثل هذه الجمل:

إن الكاتب س المختص في الجغرافيا درس طبيعة الصحراء.

والإنتروبولوجي ص الذي كرس العديد من الدراسات للصحراء فإنـــه اهـــتم بدراســـة النصوص الإثنوغرافية لهذه المنطقة .

ورسم الروائي د الذي استقى شخوصه من الحياة الصحراوية ، مشاهد حية لهذه الحيـــاة، وسجل الرحالة ن الذي زار الصحراء عدة مرات عادات وتقاليد الصحراء .

ومن هنا ولتفادي هذه الإشارات في كل مرة فكرت في إيجاد كلمة واحدة يكمنني مـــن خلالها التعبير عن كل هؤلاء، وفكرت في كلمة المستشرق، ولكنني عزفت عن توظيفها لأنها لا تؤدي الغرض المراد حسب اعتقادي، فالشرق ليس الصحراء؛ إن الصحراء شيء آخر .

---

[1] CHAMSAUR، Félicien: **Le Baiser du Soleil**، Ferenczi et fils editeurs، 1888، p 176

إنها صحراء شمال إفريقيا، اكبر صحراء في العالم، تمتد من المحيط الأطلسي علـــى البحـــر الأحمر، بعرض يقدر بـــ 1500 كلم وطول يصل إلى 5200 كلم من الشرق إلى الغرب، تغطي مساحتها حوالى تسعة ملايين كلم^2. وتمس عشرة دول إفريقية؛ هي كل من الجزائر، تـــونس ، المغرب، النيجر، مالي، ليبيا، مصر ، موريطانيا، التشاد والسودان.

وصحيح أنه إلى عهد غير بعيد كان الأوروبيون يضعون عبارة Terra Incognita أرض مجهولة على خرائطهم، للإشارة إلى هذه الصحراء، غير أن الاستكشافات لهـــذه المنطقـــة قديمة وكثيرة. فأقدم رحلة إلى الصحراء تعود إلى ما قبل 470 قبل الميلاد وهي تلك التي قام بهـــا المستكشف القرطاجني هانون Hannon (530- 470 ق.م) ، تليها رحلة رحلة هيرودوت Hérodote (484 -420 ق.م) لتبعها رحلات واستكشافات آخرين؛ كاميليوس بالبوس Cornélius Balbus سابتيموس فلاكـــوس Septimus Flaccus ، بطـــوليمي Ptolémée، ، ليون الإفريقي Léon l'Africain الماجور لانج Major Laing ، ريني كايي René Caillé، هاينريش بـــارث Heinrich Barth ، هنـــري ديفيريـــي Henri Duveyrier، جيمس رتشاردسونJames Richardson، رولفز Rohlfs ، ناختيغال Nachtigal ، فون باري Von Bary والقائمة طويلة...طويلة .

وفي الفنون التشكيلية وحدها أحصيت 247 رساما زاروا الصحراء الجزائريـــة فقـــط و استلهموا منها لوحاتهم ورسموا مناظرها و مشاهد الحياة بها، هذا ما بين ســـنة 1830 و 1960 فقط.[1]

أضف إلى كل هؤلاء، جمهرة أخرى من الكتـــاب والـــروائيين والشـــعراء واللســـانيين والإثنولوجيين والأنتروبولوجيين، والمؤرخين، والجيولوجين؛ وفي الأخير تساءلت أولا يمكن أن نوجد لكل هؤلاء مصطلحا واحدا متفردا، خاصا بهم؟

---

[1] Marion Vidal-Bué: L'Algérie du Sud et ses Peintres 1830) 1960، Paris Edit 2000

أولا يمكن أن نطلق على كل هذه الدراسات التي اتخذت من الصحراء موضوعا لها، ومن المجتمعات الصحراوية، على اختلاف أجناسهم ومشاربهم الثقافية والعقائدية مادة لدراساتهم: الدراسات الاستصحارية؟ أولا يمكن ان نطلق على كل هؤلاء الدارسين لها مصطلح المستصحرين ، وقد كرسوا كل جهودهم لدراسة الصحراء؟.

وانطلاقا من هنا فإني ارتأيت أن أقترح مصطلحا جديدا يمكنه أن يحتوي كل هذه الدراسات على اختلاف مناحيها وموضوعاتها، وهو مصطلح الاستصحار ، وسأحاول هنا أن أؤسس لهذا المصطلح الذي بإمكانه أن يكون بديلا لمصطلح الاستشراق الذي ما عاد في رأيي يعبر بعمق على هذه الدراسات .

1- المستوى الصرفي

بالاعتماد على الاشتقاق والذي يعني في علوم العربية : صوغ كلمة من أخرى، مع تناسب بينهما في اللفظ والمعنى، أو أخذ صيغة من أخرى ، فهو توليد لبعض الألفاظ بعضها من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد مادتها، ويوحي بمعناها المشترك الأصيل مثلما يوحي بمعناها الخاص الجديد.[1]

وصيغة الاستفعال تؤدي معنى الطلب؛ فالاستفهام لغة هو طلب الفهم

والاستغلال طلب الغلة، والاستغفار طلب المغفرة والاستقبال مثلا هو اتجاه الذهن نحو المستقبل لتلقيه ومعرفته، ويقابله الاستذكار وهو اتجاه الذهن نحو الماضي لتذكره ومعرفته.

فالاستصحار هو التوجه بالدراسة نحو الصحراء

وهكذا فالاستصحار هو طلب الصحراء

1. مجموعة من الأساتذة المختصين، معارف إسلامية،، الجزء الأول ، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 2002، ص 585

جاء في مختار الصحاح للرازي كما سبق وأن أشـــرت ، أصـــحر الرجـــل: خـــرج إلى الصحراء[1]

وفي لسان العرب لابن منظور، وأَصْحَر المكانُ أَي اتَّسع. وأَصْحَرَ. الرجل: نزل الصحراء. وأَصْحَرَ القوم: برزوا في الصَّحْراء، وقيل: أَصْحَرَ الرجل إِذا . . . (* هكذا بياض بالأصـــل). كأَنه أَفضى إِلى الصَّحْراء التي لا خَمَرَ بها فانكشف.

وأَصْحَرَ القوم إِذا برزوا إِلى فضاء لا يُوارِيهم شيء. وفي حديث أُم سلمة لعائشة: سَـــكَّن الله عُقَيراكِ فلا تُصْحِرِيها؛ معناه لا تُبْرِزِيها إِلى الصَّحْراء؛ قال ابن الأَثير: هكذا جـــاء في هـــذا الحديث متعدِّياً على حذف الجار وإِيصال الفعل فإِنه غير متعدّ،

وفي منجد اللغة والأعلام أصحر الأمر وبالأمر : أظهره يقال "لا تصحره أمـــرك" أي لا تظهره له، وأصحر ما في قلبك [2]

الفعل استصحر أي طلب الصحراء من أجل استكشافها

ويكون مصدره على وزن فِعْلِهِ ــ أي على وزن الفعل السداسي ــ مع كســـر الحـــرف الثالث وزيادة الألف قبل الحرف الأخير وهكذا يكون الاسم من استصحر الاستصحار.

فالصيغة المشتقة استصحار متفقة مع الصيغة المشتق منها صحراء، اعتمادا على التركيب، وعلى تقليب تصاريف الكلمة.

ومنه نقول **استصحر** الشيء الفعل المقترح أي عمل على كشفه وظهوره، وهو هـــدف هؤلاء **المستصحرين** أي دارسي الصحراء من اجل كشف أســـرارها وخصوصـــياتها الطبيعيـــة والاثنولوجية والثقافية وغيرها. وهكذا فالاستصحار هو دراسة الصحراء من طـــرف دارســـين

---

[1] الرازي: مختار الصحاح

[2] المنجد في اللغة والأعلام ، ط23، دار المشرق ، بيروت 1973، ص 417

أجانب طلبوا الصحراء ، وقصدوها من أجل الاكتشاف والتنقيب عـــن حيثيـــات مظاهرهـــا المتعددة.

2- المستوى الاصطلاحي

إن مصطلح الاستشراق اليوم آيل إلى إعادة النظر في مفهومه ، وكثير مــــن المفكـــرين الغرب يعملون على التقليل من استعماله، لأنه ارتسم في ذهنية الشرقيين بصورة سلبية، لالتصاقه بالمد الاستعماري والجوسسة من جهة، ولتلك الأخطاء الفظيعة التي غالبـــا مـــا يقـــع فيهـــا المستشرقون عن أمم الشرق وخاصة ما تعلق بالأحكام الخاطئة عن الإســـلام و الآراء المغرضـــة حول المجتمع الإسلامي.

ثم إن مصطلح الإستشراق في اعتقادي مصطلح فضفاض، واسع فكما جاء في القـــواميس الفرنسية نجد هذه التعاريف للاستشراق:

1- goût pour les choses، les mœurs، les paysages، les personnages de l'Asie ou de l'Afrique du Nord.

2- SCIENCES HUMAINES ensemble des disciplines ayant pour objet l'étude de l'histoire، des civilisations et des langues asiatiques.

3- mouvement pictural et littéraire du XIXe siècle، qui a pour thèmes les paysages، les scènes et les personnages d'Afrique du Nord et du Proche-Orient.

4- caractère (de quelque chose) propre à l'Asie ou à l'Afrique du Nord .

ومعظم هذه التعاريف تصب في أن الاستشراق هو دراسة الحضارات الشـــرقية ولغاهـــا وعاداها، وهو كل ما له علاقة بهذه الشعوب، غير أن الغريب أن هذه الشعوب التي يقصــــدوها هي كل الشعوب الآسيوية وكل شعوب شمال إفريقيا، بما لكل شـــعب مـــن خصوصـــيات حضارية وثقافية واجتماعية.

ولندرك مدى اتساع هذا المصطلح في نظر الغرب، يكفي أن نلقي نظـــرة علـــى بعـــض التعاريف التي يعطونها للشرق؛ فمثلا في العدد الأول من مجلـــة الشـــرق La Revue de l'Orient الفرنسية، والتي تعتبر لسان حـــال جمعيـــة المجتمـــع الشـــرقي La Sociéte Orientale التي تأسست بباريس سنة 1841، كتب نائب رئيسها أ. هيجو A. Hugo في مقال بنفس المجلة بعنوان: ماذا نعني بالشرق؟ يقول:" حين أعلنا بأن الجمعية تهتم بالشرق، طلب منا أن نبين ماذا نقصد بالشرق.

الشرق بالنسبة لنا ليس هو ذاك المحدد تلك الحدود التي يطلق عليها جغرافيو القرن الماضي بأقطار الشرق، أي تلك الأقطار المنضوية تحت لواء الإمبراطورية العثمانية...

إلى أن يقول: " شرقنا يتضمن كل الأقطار الأوروبية للبحر الأبيض المتوسط، والتي لهـــا علاقة مع البلدان الإفريقية والآسيوية الواقعة على ضفاف هذا البحر؛

اليونان وجزره

تركيا الأوربية وملحقاتها؛ فلاشيا، سربيا ومولدافيا

المستعمارات النمساوية على الأدرياتيك

المستعمرات الإنجليزية، مالطا والجزر الإيونية

الجزائر التي توليها فرنسا اهتماما خاصا.

مصر ذات الأهمية الشرقية الحقيقية

روسيا الجنوبية التي تشرف على حوض البحر الأسود، وبحر آزوف

كل آسيا، من الشمال إلى الجنوب، من البحر الجليدي إلى بحر الهند، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى بحر اليابان؛

اليابان وأرخبيله

العربية السعودية والبحر الأحمر.

حوض الخليج الفارسي، أين يصب الفرات، الطريق الأخرى للهند.

إفريقيا الشرقية، الوسطى والجنوبية ، من رأس الرجاء الصالح إلى رأس غاردافوي، ومن مضيق باب المندب على ميناء السويس.

جزر مدغشقر، جزر بوربون، وجزيرة موريس.

كل أوقيانيا : جزر الصوند، جافا، بورنيو ، سومطرة، أين توجد المستعمرات الهولندية؛ جزر سيلاب والموليك، الفيليبين، المستعمرات الإسبانية؛ غينيا الجديدة وجزر البوبوازي؛ استراليا الشاسعة؛ هذه الجزيرة القارة غير المكتشفة بعد. أخيرا زيلاندا الجديدة، والجزر العديدة لبولينيزيا، أين يرفرف الآن العلم الفرنسي."[1]

إن الرقعة الجغرافية للشرق كما نرى واسعة جدا، وهذا لأن العالم مقسم إلى شرق وغرب؛ وإذا سايرنا أ. هيجو في تقسيماته فإن الشرق هو كل العالم تقريبا عدا بعض أوربا وأمريكا او كما يقول:" والغرب هو عالمنا القديم المتحضر، العالم الجديد الذي اكتشفه كريستوف كولومب"[2]

ولقد أدرك المستشرقون مؤخرا أن هذه الصورة التي طبعت في أذهان المشارقة حولهم من الصعب أن تنمحي. فعمدوا إلى التضييق من استعمال هذا المصطلح، لهذا السبب ولغيره من الأسباب إذ أن العقل الغربي عموما يتجه الآن إلى التخصيص والتجزيء، سواء في دراسة العلوم الإنسانية أو العلوم الدقيقة؛ وكثيرة هي العلوم التي قسموها وجزؤوها إلى فروع ليغدو كل فرع علم قائم بذاته، وهكذا ظهرت الآن بعض التسميات الجديدة التي كان الاستشراق إلى وقت قصير هو الدال الوحيد لها؛ فأصبح المستشرق خبير شرق، ثم ظهرت التجزيئات الجغرافية

---

[1] HUGO. A : *Ce que Nous entendions par l'Orient*، in : **Revue de l'Orient**، Tome 1، Cahiers I à IV، Paris 1843، p 6 et 7

[2] المرجع السابق ، ص 8

فظهر ما يطلقون عليه الآن اسم الدراسات الشرق أوسطية، والدراسات الشمال إفريقية وغيرها. والاستشراق حسب إدوارد سعيد ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة من منتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبرا عنه، وممثلا لمؤامرة إمبريالية غربية شنيعة لإبقاء الشرق حيث هو، بل إنه بالحري توزيع للوعي الجغرا- سياسي إلى نصوص جمالية، وبحثية واقتصادي وتاريخية وفقه لغوي، وهو إحكام لا لتمييز جغرافي أساسي وحسب. " العالم يتألف من نصفين غير متساويين الشرق والغرب".[1]

وهكذا تعددت المفاهيم حول الشرق، وظهرت مفاهيم جديدة له فهو حسب ساليناس SALINAS: تعويضية رومانسية للبلد المغزو، أين نجد مصطلح الشرق قد فقد مفهوم تموضعه، ليمثل فقط حضارة منفردة، مغمورة بالشمس"[2]

فإذا كانت إفريقيا حسب ساليناس شرقا جديدا، فإن الصحراء شرقا آخر تماما، بل شيئا آخر غير الشرق تماما.

ولو نظرنا إلى تاريخ العلوم و تطورها مثلا نلاحظ أنه في البدء كانت فروعها تعد على أصابع اليد الواحدة ؛ فتلاميذ فيتاغور ، لم يكونوا ليميزوا إلا ما بين أربعة فروع للعلوم : الحساب ، الهندسة، الموسيقى والفلك، لتظهر في عهد أرسطو فروع أخرى كالفيزياء، والكيمياء وعلم النبات والميكانيك وغيرها. وبدأت تتفرع العلوم من بعضها البعض فمن العلوم الفيزيائية ظهر علم الطيران والإلكترونيك والتعدين وغيرها، وتفرع علم الزراعة والطب من علوم الحياة. وهكذا فإن فروع العلوم مترابطة فيما بينها، وهذا الترابط هو الذي ساهم في ظهور فروع هجينة وتخصصات جديدة.

---

[1] نقلا عن أطروحة الدكتوراه للأستاذ رشيد رايس ، إدوارد سعيد : الاشستشراق، ص 43

[2] نقلا عن المرجع نفسه ، SALINAS، Michelle: **VOYAGES ET Voyageurs en Algérie** 1830-1930، TOULOUSE، 1989 PP308

وما ينطبق على العلوم الدقيقة والتطبيقية ينطبق أيضا على العلوم الإنسانية ونظرياتها؛ فالإثنولوجيا فرع انبثق من الأنتروبولوجيا، التي بدورها انقسمت إلى الأنتروبولوجيا التاريخية، والأنتروبولوجيا الاجتماعية، والأنتروبولوجيا الثقافية وغيرها، وفي الأدب تتناسل النظريات فتتعدى بعضها البعض؛ فبعد البنيوية وما بعد البنيوية تجيء التفكيكية وهكذا.

وبناء على هذا التطور للعلوم، وهذه العلاقة الترابطية فيما بينها، وبناء على التوجه الطبيعي نحو التخصيص والتجزيء للعلوم والمعارف وتفريعها من أجل ضبط حقولها، ودراستها دراسة دقيقة، فإنني أقترح مصطلح الاستصحار واشتقاقاته؛ كفرع منبثق من الاستشراق الذي لم يعد قادرا على احتواء كل تلك الدراسات المنضوية تحت مفهومه.

المعاني المقترحة لمصطلح الاستصحار

وبعد هذا كله أود أن أقترح هنا المعاني والدلالات التي يمكن إعطاؤها لمصطلح الاستصحار، وهي المعاني التي استشفيتها من خلال القياس على مصطلح الاستشراق.

أ - الاستصحار

1- التعلق والإعجاب بالأشياء، بالعادات، والسلوكيات وبالمشاهد والمناظر الصحراوية.

2- تلك الدراسات والأبحاث التي يقوم بها غير صحراويين انتماء حضاريا أو جغرافيا في مختلف نواحي المعرفة:؛ التاريخ والحضارة واللغة وغيرها من التخصصات.

ونطلق على هذه الدراسات اسم الدراسات **الاستصحارية**

3- طبيعة شيء ما خاص بالصحراء.

ب - المستصحر:

مستصحر: اسم

1- من يدرس تاريخ ، حضارة، عادات وطبيعة الصحراء من الأجانب

2- فنان يرتبط بالصحراء

مستحصر : صفة

1- ما يأخذ مشاهد الحياة ومناظر الطبيعة الصحراوية وشخوصها كموضوع للدراسة. كان نقول : نصر الدين ديني رسام **مستصحر.**

2- من يدرس تاريخ أو حضارة أو لغة الصحراء .

كأن نقول : تروملت إثنولوجي **مستصحر.**

مقابل مصطلح الاستصحار في اللغتين الإنجليزية والفرنسية:

جاء في القاموس الموسوعي أوكسفورد بخصوص كلمة صحراء ما يلي :

-Sahara: Desert in North Africa، the largest in the world، covering 9065000sq km (3500000 sq miles) from the Atlantic to the red sea.[1]

واعطى اشتقاق الصفة من الاسم Saharan adj أي صحراوي أو ذو علاقة بالصحراء.

اما اللاحقة Ism فهي كما في أوكسفورد:

Ism: suff

1 (with verbs ending in –ize forming nouns) baptism š Criticism.

2 (a) (with nouns forming nouns) showing qualities of: heroism š Americanism

[1] Oxford Advanced Learner's Encyclopedic Dictionary، Oxford University Press، Fourth Impression، 1998، p 798

(b) (with proper nouns forming uncountable nouns) doctrine ، system or movement : Buddhism š Communism.

(c) (with nouns) medical conditions or disease: alcoholism .

(d) (with nouns) practice or showing prejudice or discrimination because of : Sexism š racism.[1]

وانطلاقا من نفس المبدأ الذي اتخذته في اشتقاق الكلمة في اللغة الفرنسية فإني أقترح إضافة اللاحقة ism إلى الصفة Saharan لنتحصل في الأخير على كلمة **Saharanism** كما جاء التعريف: (b)2 ، أي إضافة اللاحقة إلى اسم للدلالة على مذهب أو نظام أو حركة.

وهكذا يكون المقابل لمصطلح الاستصحار المقترح

أ – في الفرنسية

الاستصحار : Saharienisme

المستصحر: Saharieniste

الاستصحاري أو الاستصحارية :Saharieniste

ب – في الإنجليزية:

الاستصحار :Saharanism

المستصحر: Saharanist

الاستصحاري أو الاستصحارية :Saharanist

[1] المرجع السابق، ص480

فصل ثان

الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمجتمع الصحراوي

تمهيد

تختلف المجتمعات في بنيتها بحسب تاريخ هذه المجتمعات وأصولها وخلفياتها الحضارية والعقدية، وهي الأبعاد التي تؤسس للمجتع كيانه المتميز والمختلف عن جميع الكيانات الأخرى، وسنرى في هذا الفصل الأبعاد الحضارية والاجتماعية والثقافية التي أسست لبنية المجتمع الصحراوي الجزائري ليكون مجتمعا متفردا بخصوصياته التي لا نجدها لدى أي مجتمع آخر .

1- البعد الاجتماعي:

- البداوة والحياة الصحراوية

البداوة نمط حياة السكان غير الحضريين، ويتميز بالتنقل الدوري أو الموسمي من أجل كسب العيش والرزق، وكلمة بدوي راحل أو « nomade » بالفرنسية أصلها يوناني «nemein» والتي تعني أرعى « faire paître » . ونمط الحياة هذا يحتوي على حقائق إثنولوجية مختلفة على الناحية التاريخية، الجغرافية والثقافية.

وقد قسم الإثنولوجيون البداوة إلى نمطين رئيسين؛ مجتمعات القناصين الصيادين والقطافين، وهم اليوم قلة قليلة، من جهة، ومجتمع الرعاة والتي يعتبر البدوي العربي نموذجا حيا له من جهة أخرى.1

وأهل البدو، كما يرى ابن خلدون مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس، والمساكن ، يتخذون البيوت من الشعر، والوبر، أو من الشجر، أو من الطين والحجر"2

وقد صنف ابن خلدون أهل البدو على ثلاثة أصناف حسب طريقة عيشهم وأسلوبهم في الحياة، وهذه الأنواع هي :

أ- من كان منهم في الزراعة والقيام بالفلاحة، وتربية النحل، كان المقام أولى به من الظعن، وهؤلاء سكان المدر (ضواحي المدن) والقرى والجبال، وهم البرابرة وغير العرب.

[1] Collection Microsoft ® Encarta ® 2005. **Nomadisme**، 1993-2004

[2] IBN KHALDOUN: **Discours sur L'histoire Universelle Al- Muqaddima**، traduit par: Vincent Monteil، Sindbad، 1978، p243

ب- من كان معاشه في السائمة، مثل الغنم، والبقر، فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح، والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح لهم، وهم الشاوية، الذين لا يتوغلون داخل الصحراء.

ج- من كان معاشه في الإبل، فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا. وهم بدو العرب بالشرق، و بدو البربر والزناتيين بالغرب.1

من خلال هذا التقسيم نستطيع أن نستشف أن النوع الأول هم سكان الشريط الساحلي الذي يقطنون القرى والأرياف، والنوع الثاني هم أولئك الذين يتواجدون على تخوم الصحراء، أما النوع الثالث فهم سكان الصحراء.

وما يهمنا في هذا البحث هو النوع الثاني والنوع الثالث؛ لأنهما يرتبطان إقليميا بالصحراء، ويصنفان ضمن البداوة الرعوية.

البداوة والجمل:

إن هذا النمط من الحياة الخاص بالمجتمع الصحراوي والمجتمع المتاخم للصحراء، يعتمد على الرعي، وعلى تربية الماعز والغنم والإبل، وتربى هذه الحيوانات لأسباب عديدة تتمثل أساسا في أنها تعتبر الغذاء المباشر لأفراد المجتمع ، (الحليب واللحم) بالنسبة للإبل والماعز والغنم، أما الجمل فإضافة إلى ذلك يستعمل للنقل والرحيل والسفر، ويمكن تقسيم الحياة البدوية في الصحراء الجزائرية إلى قسمين، هما البداوة الرعوية والبداوة الحربية.

أما البداوة الرعوية كما يقول أرنولد توينبي Arnold Toynbee 1 فإنها مثل الحياة المدنية، هي أسلوب في الحياة غير زراعي، إلا أنه طفيلي يعيش على الزراعة، وما كان له أن يوجد إلا على مقربة من السكان الزراعيين وبالمشاركة معهم.....2

[1] **المرجع السابق** ، ص244

والجمل بالنسبة للبدوي بمثابة المحور الرئيس الذي تدور حوله الحياة البدوية، ولولا الجمل ما للحياة البدوية أن تكون، كما يقول فيال VIAL : "إن الحياة البدوية ما كان لها لتكـــون لولا الجمل الذي بواسطته استطاعت بعض القبائل الصحراوية التأقلم والعيش وسط الصـــحراء وظروفها الطبيعية القاسية.

ومنذ القرن الثاني للميلاد، عدّ إدخال الجمل حدثا رئيسا في تاريخ الصحراء، إذ بواسطته بدأت بعض الشعوب الرعوية تتوغل شيئا فشيئا في عمق الصـــحراء، ثم في القـــرون اللاحقـــة وضعت هذه الشعوب النمط الوحيد للحياة خارج الواحات؛ الحياة البدوية. فالجمل -وحده- من ساعد البدوي الراحل على العيش والحياة في الصحراء. فهو يحمل وينقل الماء، المواد الغذائية، يوفر للبدو الحليب والوبر، وللأغنياء منهم اللحم والجلد.3

وقد عرفت صحراء شمال إفريقيا هذا النمط من الحياة منذ عصور قديمة تعود إلى ما قبـــل التاريخ الميلادي كما يؤكد ذلك المؤرخ أرنولد توينبي: " ولما دجن الجمل ذو السنام الواحد في السهوب العربية قبل انتهاء الألف الثانية قبل الميلاد، ولما تأقلم الحصان هناك قبل بدء التـــاريخ الميلادي، اتسع مجال البداوة الرعوية فشمل بلاد العرب، ومنها انتقلت البداوة الرعوية إلى شمال إفريقية.4

هذا بالنسبة للبداوة الرعوية، أما بالنسبة للبداوة الحربية كما هو الحال بالنسبة للطـــوارق فالجمل أو المهاري يلعب دورا بارزا في الحفاظ على هذا النمط الحياتي في الصحراء، ويظهر هذا في الأغنية الطارقية:" اعطني خيمة ومهاري وسأكون سعيدا".

---

[1] أرنولد تزيني Arnold Toynbee مؤرخ بريطاني ولد بلندن سنة 1889، درس التاريخ اليوناني والبيزنطي بجامعة لندن ، قبل أن يصبح مديرا للمعهد الملكي للشؤون الخارجية، أهتم بدراسة فلسفة التاريخ ، ويعتبر كتابه " دراسة التاريخ" في إثنى عشر مجلدا أهم أعماله.

[2] توينبي، أرنولد، **تاريخ البشرية** ترجمة الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1985. ص 125

[3] VIAL، Yves et Maurice: Sahara Milieu Vivant، Hatier، Paris، 1949، p 198.

[4] توينبي، أرنولد، **تاريخ البشرية** ترجمة الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1985. ص127

النظام الاجتماعي

إن النظام الاجتماعي السائد في الصحراء ، وفي غير الصحراء باستثناء المدن الكبرى التي كانت تحت نفوذ الاحتلال الفرنسي، هو نظام الجماعات واالمشايخ، ولم تستطع، لا الحكومة العثمانية ولا الإدارة الفرنسية إخضاع القبائل العربية أو البربرية تحت سلطتها.

كان المجتمع الجزائري مجموعة من الفرق والطوائف والقبائل، المختلفة بعضها عن بعض في السلوك وطريقة التفكير والعادات والتقاليد وغيرها.

ونقطة الضعف في أحكام المستشرقين كما يقول الدكتور حنفي بن عيسى، في حديثهم عما يسمونه طوائف السكان، وذلك أن سكان الجزائر - والمغرب العربي بصورة عامة – لا يؤلفون في نظرهم مجموعة متجانسة من المواطنين الذين تجمع بينهم التقاليد والعادات واللغة والدين والأرض، بل هم ينتمون إلى طوائف بينها فروق عديدة.1

فإذا كان النظام عند البربر ديمقراطيا، حيث يحافظ الفرد على حقوقه مع واجباته فإن النظام عند العرب نظام أرستقراطي ، ديني ، أبوي، يذوب فيه الفرد أمام من هو أعلى منه منزلة، وهذا هو الفرق بين العرب والبربر، أحدهما يعلي الفرد والآخر يعلي الجماعة.

عند البربر ليس هناك شيوخ أو زعماء أو نبلاء، هناك فقط مندوبون بسطاء مكلفون بإدارة الأمور، أو بتنفيذ القوانين التي كرستها الأعراف والزمن والمنتخب عليها داخل المجلس العام والذي يطلق عليه اسم الجماعة، والذي يمكن لكل فرد بلغ سن الرشد أن ينضم إليه فيناقش ويطرح أفكاره وينتخب.2

ولأن النظام الاجتماعي في الجزائر له خلفيات دينية، فإنه استطاع أن يحقق ما لم تستطع المؤسسات السياسية أن تحققه يقول دوتي Edmond، DOUTTE : "وحتى النظام الاجتماعي،

---

[1] بن عيسى حنفي، *المستشرقون وتاريخ الجزائر*، **مجلة المعرفة**، العدد 6 ،نوفمبر 1963، الجزائر، ص 45.

[2] FAIDHERBE، Léon: **Instruction sur l'Anthropologie de l'Algérie**، Paris، 1874 p 19- 20

ذو مظهر ديني، فالحاكم هو الخليفة الإمام ذو السلطة المطلقة... وحتى في المناطق النائية عن الحكم، وربما يقصد بذلك الصحراء- أخذ النظام صبغة دينية؛ حيث ارتبطت القبائل بشيخ من الشيوخ لدى سكان شمال إفريقيا ؛ وأصبحت تسمى قبيلة أولاد سيدي فلان، والمدارس في يد رجال الدين أو الطُّلبة... وأخيرا فإن الطرق الدينية والتي وصل تأثيرها إلى أقصى القرى والدواوير البعيدة، استطاعت أن تعطي للإسلام قوة وترابطا لم تحققه المؤسسات السياسية".1

وقد قسم الفرنسيون القبائل إلى أنواع حسب طريقة ونمط حياتهم أو تاريخهم، أو أصولهم ؛ فهناك القبائل الدينية Tribus religieuses والقبائل النبيلة Tribus nobles والقبائل المهاجرة tribus- colonies والقبائل المحاربة Tribus guerrieres

القبائل الدينية

هي قبائل كل أفرادها مرابطون أبناء مرابطين وكثيرا ما تسمى باسم أولاد سيدي فلان، وتتمتع هذه القبائل بسلطة اجتماعية كبيرة، فهي التي تعطي إشارة الحرث والحصاد، وهي التي تعطي إشارة الحرب المقدسة.

ولدى هذه القبائل ضريح شيخ القبيلة وتدعى القبة وبجانبها توجد الزاوية والتي تكون عادة بمثابة مقر شيخ الزاوية وعائلته. ويجد الزائر في الزاوية المأكل والمأوى والمساعدة

---

[1] DOUTTE، Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، typographie Adolphe Jourdain، Alger، 1909. p12 - 13

.

المادية؛ وهكذا فالزاوية تشمل كثيرا من متطلبات الحياة والخدمات الاجتماعية وبها المدرسة والمسجد والمحكمة والترل والمطعم وغير ذلك من المرافق.

ويقول روزي Rozet : إن من هذه الزوايا تخرج الكثير من مثيري الشغب أي المقاومات التي عانت منها فرنسا ومن بين هذه الزوايا زاوية سيدي سالم جنوب الجزائر، وزاوية سيدي محي الدين باغراس جنوب وهران ، والتي كانت قبل ثلاثمائة سنة تتمتع بشهرة عظيمة في العلم والقداسة حين كان ليون الإفريقي يكتب وصفه لإفريقيا، وكثيرا ما زعزعت عرش تلمسان ودولة بني زيان القوية. ويكمل روزي حديثه عن هذه الزاوية وتاريخها ليقول : وهكذا وبعد ثلاثة قرون، وبنفس الزاوية ؛ زاوية سيدي محي الدين يزداد ولد ذاع صيت اسمه في كل أصقاع العالم يدعى : عبد القادر.[1]

القبائل النبيلة

وهي قبائل تعتمد في إثبات وجودها على قدراتها العسكرية ولا تستقي مكانتها وهيبتها من السلطة الدينية كما يقول روزي ROZET، وإنما من السلطة العسكرية، مثل قبائل الأجواد بالغرب الجزائري وقبائل الداودة وهي قبائل تعمل في خدمة قبائل أخرى وتقوم بحمايتها أثناء الغارات والحروب.[2]

القبائل المهاجرة

هي قبائل تضطرها المعاناة والفقر، أو الاضطرابات السياسية، والخلافات والتراعات التي تنشب بينها وبين القبائل المجاورة إلى الهجرة والتنقل إلى أماكن أخرى بحثا عن الأمن أو الرزق ومن هذه القبائل قبيلة بني عريب المتواجدة على أبواب الجزائر العاصمة والتي انتقل جزء منها

---

[1] ROZET ET CARETTE : **L'Algérie**، Paris، Firmin Didot Frères، Editeurs، 1850. p 232

[2] **المرجع السابق** ، ص233

من جنوب الصحراء المغربية لتستقر بتخوم الصحراء الجزائرية، وبسبب خصـــام مـــع القبائـــل المجاورة، رحلت إلى ضواحي الحضنة، ومنها إلى ضواحي بجاية وهكذا فقبيلة بني عريب مثـــال للقبيلة المهاجرة. 1

القبائل المحاربة

وهي قبائل تعيش على الغزو والغارات على القبائل الأخرى كما هـــو الحـــال بالنســـبة للطوارق الذين يطلقون عليهم اسم محـــاربوا الصـــحراء Les guerriers du désert والذين يعيشون على الغارات التي يقومون بها على قوافل التجارة التي تعبر الصحراء .

الأسرة والمرأة في النظام الاجتماعي

إذا كانت القبيلة هي الخلية الأساسية في تركيبـــة النظـــام الاجتمـــاعي لـــدى المجتمـــع الصحراوي، فإن الأسرة هي معين هذه الخلية الكبرى، تستقي منه قوتها وصيرورتها، والمرأة أهم روافد هذا المعين إذ أنهما تشكلان قوامه ودعامته الرئيسة، فالأسرة هي الدرع الواقية لـــه مـــن الآفات ، وكما جاء في قواميس اللغة فالأصل اللغوي لمعنى الأسرة أنها "الدرع الحصينة" وأسرة الرجل : أهله وعشيرته الأدنون وقال الجوهري :" أسرة الرجل رهطه لأنه يتقوى بهم. وهـــي النواة التي تتكون منها المجتمعات، وتنشأ الأمم والشعوب،[2] والأسرة واحدة من أهـــم الـــنظم الاجتماعية، وهي الجماعة الأولية التي يفتح الأطفال- في الظروف الطبيعية- عيونهم عليها.

فللأسرة تأثير في أعماق شخصية الفرد، وهي لا تخلو من الترابط والتعاون والألفة، بل إن هذه الصفات هي أهم الملامح المميزة للأسرة"[3]

[1] **المرجع نفسه**، ص 226

[2] أحمد الشويرف، عبد اللطيف، **معارف إسلامية**، الجزء الأول ، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 2002.ص 533

[3] نقلا عن معارف إسلامية ص539 ، علياء شكري، **التجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة**، دار المعارف، القاهرة، ط:2، 1981، ص15.

وللأسرة دور كبير في حياة الصحراويين، وتأثيرها في سلوكيات الأفراد، وبناء شخصيتهم أكثر من تأثيرها عند سكان المدن، ويعود هذا كما تشير إلى ذلك الباحثة علياء شـــكري، إلى نمط الحياة البدوية، تقول الباحثة: "وكلما كانت المجتمعات أقرب إلى البداوة، كان تأثير الأسرة وقوة ضبطها لأفرادها بدرجة كبيرة، لكن ذلك يقل وقد ينعدم في المجتمعات الصناعية المتقدمة، كما أن الزواج قل أن يتم عشوائيا، فهو في المجتمعات الشرقية يخضع لضوابط ينذر أن يتمـــرد عليها الأبناء، وقد أثبتت دراسات متعددة في علم الاجتماع وجود تحديد أكثر إلزاما بـــالزواج من بنات العمومة والخؤولة"[1]

ورغم الدور المهم للمرأة داخل الأسرة فإن هذه الأخيرة، لم تتح لها الفرصة للعب دورها كعنصر فاعل داخل المجتمع، إذ أن الصورة التي رسمها الرحالة الفرنسيون للمرأة الجزائرية صورة سوداء قاتمة، فهي ذلك الكائن المسلوبة إرادته وحقوقه، ومنهم من ذهب إلى القول بأن الجزائر لها كل شيء عدا المرأة ؛ المرأة لا توجد بالجزائر؛ المرأة الروح، والمرأة الكائن الجميل المرهـــف الأحاسيس ؛ يقول بنجامين غاستينو GASTINEAU ،Benjamin : "الجزائـــر لهـــا الصحراء، الواحات، البحر والجبال، لها سماء رائعة على الدوام، أرض خصبة، وغابـــات مـــن البلوط الآهلة بالأسود والفهود، منابع باردة ومياه معدنية حارة، خيول تحسدها عليهـــا كـــل أوروبا، محاجر من الرخام ومناجم من الذهب والفضة والحديد والرصاص، الجزائر... لها كـــل هذه الفضاءات، وهذه الثروات، كل هذا الجمال، ولكن ليس لها المرأة.[2]

ويؤكد فرومونتان على هذه الوضعية المزرية التي كانت تعيشها المرأة الجزائريـــة عمومـــا والمرأة الصحراوية العربية بالخصوص، حين يكتب لأحد أصدقائه؛ ما سأقوله لك عن الظروف القاسية للمرأة العربية ليس جديدا؛ فأنت تعلم الوضعية التي يمنحها لها الزواج؛ فهي في الوقـــت

[1] المرجع نفسه، ص 72.

[2] GASTINEAU, Benjamin: **Les femmes et les mœurs de l'Algérie**، Paris 1861p 5

نفسه الأم، والحاضنة، العاملة، الحرفية، سائسة الخيل، الخادمة، وتقريبا بهيمة المـــترل[1]، ويـــرى البعض أن من الخصائص المميزة للمجتمع الجزائري مترلة المرأة فهي سيدة البيت، لكنها محجوبة عن الشوارع، ومحرومة من التعلم والشغل.[2]

ولكن وبرغم الدور الإيجابي الذي تمارسه المرأة داخل المنظومة الاجتماعية فإن حقوقهـــا مهضومة ، وإن حاولت المطالبة بها أو التوجه إلى العدالة لتأخذ لها هذه الحقوق ؛ يؤكد غاستينو هذه الوضعية بقوله :" عبثا تحاول بعض النساء القويات الشكوى أمام القاضي من سوء معاملة أزواجهن، فنادرا ما ينصف القاضي تظلمهن. وهكذا فالأحسن لهـــن أن يعـــانين صـــامتات، خاضعات لقسوة الزوج، إلى أن يخلصهن الموت، ويتحولن إلى حوريات من حوريـــات جنـــة محمد".[3]

وهذه النظرة المبخسة حق المرأة، في المجتمع الجزائري تبدو أيضا من خلال الأمثال الشعبية الجزائرية ، التي تصورها بشتى أنواع الصور السلبية، كتلك الأمثال التي أوردها الجنرال دوماس:

"النساء يتحزموا باللفعى

ويعلقوا شناشنهم بالعقرب"

أو "سوق النساء كي سوق الصقور

اللي داخلو لازم يرد بالو

يدمرولو سمعتو

---

[1] FROMENTIN،Eugenne: **Un été au Sahara**. Paris Librairies Plon p 47.

[2] أندي برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست: **الجزائر بين الماضي والحاضر**،ترجمة رابح ومنصف عاشور، ديـــوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائر،1984، ص213

[3] GASTINEAU، Benjamin: **Les femmes et les mœurs de l'Algérie**، Collection Hetzl،Paris، 1861. p 16

ينسيوه في اعمالو

ويا كلولو مالو

ويعطيوه ضفيره

يكفن بيها حالو"[1]

وتصف إيزابيل إبرهاردت النساء الصحراويات فتقول: " أما وجوه النساء فكانت أكثر اسمرارا، متغضنة، العجائز درداء، ببناء ثقيل من ضفائر شعر أبيض محمر بالحناء، من ضفائر الصوف الأحمر، والأطواق والمناديل...أما الفتيات فقد كانت وجوههن مغرية وموصدة، ذات سمات قوية نسبيا ولكن نقية ومتجانسة، في سحنة داكنة، كانت عيونهن كبيرة مندهشة ووجلة... الكل ملفوف في ملحفة زرقاء داكنة، سوداء تقريبا، مثنية على الطراز القديم".

ثم تواصل فتصف لباسهن : يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية يندر المارة غير أنه في الوادي تتجول أحيانا كوكبة من النساء والفتيات في أثواب ساطعة، يطغى عليها تعدد الألوان الوردية والصفراء والحمراء والزرقاء وغيرها .

وعلى عكس المجتمع العربي ، تعتبر المرأة الطارقية، نظيرة الرجل، فهي كثيرا ما تكون متعلمة، ولها الحق في اختيار الزوج، ونظرا لقيمتها التي تتمتع بها داخل المجتمع توكل مهمة تربية الأبناء لها، ودائما وللسبب نفسه، لا ينتشر تعدد الزوجات بالمجتمع الطارقي رغم أنهم يدينون بالإسلام الذي يبيحه.[2]

---

[1] Le General Daumas، **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara** Paris 1 Librairie de L-Hachette et Cie.1853 p 125

[2]، : **A Travers le Sahara**، G**. DEMAGE, Aventures Merveilleuses de Marius Mercurin** ، Librairies Hachette، Paris، 1903، p 105

وللمرأة الصحراوية طقوسها وخصوصيتها في الاهتمام بجمالها وزينتها، ومن مظاهر هذه الزينة عند النساء الصحراويات أورد هنا الوشم والحناء والكحل كنماذج طاغية لدى كل نساء الصحراء:

- **الوشم**

الوشم سمة بارزة لدى المرأة البدوية الصحراوية حتى ليخيل للمرء أن تلك الأوشام ونساء البدو خصوصا، يوشمن ظاهر اليد، العنق، وسط الشفة السفلى ووسط الجبين، والوشم تمارسه النساء خاصة بواسطة إبرة، حيث يضعن تحت الجلد عجينة مصنوعة من ورق شجرة النيلة، والرماد، وأوراق نبات الأفانية السوداء، وهو نوع من البادنجان.[1] ويعتبر الوشم إضافة إلى كونه وسيلة من وسائل التجميل، رمزا للانتماء لقبيلة أو لأخرى.

- **الحناء**

الحناء (Laousonia Inermis) نبتة تزرع في كل الواحات الصحراوية، وتستعمل للدواء و للتجميل، ولهذا الأخير تجفف أوراق هذا النبات، ثم تطحن وتدق إلى أن تصير غبارا ، ثم يضاف إليها لنتحصل في الأخير على عجين يوضع لعدة ساعات على المكان المراد صبغه من الجسم، ونادرا ما يستعمله الرجال إلا في الأصابع، والبعض وهو قليل يحنّي يدا واحدة ، أما النساء فيحنين الأصابع، اليدين والرجلين[2]

- **الكحل**

الكحل (Sulfure d'antimoine) لا يفارق قارورة المرأة الحقيقية ويستعمل في صبغ الأشفار والحواجب، لإعطاء بريق أكثر للعينين، وعلاوة على ذلك فالكحل يعتبر دواء مهما لرمد العيون، هذا المرض المنتشر كثيرا بالصحراء. ويستحضر بعدة طرق، أحيانا من

---

[1] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p134

[2] Largeau، Victor، **Le Sahara Algérien**_. Paris، Libriairie Hachette et Cie، 1881 p 75.

كبريتات النحاس، والشب المحترق، كش القرنفل، المسك ، الزعفران، وصمغ جـــاوة...الخ، ثم يخلط الكل و يدق إلى أن يصير مسحوقا.[1]

إضافة إلى الحلي التي لا تتخلى عنها المرأة الجزائرية عموما و من بين الحلي التي تتخـــذها المرأة الجزائرية للزينة الأشناف وتلبس في الأذنين، والأشناف أو الشنوف من الحلي التي تضـــعها المرأة دوما، ولا تنزعها أبدا.

تصف إبرهاردت حلي المرأة الصحراوية فتقول: "كانت العجوزان ترتـــديان ملحفـــتين داكنتي الحمرة يشكل صوفهما الكث ثنايا ثقيلة حول جسديهما الموميائي، والتســـريحة وفـــق عادات البلد، بضفائر صوف أحمر وضفائر شعر شهباء مخضبة بحناء برتقالي نـــير لونهـــا، وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة، بسليسلات فضية مشبوكة في المناديل الحريرية للتسريحة. وعلـــى الصدر الهابط قلائد من قطع الذهب والعجائن المعطرة المجففة، وصفائح ثقيلـــة مـــن الفضـــة المرصعة؛ ومع كل حركة من حركاتهما المتباعدة والبطيئة ترن كل هـــذه الحلـــي والأســـاور والخلاخيل".[2]

2- البعد العرقي

يقول المؤرخ الفرنسي أوغستان تيري Augustin Thierry في كتابه تـــأملات في تاريخ فرنسا "إن المجتمعات الإنسانية لا تحيا فقط في الحاضر، وإنما يهمها معرفة من أين انحدرت لتستطيع أن تتبين وجهتها في المستقبل"، والمجتمع الجزائري يتكون أساسا مـــن عنصـــرين همـــا العنصر العربي والعنصر العربي.

1-**العرب**

---

1 **Ibid**، P75

2 *EBERHARDT*، *Isabelle*: **Le Major**، Document électronique

العرب أمة سامية تقسم تقليديا إلى قسمين كبيرين: العرب البائدة وهم عاد وثمود وطسم وجديس؛ والعرب الباقية وهم فرعان: عرب الجنوب (أو العرب العاربة) وعرب الشمال (أو العرب المستعربة). مهد العرب شبه الجزيرة العربية، وقد خرجوا منها إلى العراق والشام في موجات متلاحقة كان آخرها الفتح العربي الإسلامي. أنشأ العرب بعد الإسلام، دولة واسعة امتدت من الهند في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب. وأنشأوا حضارة من أعظم الحضارات في تاريخ العالم. والعرب اليوم يؤلفون أمة كبيرة يجمع ما بين شعوبها تاريخ واحد، ولغة واحدة، وآلام وآمال واحدة. وهم يقيمون في منطقة من أغنى مناطق العالم وأهمها من حيث الموقع الجغرافي والإستراتيجي، تمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، وتنتظم اثنتين وعشرين دولة تتعاون في نطاق جامعة الدول العربية. أما عددهم فيزيد على مئة مليون نسمة. ويعتبرون العرق الأكثر وجودا بالجزائر [1].

2- **البربر**

قبائل من العرق القوقازي منتشرة في المغرب والجزائر وتونس وليبيا. من أكبرها وأهمها قبيلة مصمودة أو (المصامدة)، وقبيلة صنهاجة أو (الصناهجة)، وقبيلة زناتة.

تنصر البربر في القرن الثامن للميلاد، ثم أسلموا في أوائل القرن الثامن للميلاد. وقد لعبوا دورا بارزا في التاريخ الإسلامي، وعرفت عنهم غيرة شديدة على الدين الجديد وتفان في الدفاع عنه. أنشأوا بعد إسلامهم دولا ذات بأس. من أعظمها دولة المرابطين ودولة الموحدين.

وعن أصل البربر يقول إسماعيل حامت :" كتب تاريخ البربر باليونانية، باللاتينية وبالعربية، غير أن أصل هؤلاء لم يكن محددا بدقة في كل تلك الكتابات. وقد تشكلت النواة الأصلية لهذا الجنس في القرون الماضية من الليبيين الذي كانوا يقطنون إفريقيا الشمالية تحت أسماء عدة. فهناك منهم من ينتمي إلى الكنعانيين الذي قدموا من الشرق ، مطاردين من طرف اليهود، ومنهم من

[1] موسوعة المورد الإلكترونية، قرص مضغوط 2006

ينتمي إلى الفرس والأرمينيون الذين جلبهم معه هرقل إلى أسبانيا، أما بالسواحل فـــإن العنصـــر الليبي قد اختلط مع الفينيقيين. وهكذا فالشعب الذي نشأ من امتزاج هذه الأجناس، وتبنى اللغة الليبية القديمة، والتي لا تزال إلى اليوم، تحت اسم الأمازيغية، نسبة إلى مازيغ بن كنعان.[1]

وعن أصل البربر يذكر المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون رأيا يصفه الـــدكتور عبـــد الله شريط بالرأي المتسم بسمة البحث العلمي النزيه يقول لوبون:"ويمكننـــا أن نـــأتي بافتراضـــات معقولة عن الأمكنة التي صدرت عنها تلك الهجرة فنقول: إن أولئك المهاجرين لم يـــأتوا مـــن الجنوب[2] الذي لا يرى فيه غير الزنوج، ولا من الشمال الذي لم يكن إلا بحرا خضما لم يفكـــر الأقدمون في عبوره، وإنما جاء أولئك المهاجرون من الشرق، أي من آسيا، مارين مـــن الأرض الضيقة التي تصلها بإفريقيا[3] أو جاءوا من الغرب أي من مضيق جبل طارق.

والحق أن المهاجرين سود الشعر أتوا من شواطئ الفرات ومن شمال بلاد العرب، أو مـــن مكان أبعد منها على ما يحتمل، وأن المهاجرين شقر الشعور، زرق العيون أتوا من شمال أوروبا مارين على الأرجح من أقصى طرف غربي إفريقيا بدليل ما بين آثارهم الحجرية في إفريقيا ومـــا بين الآثار الحجرية التي اكتشفت في شمال أوروبا من المطابقة"[4]

والمجتمع البربري نفسه ينقسم إلى عدة بطون كبيرة تتباين فيما بينها في العادات والتقاليـــد وفي اللغة والسلوك، وأهم هذه البطون: القبائل ،الطوارق والميزابيون.

أ- **القبائل**

[1] HAMET، Ismael: **Les Français Musulmans du Nord de l'Afrique**، Armand Colin، Paris1906، p 21

[2] يقصد بالجنوب الصحراء.

[3] أي من قناة السويس اليوم.

[4] نقلا عن شريط، عبدالله: **تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب**، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1983. ص 102و 103

هم تلك الأقوام التي تقطن جبال شمال الجزائر ، يعشون على الزراعة،و لا علاقة لهم بالفروسية والترحال؛ يقول كلاماجرون CLAMAGERAN :

"كلما تأملنا القبائليين كلما أدركنا الفرق بينهم وبين العرب؛ فهم ليسوا فرسانا ولا بدو رحالة ولا رعاة، بل على العكس، مشاة، مقيمون ومزارعون، أو على التخصيص بستانيون لأنهم يعيشون على أشجار التين والزيتون".[1]

أما عن أصل كلمة قبائل فإن بعض العلماء يرجعها إلى أصل فينيقي؛ فبعل تحيل إلى الاسم العام للآلهة السورية، و"كا" في اللغات العبرية تستعمل للربط بين كلمتين أثناء المقارنة والتشبيه، وهكذا تكون كابعل، K baal أي مثل عباد بعل.

غير أن هذا الأصل لم يذكر في مؤلفات القدامى، وعليه فإننا بالعودة للغة العربية، يمكن أن نجد الكلمات التالية:

قبيلة: جمع قبائل

قبل: بمعنى رضي

قبل: عكس بعد

فالأولى تحيلنا إلى طريقة نظامهم الاجتماعي، والثانية تحيل إلى أنهم أولئك الذين قبلوا الإسلام دينا و رضوا بالقرآن عقيدة بعد دخول العرب، والثالثة تحيل إلى أنهم الأقوام التي سكنت شمال إفريقيا قبل مجيء العرب .[2]

ب - الطوارق

---

[1] CLAMAGERAN. J.J **:L'Algérie Impressions de Voyage** 17 Mars- 4 Juin 1873. Paris. Laibrairie Germer Bailliere، 1874، p 210.

[2] DAUMAS et FABRE: **La Grande Kabylie Etude Historique**، L Hachette، France1847،. p 4 et 5

الطوارق بدو رحل، منتشرون في الأرجاء الوسطى والغربية من الصحراء الكبرى وعلى طول نهر النيجر الأوسط من تمبكتو في مالي إلى نيجيريا.

والطوارق يدينون بالإسلام وينطقون بلغة بربرية. أما عددهم فيتراوح ما بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف نسمة.

لا شك في أن الطوارق من القبائل البربرية التي استوطنت منذ القدم الجزائر، ويكفيهم فخرا، كسكان أصليين، أنهم أنشأوا أول حضارة عبر التاريخ القديم، على ضفاف بحيرا الصحراء الكبرى، ولا تزال الدراسات الأنثروبولوجية والأركيولوجية تكشف الروائع التي تشهد على أن آثار تلك الحضارة عريقة ضاربة في القدم، ومن الدلائل التي تؤكد على أن الصحراء كانت في عصور ما قبل التاريخ تختلف اختلافا جذريا على ما عليه الآن وجود مخلفات كبرى من رواسب الطمي المتراكمة في الصحراء وأحواض مغلقة تدل على أنها كانت مغطاة بشبكة مائية ومرعى خصيب.[1]

ويؤكد هذا الانتماء الدكتور فيليكس حين يقول أنه يعتقد عموما بان طوارق الفلاة من جنس بربري، مثلهم مثل الصحراويين، غير أنهم يتميزون بنمط حياة وتقاليد وعادات مختلفة تماما[2].

وهم مجتمع يتأرجح بين الثبات والحركة، حسب ظروف الحياة وظروف الطبيعة، يتنقلون من أجل التجارة حينا ومن أجل الغزو حينا آخر؛ ذلك أنهم قوم يعشقون القتال والحرب، وكثيرا ما وصفوا من طرف الرحالة بقراصنة الصحراء؛ يقول فيليكس: "الطوارق ليسوا قبيلة، إنهم أمة كبيرة تحتل كل شساعة الفلاة. تقطن عائلاتهم بمدن شمال شرق الصحراء وعلى طول

---

[1] نقلا عن :عبد السلام بوشارب: **الهقار أمجاد وأنجاد**، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 ص13

L'Hote، H: **Chronique des Oueds du Sahara**، T7،1951،p50

[2] Le Docteur FELIX، jacquot : **Expédition du Général Cavignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai1847**. Paris، Gide et Baudry librairies éditions 1849، p190

السودان، أو مغارات جبال الهقار، لكن بمجرد مجيء الربيع يتحول الطوارق إلى رحل ويتنقلون من على خط غدامس إلى دامرفو للتجارة، ومن تمبكتو إلى عين صالح للقرصنة... وفي غالب الأحيان يمتهنون القرصنة أينما كانوا...إنهم قراصنة محيط الرمال."[1]

وبخصوص تسميتهم بالطوارق، اختلف الرحالة والمؤرخون، في أصل هذه الكلمة، فهناك من يحيلها على اللغة العربية، وإلى كلمة الطريق[2]، وأن العرب أطلقوا عليهم هذه التسمية ، لأنهم كانوا قطاع طرق، يغيرون على القبائل الأخرى، ويقطعون سبل القوافل لنهبها. وهناك من يربطها بمنطقة تارقة، التي كانوا يقطنون بها ؛ في منتصف القرن السادس عشر كان الطوارق يعيشون بواحة تقع على مسيرة خمسة أيام جنوب شرق وادى الذراع، متاخمة للصحراء المغربية؛ هذه الواحة تدعى وادى تارقة [ê] ، ولكنهم شيئا فشيئا اتجهوا نحو الجنوب.[3]

الصفات الفيزيولوجية

الطوارق يتميزون بطول أجسامهم، بعضهم يبدو وكأنهم عمالقة، نحفاء، حادون، عصبيون، عضلاتهم كأنها نابض حديدي، بيض البشرة أطفالا، غير أن الشمس تغير ألوانهم مع الوقت. وعند العبيد هي امتزاج بين اللون الأسود والأبيض، وجوههم تشبه الصنف القوقازي، الوجه بيضاوي طويل، عند البعض ، ودائري عند البعض الآخر ، عريضي الجباه، سود العيون، صغار الأنف، أفواههم متوسطة ، وشفاههم دقيقة، لحاهم سوداء غير أنها نادرة، أسنانهم بيضاء وجميلة، قليل منهم ذوو عيون زرقاء.[4]

---

[1] **المرجع نفسه**، ص 106

2 LOYER، Ch: Les Touaregs، Benjamin Duprat، Paris، 1863، p8

[ê] تارقة هذه هي منطقة فزان بالجماهيرية الليبية.

[3] CARETTE.Ernest: **Recherche sur l'Origine et les Migrations des Principales Tribus de l'Afrique Septentrionale**، Imprimerie Impériale، paris، 1842 p 313.

[4] Duveyrier، Henri: **Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، pp 381 - 382

يقول ألبار فارمي في روايته الطارقي واصفا ملامح الرجل الطارقي:"واستطعت أن أميز الوسامة الأصيلة لوجهه البيضاوي الممتد ، في انسجام وانتظام ، كانت عيناه ذات زرقة قاتمة، في تباين واضح مع لون بشرته الزيتوني، وكان الكل يوحي بالنسب النبيل"[1]

صفاتهم

الطارقي صاحب كبرياء، غير ثرثار، طويل، حاد وقوي، غير انه إذا ما عومل معاملة حسنة يكون مضيافا حتى مع الأجانب، حساس ومزدر... وقد حافظ على الميزات العضوية للجنس البربري الذي ينتمي إليه[2]

تواجدهم

يقسم المختصون الطوارق إلى بدو الصحراء وتتركز غالبيتهم في منطقة «فزان» وبالتحديد مدينة «غدامس» بليبيا وجنوب الجزائر وتونس.. والقسم الآخر يتمثل في طوارق الساحل المتركزين في مدينة «يلمدن» بمنطقة طاوة بدولة النيجر ومدينة «تمبكتو »عند منعطف نهر النيجر بدولة مالي، وتمتد أفخاذهم إلى دولة «موريتانيا» ولكن بصورة قليلة.[3]

وعن تفردهم الجتمع الطارقي يقول ريني بوتيي René، POTTIER :"المجتمع الطارقي مجتمع متفرد في لباسه ولغته وتقاليده، حيث حياة الطوارق وطريقة لباسهم ونمط حياتهم الذي لا يشبهه نمط آخر في أي رقعة على وجه المعمورة ".[4]

النظام القبلي عن الطوارق:

---

[1] FERME، Albert : **Le Touareg**، Paris، Paris، 1900، p 6

[2] GAUDIO، Attilio : **Les Civilisations du Sahara**، Marabout Université، 1967. p65

[3] أمير ،عبد المنعم: *الطوارق*، **جريدة الجزيرة الإلكترونية**

[4] POTTIER، René: Sahara، B.Arthaud، France، 1950، p 137

تعيش قبائل الهقار في اتحادات قبلية تخضع في ولائها إلى زعيم القبائل و يسمى الأمينوكال "أمين العقال" الذي يعتبر بمثابة الزعيم الروحي و له الرأي الأول في جميع الشؤون لتي تعــرض عليه و ليس لأي من رؤساء القبائل اعتراض على تصرفه.

منطقة الهقار مثلا تعاقب عليها أمناء العقال سموا أيضا بالسلاطين نذكر منهم ما يلي:

- أول أمينوكال هو غالة و منهم جاء تسمية قبيلة كل غالة وكل تعني أهــل أو بنو.
- سيدي آق محمد الخير.
- يونس آق سيدي.
- آق مامة آق سيدي (1790-1830)
- الحاج أحمد آق محمد البكري (1830-1877)
- أهيتاغل آق محمد بسكة (1877-1900)
- محمد آق أرزيق (1900-1901)

ج- الميزابيون

يطلق اسم ميزاب عل كنفدرالية تتكون من سبع مدن موزعة على أربع واحات،تقع على بعد ستمائة كلم حنوب الجزائر بين الأغواط من الشمال ومتليلي من الجنوب.

الواحة الأولى التي تستقبلنا من الشمال هي بريان وبها قرية واحدة يقطنها حوالى أربعة إلى خمسة آلاف نسمة. وأربعون كلم إلى الأسفل نجد واحة الميزاب بحوالى ثلاثين ألف نسمة وبهـــا أربعة قصور.

وعلى بعد أثني عشر كلم من ميزاب تقع واحة العطاف بحوالى خمسة آلاف نسمة.

وإلى جنوب العطاف بستين كلم، تقع واحة القرارة وبها قصر واحد وسبعة آلاف نسمة[1]

وتعتبر غرداية المدينة الرئيسية لبني ميزاب كما تقول الرحالة إليـــزا فرانـــك Frank ، Elisa،، وهي مدارة بما يسمى الجماعة هو شبه لمجلس بلدي ويدعى الشيخ بابا الزعيم الديني[2]

وعن تميز الميزاب يقول غي دي موباسان:Guy de Maupassant "الميزاب هذا البلد المتميز، أين لقطرات الماء قيمة الذهب، وأين كل فرد يشارك في كل الخدمات العامة، وأين وصلت التراهة التجارية إلى مدى لم تصل إليه الشعوب المتحضرة... إنه الميزاب، هذه الجمهورية الصغيرة الغريبة، التي نشأت وسط الصحراء، في أكثر المناطق جفافا من هذه الأرض الملتهبة".[3]

والميزابيون يشكلون فرقة متفردة لديها أمين خاص لأمتهم. و هم الذين يملكون مطـــاحن الفرينة، و مخابز المدينة الحمامات العمومية مخازن اللحوم. و هم يتمتعون بامتيازات أكثـــر مـــن غيرهم في الصحراء كما أشار إلى ذلك فونتير دي بارادي، أما من الناحية الإدارية فحسب فيسكي FISQUET تدار كل قبيلة من قبائل الميزابيين أو بني ميزاب من طرف مجلس يتكون من إثـــنى عشـــر شخصا من أعيان القبيلة، وهو مجلس مختار من طرف الشعب[4].

وإضافة إلى هذين العنصرين يعيش في الجزائر عناصر أخرى تعتبر أقلية كالمجتمع اليهودي ، هؤلاء ينتشرون بعدة مدن جزائرية وقد وزع تواجدهم روزي وكارات بقولهما : "لا توجـــد

[1] Gros، Jules: **Les voyages et découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan**. Paris Maurice Dreyfous، Editeur 1881p 44 et 45

[2]. Frank، Elisa، **Willie Butler suivi des Souvenirs** du Sahara Algérien Tour، Alfred Mam et fils، Editeurs.p 48

[3] Guy de Maupassant: **Bel-Ami**، [Document électronique] [texte établi par Daniel Leuwers،...] .www.gallica.bnf.fr

[4] FISQUET : *Histoire de L'Algérie depuis les temps anciens jusqu'à nos jours*، in : **Revue de l'Orient**، Tome 1، Paris 1843، p 476

مدينة من المدن الداخلية لا يتواجد اليهود من بين سكانها، إنهم بكل المدن الصحراوية ؛ بتقرت، ببوسعادة ، بوادى ميزاب.[1]

والكولوغليون الذين لا يمكن أن يكونوا طبقة إثنية متفردة في المجتمع الجزائري وحسب روزي وكارات ROZET ET CARETTE فإنهم يتواجدون بمدينة تلمسان غير انه يقطنون بعدة أحياء بمدينة بسكرة ويصل عددهم إلى حوالى الفين كولوغليا[2].إضافة إلى العبيد حيث تشير أحصائيات سنة 1844 تبين ان عدد الزنوج بالجزائر بلغ بتاريخ 31 ديسمبر من سنة 1843 بالحالة المدنية 1595 زنجي حر و1277 عبدا.[3]

غير أنه يجب الإشارة هنا إلى أن الرق عند المسلمين يختلف عن الرق عند المسيحيين، في كونه عند المسلمين يتميز بأكثر رقة، والعبد يعتبر فردا من العائلة. ذلك أن الإسلام دين يقدس الحرية، ويعتبرها أصل الأشياء، على عكس الرق الذي يعتبره أمرا عارضا، ورغم أنه لم يلغ الرق إلا أنه حث على تحرير العبيد بكل الوسائل، وعلى معاملتهم المعاملة التي تليق بمقام الإنسان، خليفة الله في الأرض؛ وإن يحافظوا على عزته وكرامته.

ومن الشهادات الموضوعية حول معاملة المسلمين للرق ما وصفه قان دنبرغ: " لقد وضع الإسلام للرقيق قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة، ثم إن الإسلام لم يلغ الرقيق الذي كان شائعا في العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حاله" [4]

---

[1] ROZET ET CARETTE: **L'Algérie**، Firmin Didot frères Editeurs Paris، 1850،p 215

[2] **Ibid**،p 213

[3] **Ibid**،p 216

[4] نقلا عن : الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد: **تاريخ الجزائر الحديث**، **ج3**، دار الثقافة ، بيروت، 1980 **ص 361**

وعملا بتعاليم الدين الإسلامي كانت وضعية الرقيق بالجزائر ، أحسن بكثير من مثيلاتها ببلدان غربية أخرى، وعلى رأسها البلاد الإنجليزية والأمريكية؛ يقول المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي ، في كتابه الموسوم ب "تاريخ الجزائر الحديث": " وجملة القول إن وضعية الرقيق بالجزائر كوضعيته في سائر الأقطار الإسلامية ، معتنى بشأنه ، محاطا بسياج من عدل ورحمة من غير احتقار أو إهانة، متماشيا معه حسب وصاية الإسلام به، سواء داخل المترل أو خارجه".[1]

وقد نقل هذه الوضعية الكثير من الرحالة والكتاب الفرنسيين

لقد كان المجتمع الصحراوي الجزائري خلال القرن التاسع عشر ينقسم إلى أربع طبقات اجتماعية هي :

- طبقة الأشراف تحتل المكانة الأولى
- طبقة الأحرار وهم غالبية السكان
- طبقة الحرثانيين ويطلق عليهم اسم الحرطانيين وهم أنصاف أحرار ،وهم أبناء المولدين من الجواري.
- طبقة العبيد ويعملون في مجال الزراعة ورعي الحيوانات والخدمة داخل القصور والمنازل[2]

وهكذا فالمجتمع الجزائري كما يقول المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله كان شبيها بمجتمع جنوب أوروبا، باستثناء فرنسا ربما فقد كان هناك الارستقراطيون في القمة والفلاحون في الحضيض وبين القمة والحضيض هناك قلة في الوسط، ولكن تأثيرها ضعيف أو لا يكاد يذكر فتأثير الدين كان أقوى بكثير من أي تأثير آخر .[3]

---

[1] المرجع نفسه: ص 364

[2] فرج ، محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ص 35

[3] سعد الله، بلقاسم، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، القسم الأول،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر. ص247.

3- البعد الديني

لا شك في أن الدين يشكل أهم ركائز النظام الاجتماعي في المجتمع الجزائري ، وقد أكد هذه الحقيقة الرحالة لويس بولار Louis BAULARD بقوله بأن الـــدين في المجتمـــع الإسلامي من أقوى النظم الاجتماعية- الثقافية؛ التي تنبني عليها شخصية الفرد والجماعة؛ فتؤثر في السلوك و في نمط الحياة الروحية والاجتماعية.

ويضيف الرحالة بأن الإسلام هو دين الغالبية في الجزائر، فالمساجد تتواجد بكثرة، ورغـــم أنه قد تم تدمير النصف منها إلا أنه بقي لهم الكثير منها[1] .

ولولا الإسلام لما توحد المجتمع الجزائري في ثقافته وسلوكياته ولغته، خاصة وأن المجتمـــع الجزائري يتكون من عناصر إثنية مختلفة، لكل عنصر من هذه الإثنيات عاداته وتقاليده ولهجته، ولقد أشار الرحالة لويس فويوVEUILLOT ،louis ذو النزعة الدينيـــة في كتاباتـــه في رحلته المعنونة الفرنسيون في الجزائر، ذكريات رحلة حين قال: "فالإســـلام مـــنح للجزائـــريين العقيدة التي وحدت سلوكهم واتجاهاتهم، واللغة التي وحدت تفكيرهم وشـــعورهم، والإيمـــان الذي وحد حركتهم وانفعالهم. كما غرس فيهم مبادئ الحرية والتضحية والإيثار. وبالتالي فقد أعطى الإسلام للجزائريين حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير وتعبير، وعلى الـــدين كطريقة حياة وسلوك".[2]

[1] BAULARD، Louis: **Un voyage en Afrique ou Description d'Alger**. Biblitheque Royale. p5

[2] سعد الله، بلقاسم، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، القسم الأول،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص ص ص 60 و61..

فالمسلمون بالجزائر حين يتكلمون عن الفرنسيين لا يصفونهم إلا بكلمة الكفار صحيح أنهم يذكرون عيسى أحيانا ، ويذكرونه باحترام ، ولكني لم أجد أحدا من الجزائريين في ورقة أو رسالة رفع عيسى المسيح فوق محمد. فمحمد هو رسولهم، ولا يعرفون له نظيرا.[1]

وتعلق الجزائريين بالدين الإسلامي تعلق راسخ ، لا سبيل إلى تحويله كما أكد ذلك الرحالة نفسه بقوله:" والمسلمون بالجزائر لهم إيمان ساذج وعميق،لا تدهش عقولهم أي غرابة".

ولكن برغم إيمان الجزائريين العميق بدينهم فقد كانوا متفتحين على الديانات الأخرى ، محترمين لكل من يحمل عقيدة ويؤمن بها، كاليهودية والمسيحية، وهذا التسامح نابع من صميم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وعن هذا الاحترام وهذا التسامح يقول لوجي دي طاسي Laugie de Tassy في تقديمه لكتاب هولندي طبع في أمستردام سنة 1725 م ثم ترجم إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة 1727م : " ...في الميدان الديني نجد أحسن شيء وأروعه التسامح، وهذا التسامح موجود في الجزائر، ويستحق سكانها الشكر والاعتراف بالجميل... وإن حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز في هذا الميدان، فإنها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها، وبقدر ما يشتهر عندهم الإنسان بالتدين إلا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه".[2]

وصف المظاهر الدينية

وصف معظم الرحالة الفرنسيين كل مظاهر الطقوس الدينية كالوضوء والصلاة والآذان وصوم شهر رمضان المعظم، والاحتفال بالمناسبات الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى، محاولين شرح كيفياتها ومعانيها، ولأن هذه الطقوس معروفة لدينا لم أرغب في تبيانها و التركيز عليها هنا. غير أني أورد هذا الوصف لصلاة العيد فوق رمال الصحراء لجيش الأمير عبد القادر

[1] VEUILLOT، louis: **Les Français en Algérie Souvenirs d'un Voyage fait en 1841**، Tours p209

[2] نقلا عن : الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد: **تاريخ الجزائر الحديث، ج3**، دار الثقافة ، بيروت، 1980 **ص 518**
مجلة الأصالة عدد 14- 15 الجزائر، 1973، ص 131

الجزائري بنواحي تاجموت، إحدى مناطق الجنوب. هذا المشهد الرائع الذي يبرز مدى تلاحم المجتمع الجزائري، ومدى تمسكه بتعاليم دينه.مشهد لا يرى في العمر مرتين، حسب ليون روش Leon،ROCHE الذي أورده في كتابه عشر سنوات عبر الإسلام، يقول الكاتب: " خلال عودتنا من تاجموت في الثالث والعشرين من ديسمبر، في رحلة استغرقت ثمانية عشر يوما، إضافة إلى يومين من الراحة بتقرت. وصلنا عشية عيد الفطر، في اليوم التالي أدى الأمير صلاة الفجر، وفدت جماعات من ثلاثين قبيلة للقاء الأمير ولحضور صلاة العيد، إضافة إلى جزء من سكان القصور.

في يوم العيد توجه عبد القادر، متبوعا بقائد الجيش ورؤساء القبائل إلى سهل كبير، على سفح جبل عمور. إلى الجنوب كانت الصحراء تمتد؛ وأمامنا، في الشرق كثبان الرمال التي تتقدم تاجموت؛ ترجل عبد القادر والموكب المرافق له وجلسوا القرفصاء باتجاه الشرق.

واصطف قادة الجيش ورؤساء القبائل وكانوا حوالي خمسمائة رجل، خلف الأمير على صف بعشرة أمتار. وراءهم وفي العشرة أمتار الأخرى على صف مواز تقدم سكان القصور والقبائل تباعا ليجلسوا، وكانوا على الأقل أثنى عشر ألف رجل. مشكلين اثني عشر صفا على جبهة ألف رجل. واستطعت حساب العدد بسهولة لأن الصفوف كانت مضاعفة على غرار الصف الأول الذي كنت أعرف عدده، ومع الخيوط الأولى لأشعة الشمس الذهبية التي ظهرت على قمم نخيل تاجموت، نهض عبد القادر رفع يديه إلى السماء قائلا : الله أكبر! ونهض الكل، الإثنى عشر ألف رجل مرددين وراء الإمام: الله أكبر!

هذا التهليل العظيم وسط صمت الصحراء، صهيل خمسمائة حصان... ركوع وسجود إثني عشر ألف مسلم في زيهم الأبيض؛ وهم يخرون ساجدين، واضعين جباههم على الأرض، رافعين أياديهم للسماء، مجاهرين بعقيدة الإسلام؛ وعبد القادر، الذي نسمعه بوضوح وهو يقرأ

آيات القرآن، كان كل هذا المشهد مضاء بأشعة الشمس المنحنية وهي تصعد في الأفق... مشهد يقدم لوحة يعجز التعبير عن وصفها... مشهد لا يرى في العمر مرتين.[1]

الطرق الصوفية والزوايا

لعبت الطرق الصوفية دورا بارزا في تنظيم حياة المجتمع الصحراوي، خاصة منها الحياة الدينية والثقافية والتعليمية، حين كانت لكل طريقة زاوية أو مجموعة من الزوايا، تعتبر بمثابة مراكز ثقافية وتربوية ، إذ لا تخلو زاوية من مسجد ومدرسة قرآنية. وتاريخ الزوايا في البلدان العربية والجزائر مر بعدة مراحل، سواء من حيث الهياكل أو الوظائف التي كانت تمارسها هذه المؤسسات، يقول العيد مسعود عن تطور الزوايا بالجزائر:

"لقد نشأت الزاوية في المشرق، وقصد بها أساسا المسجد الصغير، وذلك للتفريق بينه وبين المسجد الكبير أو الجامع، ويبدو أن هذا المفهوم استقر بسرعة في المشرق و لم يتغير بعد ذلك، أما في المغرب، فمنذ أن ظهرت الزاوية في القرن الثالث عشر، أخذ مفهومها يتطور بشكل محسوس، ثم حلت بالتدريج محل الرباط أو الرابطة، ذلك أن حلول الزاوية محل الرابطة أو الرباط، لم يحدث دفعة واحدة، وإنما تمت على مراحل. كما استمرت الزاوية في التطور باستحداث وظائف جديدة لها ، إلا أن استقرت وظائفها في صورتها النهائية في العهد العثماني، فقد كانت لفظة " زاوية" في بداية ظهورها بالمغرب مرادفة لكلمة رابطة، وهي المكان الذي يترل فيه الولي ويعيش فيه بين تلاميذه وخدمه الدينيين، ثم تطورت فأصبحت بالإضافة إلى وظيفتها كمكان للعبادة، محلا لإيواء المسافرين وإطعامهم، ثم تطورت مرة ثانية، فورثت وظائف الرباط، ومن بينها الوظيفة الحربية إلى حد ما، وخاصة في وقت الخطر، وكذلك الوظيفة التعليمية وغيرها من الوظائف".[2]

---

[1] ROCHE، Leon**: Dix Ans à travers L'Islam**، 1834- 1844، Paris، p 155 et 156

[2] العيد، مسعود، *المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر*، **مجلة سيرتا** ، العدد 1988/10، ص5

أما بخصوص تعاملها مع الاحتلال الفرنسي فقد اختلفت مواقف هذه الزوايا من الاحتلال، بين معارض ومؤيد، ويبرز هذه المواقف الرحالة بارودون بقوله:" كان لنا اتصالات معهم في الجزائر ، ولا شك في أنهم شاركوا في التمرد ضدنا، ولكننا لا نعرف الدور الحقيقي الذي لعبته ... بعض الطرق تبدو مسالمة، القادرية والتيجانية، ودعموا قضيتنا، والعكس بالنسبة للرحمانية والدرقاوية والسنوسية، وخاصة هذه الأخيرة التي أبدت عداء واضحا لنا ، وكانت تمثل الخصم العنيد الذي عرقل توسعنا بالصحراء الوسطى.[1]

وعلى الرغم من أن جميع هذه الروابط لا تخرج عن تعاليم الدين الإسلامي، غير أنه لكل طريقة قانونها الخاص، و تختلف عن بعضها البعض فيما يسمونه بالذكر ويذكر كاريت سبع طرق[2] وهي:

1- طريقة سيدي عبد القادر الجيلاني
2- مولاي الطيب
3- العيساوة لصاحبها سيدي محمد بن عيسى
4- طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمان بوقبرين
5- طريقة سيدي يوسف الحنصالي
6- سيدي علي التيجاني
7- طريقة الدرقاوة

---

[1] BARAUDON، Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris، librairie Plon 1893، p 158

[2] ROZET ET CARETTE: **L'Algérie**، Firmin Didot frères Editeurs Paris، 1850،p 246.

يعرف الكاتب لويس رينLouis، RINN في كتابه : المرابطون والإخوان " الطريقة فيقول بأن الطريقة بمعنى الدرب أو الطريق ، وهي مجموعة القواعد والعبادات والصلوات الخاصة ، يعطى لها أيضا اسم الورد[1]، أما من حيث النظام الإداري ، فلكـــل زاويـــة شـــيخ طريقـــة ،ومريدون ؛ وعن هذا النظام يكون رئيس الطريقة الأكبر، صاحب السلطة المطلقة هو الشيخ أو الولي. الزوايا أو المراكز الدينية يحكمها المقدم الذي يمكن أن يعزل من طرف شيخ الزاويـــة، أما المنضوون تحت لواء الطريقة فيطلق عليهم اسم الأحباب...

ومن أهم الطرق الصوفية في الجزائر خلال القرن التاسع عشـــر، الطريقـــة السنوســـية و الطريقة التيجانية.

1 - الســـنوســـية

السنوسية دعوة إسلامية إصلاحية تجديدية روحية على أساس الكتاب والسنة. ظهرت في ليبيا وعمت مراكزها الدينية شمال أفريقيا والسودان والصومال وبعض البلاد الإسلامية. تأسست الدعوة السنوسية في ليبيا في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر المـــيلادي. ومـــن أبـــرز شخصياتها الشيخ محمد بن علي السنوسي[2] (1787-1859م) وهو المؤسس للدعوة السنوسية، وتنسب السنوسية لجده الرابع.

---

[1] RINN، Louis**: Marabouts et Khouans. Etude sur l'Islam en Algérie**، Alger Adolphe Jourdain، Libraire Editeur ،1884، p 64

[2] ولد السنوسي في مستغانم في الجزائر. وعندما بلغ سن الرشد تابع دراسته في جامعة مسجد القرويين بالمغرب، ثم أخذ يجول في البلاد العربية، فزار تونس وليبيا ومصر والحجاز واليمن ثم رجع إلى مكة المكرمة وأسس فيها أول زاوية لما عُرف فيما بعد بالحركة السنوسية. وله نحو أربعين

خلف الشيخ المهدي محمد بن علي السنوسي (1844-1902م) والده في قيادة الدعوة السنوسية وعمره اثنا عشر عاماً. ثم جاء الشيخ أحمد الشريف السنوسي، ابن عم المهـــدي. ولد سنة 1873م. تلقى تعليمه على يد عمه، وعاصر هجمة الاستعمار الأوروبي على شمال أفريقيا وهجوم إيطاليا على ليبيا فاستنجد في عام 1917م بالحكومة العثمانية، فلم تنجـــده، فقد ظن المهدي أن مصطفى كمال أتاتورك، حامي الدين، كما كان يطلق عليـــه آنـــذاك، سيأتي لمساعدته. ولما تبين له مقاصد أتاتورك الحقيقية المعادية للإسلام غادر الشـــيخ أحمـــد تركيا التي كان قد جاءها طلباً للعون، إلى دمشق عام 1923م. وعندما شعرت فرنسا بخطره على حكومة الانتداب لاحقته فهرب بسيارة عبر الصحراء إلى الجزيرة العربية. ثم جاء الشيخ عمر المختار (1856-1931) وهو البطل المجاهد الذي لم تَحُل السنوات السبعون من عمـــره بينه وبين الجهاد ضد الإيطاليين المستعمرين لليبيا، حيث بقي عشر سنوات يقاتـــل قـــوى استعمار أكبر منه بعشرات المرات ومجهزة بأضخم الأسلحة في ذلك العصر، إلى أن تمكن منه الإيطاليون ونفّذوا فيه حكم الإعدام. كان ذلك في يوم الأربعاء السادس عشر من أيلـــول/ سبتمبر 1931م.

تأثر السنوسي بالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وأبي حامد الغزالي ومحمد بـــن عبـــد الوهاب وبحركته السلفية. كما تأثر بالتصوف السُني الخالي من البدع والخرافات مثل التوسل بـــالأموات والصـــالحين، ووضـــع منـــهاجاً كـــاملاً للارتقـــاء بالمســـلم. تتشدد السنوسية في أمور العبادة، وتتحلى بالزهد في المأكـــل والملـــبس. وقـــد أوجـــب السنوسيون على أنفسهم الامتناع عن شرب الشاي والقهوة والتدخين. وتدعو السنوسية إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد. وعلى الرغم من أن السنوسيّ مالكيّ المذهب، إلا أنه يخالفـــه إن

كتاباً ورسالة أهمها: "إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن".

جاء الحق مع غيره. كما دعت إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والابتعاد عن أسلوب العنف واستعمال القوة. وشددت على الاهتمام بالعمل اليدوي. وكان السنوسي يقول دائماً: "إن الأشياء الثمينة توجد في غرس شجرة وفي أوراقها". لذلك ازدهرت الزراعة والتجارة في الواحات الليبية حيث مراكز الدعوة السنوسية. وقالت بالجهاد الدائم في سبيل الله ضد المستعمرين "الصليبيين وغيرهم". هذا هو الشعار الدائم للسنوسية. وقد دفع ثمن ذلك آلاف في جهادهم ضد الاستعمار الإيطالي.

تعود المؤثرات والجذور الفكرية والسلوكية للدعوة السنوسية إلى تعاليم أحمد بن حنبل وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وخاصة أفكارهم السلفية في مجال العقيدة. وقد اكتسب السنوسي هذا التأثر أثناء زيارته للحجاز لأداء فريضة الحج عام 1837م التي كانت نقطة البداية للحركة السنوسية. وأخذ السنوسي من الصوفية أساليب البيعة ودرجات التزكية الروحية مثل درجة المنتسب ثم درجة الإخوان ثم درجة الخواص.

تعد واحة جغبوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس مركز الدعوة السنوسية. ففي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة، ثم يرسلون إلى كافة أجزاء أفريقيا الشمالية.

بلغت زوايا السنوسية الفرعية 121 زاوية تتلقى من زاويتهم الرئيسة التعليمات والأوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع أمر الدعوة. وانتشرت هذه الدعوة في أفريقيا الشمالية كلها، وامتدت زواياها من مصر إلى مراكش ووصلت جنوباً إلى الصحراء في السودان والصومال وغرباً إلى الجزائر. وانتشرت الدعوة السنوسية كذلك في خارج أفريقيا حيث وصلت إلى أرخبيل الملايو في الشرق الأقصى. كما استطاعت السنوسية أن تنشر الإسلام في القبائل الوثنية

الأفريقية وتؤسس المدارس التعليمية والزوايا. ولم يقتصر التعليم على الذكور بل امتد إلى النساء والأطفال من الجنسين. واستعانت الدعوة بالنساء لنشر الإسلام بين نساء القبائل الوثنية.[1]

2- **التيجانية:**

هي طريقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية ويزيدون عليها الاعتقاد بإمكانية مقابلة النبي مقابلة مادية واللقاء به لقاءً حسيّاً في هذه الدنيا، وأن النبي قد خصهم بصلاة "الفاتح لما أغلق" التي تحتل لديهم مكانة عظيمة. مؤسس التيجانية هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني.[2]

من مشاهير التيجانية: علي حرازم أبو الحسن بن العربي برادة المغربي الفاسي؛ ومحمد بن المشري الحسني السابحي السباعي صاحب كتاب "الجامع لما افترق من العلوم" وكتاب "نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفاء"؛ وأحمد سكيرج العياشي (1295-1363هـ). ولد بفاس ودرس في مسجد القرويين وتولى القضاء وله كتاب "الكوكب الوهاج" وكتاب "كشف الحجاب عمن تلاقى مع سيدي أحمد التيجاني من الأصحاب"؛ وعمر بن سعيد بن عثمان الفوتي السنغالي المولود سنة 1797م في قرية الفار من بلاد ديمار بالسنغال حالياً. تلقى علومه في الأزهر بمصر وخلفه من بعده اثنان من أتباعه؛ ومحمد الحافظ بن عبد اللطيف بن سالم الشريف الحسني التيجاني المصري (1315-1398هـ) وهو رائد التيجانية في مصر، وقد خلف مكتبة موجودة

---

[1] موقع الحكواتي www.alhakawati.net

[2] عاش ما بين 1737-1815م وكان مولده في قرية عين ماضي من قرى الصحراء بالجزائر حالياً. درس العلوم الشرعية وارتحل متنقلاً بين فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ووهران. أنشأ طريقته في قرية أبي سمغون، وصارت فاس المغربية المركز الأول لهذه الطريقة، ومنها خرجت الدعوة لتنتشر في أفريقيا. أبرز آثاره التي خلّفها كتابه "جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني" الذي قام بجمعه تلميذه علي حرازم.

الآن في الزاوية التيجانية بالقاهرة وله كتاب "الحق في الحق والخلق"، وله "الحد الأوسط بين من أفرط ومن فرّط" و"شروط الطريقة التيجانية". كما أسس مجلة طريق الحق سنة 1950م.[1]

من أفكارهم ومعتقداهم: التمسك بمعتقدات المتصوفة وفكرهم وفلسفتهم ومن ذلك إيماهم بوحدة الوجود، وإيماهم بالفناء الذي يطلقون عليه اسم "وحدة الشهود". وهم يقسمون الغيب إلى قسمين: غيب مطلق استأثر الله بعلمه، وغيب مقيد وهو ما غاب عن بعض المخلوقين دون بعض. ويدعي زعيمهم أحمد التيجاني بأنه قد التقى بالنبي لقاءً حسياً مادياً وأنه قد كلمه مشافهة، وأنه قد تعلم من النبي صلاة "الفاتح لما أغلق". وادعى أن الرسول قد أخبره بأن المرة الواحدة من هذه الصلاة تعدل قراءة القرآن ست مرات.

يقول أصحاب هذه الطريقة بأن لهم خصوصيات ترفعهم من مقام الناس الآخرين يوم القيامة ومن ذلك:

- أن تخفف عنهم سكرات الموت.
- أن يظلهم الله في ظل عرشه.
- أن لهم برزخاً يستظلون به وحدهم.
- أنهم يكونون مع الآمنين عند باب الجنة حتى يدخلوها في الزمرة الأولى مع المصطفى وأصحابه المقربين.

وهم كباقي الطرق الصوفية يجيزون التوسل بذات النبي وعباد الله الصالحين. ويدّعون بأن أحمد التيجاني هو خاتم الأولياء مثلما أن النبي خاتم الأنبياء. ويقول التيجاني "من رآني دخل الجنة". ويؤكد على أتباعه بأن النبي ذاته قد ضمن له ولهم الجنة يدخلونها بغير حساب ولا عقاب.

[1] المرجع السابق.

أما الجذور الفكرية والعقائدية لهذه الطريقة فتعود إلى الفكر الصوفي نفسه بعد أن أضاف أحمد التيجاني أفكاره. كما نهل هذا الأخير من كتب عبد القادر الجيلاني وابن عربي والحلاج وغيرهم من أعلام المتصوفية.

بدأت هذه الحركة من فاس بالمغرب وما زالت تنتشر حتى صار لها أتباع كثيرون في بلاد المغرب والسنغال ونيجيريا وشمالي أفريقيا ومصر والسودان وغيرها من أفريقيا. ويقدر صاحب كتاب التيجانية على بن محمد الدخيل الله أن عدد التيجانيين في نيجيريا وحدها بما يزيد على عشرة ملايين.

وحسب الرحالة ديفيريي Henri، Duveyrier فإن أغلب مريدي هذه الطريقة من الطوارق حيث يقول :"واغلب مريدي الزاوية التيجانية من الطوارق ، حيث أسس أحد زعمائهم الشيخ عثمان الذي اشتهر بزيارته لباريس زاوية على سفح هضبة التاسيلي واسماها تماسينين أي تماسين الصغيرة، ولها فروع في وادى سوف، حيث يملك زاوية بقمار تعتبر إقامة صيفية لرؤساء قبيلة تامهالت وعائلاتهم، وله امتدادات إلى غاية تونس، غير أن مريديه أقلة بليبيا.[1]

4- البعد اللغوي

تمثل اللغة معلما مهما في دراسة المجتمعات وعاداتها وعقائدها، وهي كما يقول ديفيد فيلبسون[2] وسيلة هامة لتصنيف شعوب أفريقيا. إنها تؤلف معياراً له

---

[1] Duveyrier، Henri: **Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 359

[2] ديفيد فيلبسون، أمين متحف الآثار والأنثروبولجيا بجامعة كمبردج، ومحاضر في علم ما قبل التاريخ. سافر كثيراً في القارة الأفريقية وكتب كثيراً في موضوع علم الآثار الأفريقية. قبل نشره لهذا الكتاب عن علم الآثار الأفريقية في طبعته الأولى عام 1985 قام فيلبسون بنشر كتاب عن ما قبل التاريخ في تنزانيا الشرقية (1976)، وآخر عن المرحلة المتأخرة لما قبل تاريخ شرق أفريقيا وجنوبها.ـــ

مغزى أساسي على شعور الفرد بالهوية والانتماء إلى مجموعة. إلى جانب ذلك فان لها صلاحية تاريخية طالما أننا نحصل على معرفتنا بلغتنا الأولى من الأعضاء الآخرين لتلك المجموعة التي تنتمي لها بالميلاد و/أو التنشئة.

يوجد اتفاق إلى حد بعيد بين علماء اللسانيات بشأن عائلات اللغات الأساسية في أفريقيا. تنتمي اللغات المتحدث بها اليوم في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية للقارة إلى العائلة الرئيسة المعروفة عموماً باسم "الآفرو-آسيوية" أو "الاريترية". وتضم هذه العائلة لغات البربر في شمال أفريقيا، واللهجات الكوشية المتمركزة في إثيوبيا والصومال، وكذلك اللغات السامية واسعة الانتشار التي تنضم إلى عضويتها الحالية اللغات العربية والأمهرية والعبرية".[1]

وفي الجزائر يتكلم المجتمع في عمومه اللغة العربية ، غير أن هناك لغات أخرى ولهجات كثيرة منتشرة هنا وهناك بأرجاء القطر الجزائري الفسيح. أما بالصحراء فإلى جانب اللغة العربية يتكلم الصحراويون الميزابية والأمازيغية والطارقية.

أ- اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي لغة الجزائريين، وقد استطاعت هذه اللغة الحفاظ على مكانتها منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي لارتباطها بالدين الإسلامي والقرآن الكريم من جهة وبالمعاملات التجارية والاقتصادية من جهة أخرى، ويؤكد هذه الحقيقة الأنتروبولجي الفرنسي ليون فيدارب Léon ،FAIDHERBE بقوله:"إن اللغة العربية هي اللغة السائدة، والأكثر انتشارا في

[1] فيلبسون، ديفيد" **علم الآثار الافريقي "دراسة في ماقبل تاريخ القارة الأفريقية حتى الألفية الميلادية الثانية"** ترجمة د. أسامة عبدالرحمن النور الجا للنشر، مالطا **2001**

الجزائر. وليست مقتصرة على القبائل العربية، إذ الكثير من القبائل الأخرى البربرية تبنتها كلغة تواصل، وحتى لغتها الأصلية تأثرت بها وأصبح القاموس الخاص بها يحتوى على الكـــثير مـــن الألفاظ العربية. إذ أن العربي في غنى عن اللغة البربرية أو غيرها في حين البربري، مضطر لـــتعلم اللغة العربية، لحاجته لها أثناء السفر، أو التجارة أو ترتيل القرآن.[1]

وهي لغة تستحوذ على العقول لسلاستها ونبراتها الرخيمة التي تنسجم مع طبيعة الجزائـــر ومناخها ، كما تبرز ذلك الرحالة إيزابيل إبرهاردت *EBERHARDT* ، *Isabelle*: وهي تتحدث عن بطل قصتها النقيب الفرنسي جاك الذي عشق اللغة العربية وتعلمها من أجل مخاطبة عشيثته العربية: "درس بعناية اللغة الأجش والرخيمة، والتي أحب نبرتهـــا منـــذ الوهلـــة الأولى، وأدرك انسجامها مع آفاق النار والأرض المتحجرة...[2]

ب - اللغة الأمازيغية

الأمازيغية هي لغة البربر ، سكان شمال إفريقيا ، وتنتشـــر خصوصـــا بـــالجزائر وليبيـــا والمغرب،وقد انقسمت إلى عدة لهجات:

الزناتية: عند قبائل الغرب، إلى غاية الحدود المغربية

الشلحية: لغة قبائل المغرب

الشاوية: لدى القبائل التي اختلطت بالعرب ، وتبنت نمط حياتهم،

الزواوية: وهي توجد من دلس والحمزة إلى غاية بونة.

[1] FAIDHERBE، Léon : **Instruction sur l'Anthropologie de l'Algérie**، Paris، 1874 p 16

[2] *EBERHARDT*، *Isabelle*: **Le Major**، Document électronique

وهناك لهجة عند كل هؤلاء تقريبا، وخاصة عند قبائل زواوة، تسمى الهزية، أي الخفية أو المستترة، وهي لهجة اعتمدها اللصوص، وقطاع الطرق، ليتمكنوا من الحديث والتفاهم فيما بينهم، دون خوف من فهم الآخرين لهم ولمشاريعهم.[1]

والأمازيغية على عكس الطارقية لم تكتب بحروف خاصة، وهذا لم يساعد على ظهور حركة فكرية لدى القبائل، ولغتهم لم تكن إلا لغة من الدرجة الثانية ، وهكذا فالأهالي الذين يتكلمون اللغة البربرية، خاصة وأنهم لم يبرحوا جبالهم أبدا، كانوا أكثر الأقوام تخلفا في كل شمال إفريقيا. واثبت التجربة أن التعصب الديني وهمجية السلوك كانت لديهم أكثر تطورا.

وقد شكل نشر اللغة العربية من طرف الحكومة الفرنسية، أول درجة في تطور الحركة الفكرية عندهم.[2]

ج- اللغة الميزابية

وهي لسان بني ميزاب، سكان القرى السبع بغرداية وضواحيها ، وهي لغة تفرعت عن اللغة البربرية مثلها مثل الشاوية و للإطلاع على هذه اللغة أورد هنا بعض المعاني لكلمات ميزابية باللغة العربية مترجمة عن الدراسة التي قام بها هودسون ونقلها ريني باسي BASSET، René في كتابة: "دراسة حول زناتية الميزاب" Etude sur la Zenatia du Mzab[3]

أجديد: عصفور

أبرشان: أسود

[1] DAUMAS et FABRE: **La Grande Kabylie Etude Historique**، L Hachette، France1847،. pp 7 et 8

[2] HAMET، Ismael: **Les Français Musulmans du Nord de l'Afrique**، Armand Colin، Paris،1906، p 182 et 183

[3] BASSET، René: **Etude sur la Zenatia du Mzab de Ouargla et du Ouled Righ**، Paris، Ernest Leroux Editeur، 1893

أغروم: خبز، كسرة

أبريد: طريق

أجنو: سماء

أمان: ماء

أفوس: يد

أيور: قمر

أملال: أبيض

أزقاغ: أحمر

أزقزو: أزرق

أوراغ: أصفر

أشبان: أخضر

أبركوش: رمادي

أمدوجل: صديق

أجدي: رمل

قابيت: غابة

تريست: النبع

تادرت: دار

تاجزرت: جزيرة

تامدورت: حياة

هذه بعض الألفاظ المتنوعة في اللغة الميزابية أما الحساب فالميزابيون يعدون كما يلي

ايقن: واحد

سين: إثنان

شاروت: ثلاثة

أكوز: أربعة

سمس: خمسة

سوز: ستة

صا: سبعة

طا: ثمانية

لاز: تسعة

مرو: عشرة

مروداقن: إحدى عشر

مرو سبن: إثنى عشر

مرو شاروت: ثلاثة عشر

سين تامرووين: عشرون

مرومرو: مائة

سين تاونيسن: مائتان

مرومرو توونيسن: ألف

د - اللغة الطارقية

الطارقية هي لسان الطوارق ، هذا المجتمع المتفرد في عاداتة وتقاليده وكذا في لغتــه الــتي تكتب بحروف خاصة تسمى التافيناغ أو التاماشاك التي استطاع الطوارق الحفاظ عليها عــبر الأجيال والعصور، بفضل المرأة الطارقية التي تعلم أولادها الكتابة والقراءة ، وقد أشار الرحالــة إلى هذه النقطة حين أراد أن يتعلم اللهجة الطارقية فأخبر بأن تعليم اللغة من مهــام المــرأة في المجتمع الطارقي[1].

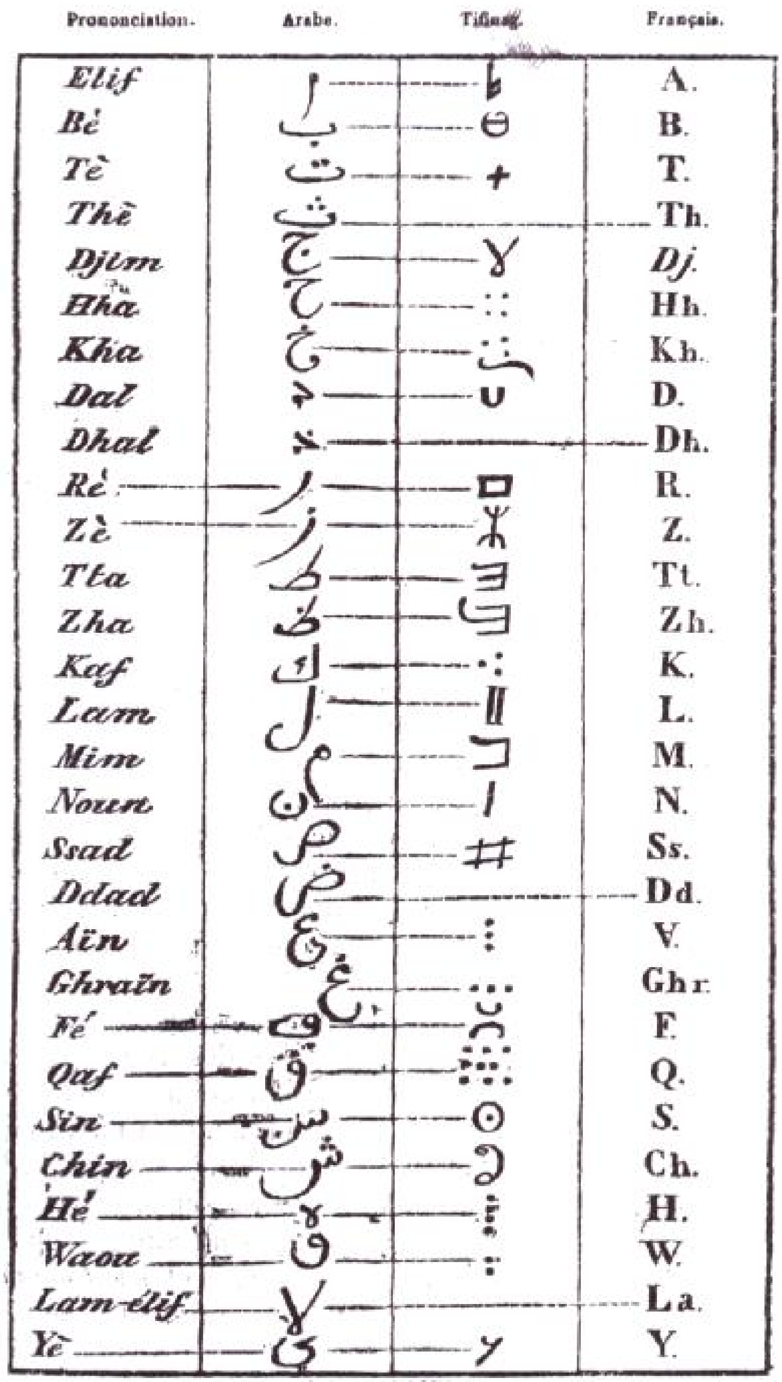
وتكتب حروف التافيناغ بشكل عمودي أو أفقي حسب رغبة الكاتب من الــيمين إلى اليسار أو من اليسار على اليمين، وأن اتجاه الحروف يكون من الأعلــى إلى الأســفل أو مــن الأسفل إلى الأعلى ، غير أن الطريقة العربية ، أي من اليمين على اليسار هي الطريقــة الأكثــر اعتمادا [2].

وفيما يلي جدول بحروف التافيناغ وما يقابلها في اللغة الفرنسية واللغة العربية كما أورده الرحالة ديفيريي [3]

[1] Duveyrier، Henri: **Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 388

[2] **Ibid**، p389

[3] Ibid، p392



Prononciation.	Arabe.	Tifinag.	Français.
Elif	ا	ⴰ	A.
Bé	ب	ⴱ	B.
Tè	ت	ⵜ	T.
Thè	ث		Th.
Djim	ج	ⵊ	Dj.
Hha	ح	ⵃ	Hh.
Kha	خ	ⵅ	Kh.
Dal	د	ⴷ	D.
Dhal	ذ		Dh.
Ré	ر	ⵔ	R.
Zè	ز	ⵣ	Z.
Tta	ط	ⵟ	Tt.
Zha	ظ	ⵥ	Zh.
Kaf	ك	ⴽ	K.
Lam	ل	ⵍ	L.
Mim	م	ⵎ	M.
Noun	ن	ⵏ	N.
Ssad	ص	ⵚ	Ss.
Ddad	ض		Dd.
Aïn	ع	ⵄ	V.
Ghraïn	غ	ⵖ	Ghr.
Fé	ف	ⴼ	F.
Qaf	ق	ⵇ	Q.
Sin	س	ⵙ	S.
Chin	ش	ⵛ	Ch.
Hé	ه	ⵀ	H.
Waou	و	ⵡ	W.
Lam-élif	لا		La.
Yè	ي	ⵢ	Y.

والدارس لهذه اللغة يدرك أنه ثمة تشابه كبير بينها وبين اللغة العربية فمثلا فعل أطس الذي يعني بالطارقية ينام يصرف كما يلي:

أطسغ: نمت (أنا)

تطسد: نمت (أنت)

نطس: نمنا(نحن)

يطس: نام (هو)

كما نجد استعمال النون عادة في البربرية للربط بين الضمائر، تماما مثلما في العربية، وبالمقابلة مع جمع المؤنث السالم، نجد الثاء في كلمة الخالات أي النساء تدل على التأنيث.

ونجد الكثير من الكلمات في لغة الطوارق هي في الحقيقة ذات أصول عربية، وهذه بعض الأمثلة:

تامطوث: المرأة الطائن الذي يحيض، فهي من الطمث

أمورت: (البلد) الأرض وهي من الممرثة

أجاديجن: (الوتر) من الجدجد أي الأرض الصلبة

ايكرز: يحرث من كرز، أي أدخل شيئا في حفرة

أخام : الخيمة

آخلخال: الخلخال

ايزمر: الخروف من زمر الصوف

آغي: الحليب من غوى الرضيع إذا أكثر من الرضاع

أمان : الماء

أقلمونت: القلنسوة

يكز: يخاف من أكزى الشيء، أي احمر لونه.[1]

[1] بوشارب، عبد السلام: **الهقار أمجاد وأنجاد**، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 ص 18

5- البعد العمراني

العمران صورة المجتمع ومرآته الحضارية فمن خلال النمط العمراني نستطيع معرفة الكثير من الخصائص التي يتميز بها مجتمع ما. والمدن الصحراوية فضاءات ساحرة ، تطرق الرحالة الفرنسيون بالوصف إلى الكثير من هذه المدن التي كانت تشكل نموذجا متميزا وجديدا في نظرهم . وسأتطرق إلى ثلاثة مدن منها ؛ هي مدينة الوادى، مدينة بسكرة ومدينة بوسعادة.

أ- الوادى

مدينة الوادى عاصمة الصّوف في الجنوب هي مدينة الألف قبّة بسبب وجود قبة على كل سطحٍ من سطوح منازلها لكي تُعكِس أشعة الشّمس الحارقة، وتزيد من مساحة السّطح، لتخفيف وطأة الحرارة أيضًا.

والأمر الآخر المُدهش والذّي يُمكن أيضًا رؤيته من مئذنة جامع سيدي سالم أو من سطح الفندق، هو وجود الكثبان الرّملية الكثيرة التي تلفّ مدينة الوادى. كذلك تمّ حفر خنادق عميقةً طويلةً، وَزُرِعَت حوالي نصف مليون شجرة نخيل في القعر لكي تتمكن جذور هذه الأشجار من الوصول إلى المياه الجوفيّة. وكانت النّتيجة أنّ تمورها من أفضل التّمور في الجزائر.

إضافةً إلى ذلك، فلقد استُعمِلَت سُعف النّخيل الجافّة كحواجز لصدّ الرّمال الصّحراوية واتّساع الرّقعة الصحراوية الزّاحفة نحو المدينة وما حولها. تُشيّد منازل منطقة الميزاب الصحراوية بطريقةٍ فريدةٍ من ناحية مواد البناء المُستخدمة والأسوار وموقعها تحت الأرض، بحيث تتكوّن من طبقةٍ عازلةٍ للمنازل وما حولها. وحتّى المساجد ومنازل الأغنياء تُبنَى على الطّريقة نفسها.

وحول تسمية وادى سوف فإنه فقد اختلف حول مصدرها فهناك من يحيلها إلى كلمة صوف العربية، وذلك أن المنطقة اشتهرت بنسيجها للصوف، وكان النسيج أهم مصادر الرزق

[1]. آخرون يقولن بان كلمة سوف أصلها "سيوف" جمع سيف والتي تعني الكثبان ذات القمم الناتئة وقد تحورت بعض الشيء لتصبح سيوف أي المدينة ذات الكثبان.

وهناك قصة أخرى حول تسمية سوف ومفادها أنه في عهد المسيحيين كان نهر يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب يسمى وادى إزوف أي النهر الذي يرقرق، لكن المسيحيين أجبروا على التراجع أمام الفتح الإسلامي المظفر فعمدوا إلى إغراق النهر في عمق الرمال وفروا، ثم تحولت وادى إزوف إلى وادى سوف، ونجد كلمة سوف في لغة الطوارق وتعني النهر الأبيض.[2]

تمتد المدينة على مساحة تقدر بـ 82.800 كلم2 بين خطي طول 30° و34° درجة شمالا. ويصف مارتيتز كثبان الرمال المتحركة بمنطقة الوادى ملتقطا لها صورة فوتوغرافية جميلة لهذه الظاهرة الطبيعية الفريدة التي تتميز بها المنطقة مقارنا بين صحراء الوادى والصحارى الأخرى، "إذا كانت صحراء الهضاب بحرا ثابتا في أوقات الهدوء، فإن صحراء الرمال تشكل لنا بحرا متحجرا خلال عاصفة هوجاء، كثبان تشبه الأمواج ترتفع الواحدة خلف الأخرى على مدى الأفق... ثم تتحول إلى قمم حادة، تنسل في شكل أهرامات وتتكور في شكل قباب أسطوانية. الرمل في حالة تغير مستمر جراء الرياح التي تحمله . على السطح يمكن أن نرى طبقة متحركة من الغبار تجري وتصعد منحدرات الكثبان، فتتوج القمم وتسقط على شكل طبقات في الجهة الأخرى."[3]

---

[1] نقلا عن أندري فوازان ESCARD: **Etude sur le pays de Souf**، Bulletin de l'académie Bonne d'Hippone – n° 24، 1890، p 24

[2] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p15

[3] نقلا عن VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 13
MARTINS، Charles: *Tableau Physique du Sahara Occidental* . **Revue des Deux Mondes** 1864.

أما روبر جورج فيقدم لنا وصفا جغرافيا لموقع الوادى والمدن والقرى المحيطة به فيقـــول: تقع وادى سوف بين وادى ريغ وتونس، وهي بلد جاف به رمال متحركة، يبلغ عدد السكان به خمسا وعشرين ألف نسمة، موزعة على سبعة قصور؛ وفي الوادى المدينة الرئيسية ثمانية آلاف نسمة، أما المناطق الأخرى فكثافتها السكانية قليلة وهي: كوينين، تارزوت، إيغوم، البهيمـــة، الدبيلة وسيدي روم. وهناك بين الوادى وتقرت حوالى ثمانين كيلومترا يمكن قطعها خلال ثلاثة أيام عبر الكثبان الرملية.[1]

ومن الرحالة الذين عشقوا هـــذا البلـــد، واســـتوطنوا بـــه، نجـــد الرحالـــة إيزابيـــل إبرهاردت Isabelle Eberhardt، التي كتبت الكثير عن هذه المنطقة وأهلـــها، تقـــول إيزابيل: " لقد وهبتي رؤيتي الاولى للوادى حالة من التجلي المطلق، وانطباعا نهائيا عن هذا البلد، الشرس والرائع والذي هو سوف، من خلال جماله الغريب، وكآبته الكـــبيرة كـــذلك"[2] ، ثم تصف في مقام آخر الوادى مقدمة لها صورة منظورية كاملة:

"هنا وهناك ركائز آبار بدائية، عارضة كبيرة متجهة صوب السماء، وقد انحنت بواســـطة حبل كأنها صنارة صياد عملاقة. وهناك، مهيمن على الكل في قمة الهضبة برج مربع ذو بياض ناصع يطوق الشفافية المحيطة بالمكان. يتلألأ وسط النهار الساطع، محتفظ في المساء بآخر الأشعة الحمراء للغروب: إنه منارة زاوية سيدي سالم.

في الضواحي المحجوبة بالكثبان، قرى معزولة، حزينة وقديمة، والتي كانت أسماؤهـــا ذات وقع موسيقي غريب: البياضة، فم السحوم، أولاد علاندة، بير عراير...

---

[1] Robert، George: **Voyage à travers l'Algerie**، Paris،1891، p382.

[2] نقلا عن VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 13
EBERHARDT، Isabelle:**Dans l'ombre chaude de l'Islam**،Edition Fasquelle، Paris1906،

كان الإحساس الأول الموجع حد الشجن لجاك هو إحساسه بالسجن بين كل هذا الرمل، جراء عزلته الكلية والتي قضاها على مدار ثمانية أيام، والتي اعتقد أنه أدرك فحواها، وقد بدأ يتعلق بها...

وها الآن، كل هذا الفضاء الذي يفصله عن بسكرة، أين ترك أخر المناظر المعروفة، و المألوفة إلى حد ما لديه. كان يبدو له كل ذلك ساحرا، مستبدا، عدائيا حد اليأس تقريبا..."[1]

وسحر سوف لا يتجلى إلا في هذا المقطع الشاعري الجميل لإيزابيل إبرهاردت وهي تصف الوادى مساء :

تحت سماء الربيع الرحبة، الصافية والمضيئة، تحت ضنى الصيف الثقيل، تمتد كثبان سوف متموجة، لازوردية في الأمواج البعيدة... أحب جاك أن يغادر المدينة التي أحب، في الوقت الذي أحب، عند غروب الشمس. وللمرة الأخيرة كان جاك يشاهد كل ذلكم الديكور الذي لن يره أبدا، وانقبض قلبه. للمرة الأخيرة، كان مشهد الفتنة الكبرى للمساءات المشرقة يمر أمام عينيه الطافحتين بالحنين ...

عندما مر على كثيب سي عمر الكبير، وتوارى الوادى خلف الجدار الشاهق للرمل القرمزي، أحس جاك باستسلام حزين يبعث السكينة في قلبه... إنه هادئ الآن وهو يشاهد الضيعات الصغيرة الحزينة، والزرائب الصغيرة المبنية من سعف النخيل، المنازل ذات القباب، تتمدد بإفراط الظلال الضاربة للون البنفسجي لجوادي الفارسين وقد احمرا في ضوء المساء الأحمر.[2]

[1] EBERHARDT، Isabelle **Le Major** ، document électronique

[2] Ibid، ، document électronique

ب- بسكرة

مدينة بسكرة الواقعة على مسافة 245 كلم جنوبي قسنطينة قاطعة جبال الأوراس، هـــي واحةٌ صحراويّةٌ بكلّ معنى الكلمة، مع ملايين أشجار النّخيل. كما تُعرف بواديها الذي يمـــرّ في وسطها والجامع وقبّته ومئذنته ومناخها المتوسّط والمناطق الزّراعية المُحيطة بها. وتُعَدّ بسكرة أكبر مدينةٍ صحراويّةٍ وفيها ضريح عقبة بن نافع الذي قُتِلَ على أيدي البربر سنة 62 للهجرة، خارج المدينة. ويُعَدّ ضريحه أقدم مزارٍ إسلاميٍ في الجزائر، ويزوره الحجّاج منذ ذلك الحين.

بسكرة ملكة الزيبان كما يسميها أوغست بيسي Auguste BESSET ، إنها الصحراء ذلك البراح ، ذلك المحيط الشاحب، الموشى بالبقع الداكنة، إنها واحات الزيبان.[1]

ويقول بارودان بأن بسكرة تعني في بالثمالة، وإنها فعلا ثمالة سمائها الزرقاء دوما، وشمسها الملكية، وأزهارها ذات الأريج الفواح، وحياتها اللامبالية والحسية، كل هذه الأشياء هي التي أضفت عليها هذا الاسم. بمدخل الصحراء، بشساعتها المغرية، وواحتها العذبة، كما جنة ساحرة.[2]

والمدينة من بسكرة إلى تقرت عبارة عن شريطٍ من الواحات المليئة بأشجار النّخيل بمحاذاة نهر وادي رهير.

يناجي بول بورد مدينة بسكرة، مشيدا بسحرها وروعتها، أرضا وسماء، ربيعـــا وشـــتاء، واصفا شمسها وماءها، هواءها وعطرها؛ وكيف أنها ستكون قبلة كل السواح، حين يهجـــرون المدن الأوروبية ليلتحقوا برملها فيقول:

---

[1] BESSET، Auguste : **A Travers l'Algérie d'Aujourd'hui**، Imprimerie Roy frères، Chagny، 1896، p 178

[2] BARAUDON، Alfred: **Algérie et Tunisie Récit de voyages et études** Paris، librairie Plon 1893، p 169

"يا بسكرة ! من ذا الذي يستطيع أن ينساك من بعد ما رآك... سحرك المستبد سيأسر تلك التخيلات المقرفة... وسيهجرون نيس وإيطاليا والجزائر العاصمة من اجل ظل نخيلك... فيك الشتاء خريف وربيع إذ آنذاك تنضج تمورك ويصفو عسلك، وتنحني أشجار الرمان والبرتقال تحت ثقل فواكهها. شمسك دوما دافئة، وهواؤك دوما خفيف عليل...الحياة والنسغ لا يتوقفان أبدا في حدائقك، والماء من ينابيعك يتمتم باستمرار خضرة سرمدية."[1]

و يسميها ريني بوتيي ملكة الزيبان...بسكرة الجميلة هذه المدينة التي تنسيك أنك على مشارف بلاد صعبة مليئة بالفخاخ والأغوار بفنادقها الفاخرة وكازينوهاتها.. ومسجدها سيدي عقبة. والبسكريون قوم تعودوا على المسافرين الأجانب إذ أنهم يتحدثون أكثر من لغة وهم أهل مكر وحيلة وخداع فمثلا سعر النزهة على ظهر جمل يكون في البداية سعرا رمزيا للغاية حتى تستغرب من ذاك السعر ولكن بعد انتهاء النزهة يكون النزول من على الجمل بمائة فرنك.[2]

أما هنري دي فريلوز فيشير إلى خصوصيات هذه الواحة وكيف أنها مختلفة عن الواحات الأخرى: "هذه الواحة مختلفة قليلا عن الواحات التي سنراها فيما بعد؛ فهي مقسمة على مجموعة من الحدائق، المقسمة بدورها بواسطة أسوار من الطوب، وبآلاف القنوات الصغيرة، ولا يزرع بهذه البساتين إلا النخيل وبعض أشجار التين والزيتون."[3]

واسم بسكرة مأخوذ من السكر والثمالة، وفعلا هي ثمالة سمائها الصافية دوما، وشمسها الملكية، وازهارها ذات الأريج الفواح، وحياتها اللامبالية والحسية كل هذه الصفات هي التي أعطتها هذا الاسم

---

[1] BOURDE، Paul: **A Travers l'Algérie**، G. CHARPENTIER، ÉDITEUR، PARIS، 1880p133 et 134.

[2] POTTIER، René: **Sahara**، B.Arthaud، France، 1950، p 32 et 33

[3] DE FRILEUZE، Henri: **Impressions de Voyage**، **Algérie et Tunisie.** Alencon 1900. p 19

بمدخل الصحراء، بشساعتها الخلابة، تقع واحتها العذبة كجنة ساحرة. تهب نفسها للصحراويين ولرجال الشمال الذين يقفون مع أنفسهم بها قبل التوغل في المناطق المجهولة من الصحراء. بسكرة الساحرة تهزا من كل المعاناة والآلام. على ترابها الرطب، بسبب كثرة أنهارها الجوفية ينبت النخيل خصبا شهيا، وبنادير فتيات أولاد نايل التي يتردد صداها في المنازل المغلقة. على سفح جبال الأوراس التي تقيها من رياح الشمال، تتمدد بسكرة كملكة متيقظة لكل تناغم الفضاءات المهتزة، وقد تسربلت بأشعة الفجر الذهبية.

تنقسم المدينة إلى قسمين بسكرة القديمة وبسكرة الجديدة ، فالجديدة يقول بارودون أنها قرية كبيرة يرجع تاريخ تأسيسها إلى 1844، شوارعها الكبيرة المنتظمة محاطة ببنايات ذات طابق واحد مبنية بالطوب المطلي بالجير ومسقفة بالقرميد ، تقع في وسط المدينة ، ساحة جميلة ذات أشجار عديدة ، نزل الصحراء مقابل للكنيسة الجديدة ذات الطراز العمراني الروماني، وكل المنازل مزينة بأقواس يلجأ إلى ظلها عند اشتداد الحرارة.

أما بسكرة القديمة فإنها تقع بعيدا باتجاه جنوب شرق، وتمتد على مسافة خمس او ست كيلومترات بمحاذاة الوادى. وهي مقسمة إلى أحياء غير منتظمة في الشكل، غير أنها متشابهة في المظهر، تحمل أسماء القبائل التي تسكنها. إنها الواحة بأرضيتها الصفراء المرملة، حيث حفرت قنوات تجري بها مياه السيول والآبار الارتوازية.وبين هذه القنوات تمتد أشجار النخيل المحاطة بأسوار من الطين لتشكل بذلك بساتين وحدائق .

ج- بوسعادة

"تنام بوسعادة، الملكة الضارية متسربلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية ؛ لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية.وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها

البيضاء تحت مداعبة الريح... وأريجها الذكي يحلق في دفء الجو الرطب ناثرا كآبة مبهمة فاتنة..."[1]

بهذا الاستهلال تبتدئ الكاتبة قصتها نحيب اللوز، راسمة طبيعة بوسعادة هذه المدينة التي تدهش زائرها وتملأ قلبه وجوانحه سعادة – أوليست بوسعادة – جالبة الفرح، مثيرة الحبور في النفوس بمناظرها الطبيعية الخلابة ، وسحر رمالها ونقاوة هوائها وطيبة أهلها؛ إنها مكان السعادة، وحول تسميتها بهذا الاسم يورد الدكتور لافيجري في مجلة حول العالم المختصة في الرحلة والاستكشافات الجغرافية أسطورة تعود إلى القرن السادس عشر ، تاريخ بناء مدينة بوسعادة.

"تقول الأسطورة : في القرن السادس للهجرة، قدم رجل شريف يدعى سليمان بن ريبع ليستقر بسفح جبل مسعد. بعدها بقليل التحق به رجل دين فاضل يدعى سي ثامر، الذي درس العلوم بزوايا ومدارس فاس.أعجب سي ثامر بجمال الوادى وصفاء النبع، فطرد الذئاب التي كانت تسكن المكان بمساعدة رجال سي سليمان، وشيد بيتا هناك ليستقر به ويتفرغ للتأمل ودراسة الكتب . وقدم بعض البدو من أولاد ماضي وأولاد نايل لزيارة الرجل الصالح، بعد أن ذاع صيته وعلمه وعدله بالمنطقة ليصل إلى المسيلة ويتعداها.ليلتحق بالشيخ طلاب العلم للنهل من دروسه وعلمه الغزير، ويبتنوا منازل لهم بجواره ، ليضعوا بذلك النواة الأولى لمدينة جديدة. بعدها بني مسجد هناك وبعد الانتهاء من بنائه، اجتمع الشيخ سي سليمان والشيخ سي ثامر لإطلاق اسم على المدينة الجديدة وبينما هم كذلك غير مستقرين على اسم محدد، سمعوا زنجية تنادي كلبتها : سعادة ! سعادة!فراقهما الفأل الحسن، وتيمنا به أطلقا اسم بوسعادة على الواحة التي شيدت بها تلك المدينة."[2]

[1] EBERHARDT، Isabelle: **Pleurs d'amendiers**، document électronique

[2] Docteur A. Lavigerie: L'Oasis de Boussada In: **Tour du Monde** 18/ 2 Mai1902، p205

ومن الرحالة الفرنسيين الذين قدموا إلى بوسعادة وكتبوا عنها نجد دو بـــواروجي وقـــد روى هذا الأخير نفس القصة حول أسطورة تسمية بوسعادة، ثم يقول بأنها مبنية علـــى شـــكل مدرجات.

ثم يضيف حول الحصن الموجود بها "الحصن وهو المكان الذي يلجا إليه الجنود أو الجيش في حالة الغزو من طرف الأعداء. في الساحة الكبيرة والحي الذي يمتد تحت الحصن ترتفع بعض البنايات الأوروبية (كنيسة، مدرسة ومحكمة). وبالساحة أيضا المبنى العسكري ببستانه المزروع بالنخيل وأشجار الرمان والورد ....أما باقي المدينة فلها المظهر الصـــحراوي تمامـــا؛ شـــوارع حجرية صغيرة محاطة ببيوت طينية رمادية اللون.

تنقسم بوسعادة إلى أحياء:المحامين، أولاد حميدة، شرفاء عشاشة، أولاد الحلاق.

يقطع وادى بوسعادة بساتين النخيل والأشجار المثمرة، ليقسمها إلى قسمين؛ قسم ملاصق للمدينة وآخر يبتدئ عند النهر.

يصل تعداد سكان بوسعادة على ستة آلاف نسمة من بينهم حـــوالى أربعـــين أوروبيـــا وخمسمائة إسرائيليا.[1]

أما الكاتب الفرنسي الكبير غي دي موباسان (1850-1893) فيؤكد ان "واحة بوسعادة هي الأكثر حسنا في الجزائر، يمكننا أن نصطاد الغزلان الموجودة بكثرة بضواحيها...تتواجد بهذا القصر تجارة مهمة نظرا لوجوده تقريبا في طريق الميزاب"[2]

---

[1] DE BOISROGER. A : **Le Sahara Algérien Illustré، Souvenirs de Voyage 1886- 1887**، Paris، p 8

[2] نقلا عن: بوداود، عمير، **موباسان ويهود الجزائر**، **جريدة الخبر** عددالخميس16 جوان2005

فصل ثالث

تجليات المظاهر الاجتماعية

تمهيد:

تجلت الحياة الاجتماعية للفرد الصحراوي في كثير من كتابات الرحالة الفرنسيين سوء منهم الأدباء أو الأنتروبولوجيون أو المؤرخون، ومن أبرز هذه المظاهر التي سجلها هؤلاء ما يلي:

1- الكرم

الكرم من المظاهر الايجابية التي تميز بها المجتمع الصحراوي الجزائري خلال القرن التاسع عشر ، وهو المظهر الذي كان يبدو غريبا بالنسبة للفرنسيين، لأنه قيمة غير مألوفة لديهم ، ذلك أن المجتمع الأوروبي مجتمع فرداني، يقدس الذات قبل كل شيء ، ويوليها الأهمية الكبرى ، وإن تعدى إلى عمق الآخر واهتماماته وآلامه وآماله فذلك لا يتأتى إلا انطلاقا من مبدأ المصلحة المشتركة.

ويختلف الفرد الجزائري ، وخاصة الصحراوي عن الأوروبي في هذا التوجه نحو الآخر دون حسابات دقيقة مبنية على أسس الغايات المادية المشتركة، فالجزائري تدفعه طبيعته الاجتماعية ، وتعاليم شريعة الدين الإسلامي إلى التفكير ومراعاة الآخر قبل نفسه.

فهذا الرحالة كلاماجرون CLAMAGERAN يشير إلى أن الكرم الجزائري كرم فخم، عظيم وإن كان بسيطا ، فالعظمة تكمن في سلوكات الجزائريين وهم يكرسون هذه القيمة، فيقول :

"كرمهم يمتاز بنوع من العظمة والفخامة، لا يمكن إلا أن يؤثر في الغريب. وهذا لا يعني أنه دوما فاخر وباذخ؛ وحتى ولو كان بسيطا فقدم لك بعض الكسكس بالفلفل مع نبيذ النخل، فإن العظمة تكمن في سلوكاتهم ، في حركاتهم وملامح وجوههم المعبرة عن الوقار والود

والاستئناس، عبارات أبلغ من أي بذخ . إنهم يتمتعون إلى درجة عالية بفن التعبير عن أحاسيس عميقة بطرق بسيطة جدا".[1]

وتتجلى صورة هذه الميزة جلية، ناصعة، بل وفي أسمى معانيها في هذه الشهادة التي جاءت على لسان الجنرال دي باراي في كتابه " مذكراتي " Mes Souvenirs إذ يقول:

" كانت على عاتقي حامية بأكثر من ألفي رجل، بما فيها الجرحى الذين يقدر عـــددهم بمائتين جريحا من بينهم ضابط جنرال وعشرة آخرين برتب مختلفة، و لم أكن املك لإعالة كـــل هؤلاء غير بعض أكياس البسكويت وأخرى من الأرز؛ لم أكن أملك شيئا: وحرفيا لا شـــيء تعني ؛ لا ثور، لا كبش، معناها لاشيء، لا قطعة لحم ولا حتى من لحم الخنزير المملح، لا سنتيم لشراء شيء ولا لدفع القرض المستحق.

كنت أجتر فاقتي، مستسلما لإيقاع مشي حصاني الذي بدا وكأنــه يعكـــس أفكـــاري الحزينة، وحتى ملامحي لا بد أنها كانت تعكس حالتي النفسية القلقة أيضا، إذ سمعـــت صـــوت فارس بادرني بالسؤال بلسان عربي، وقد حاذاني جنبا إلى جنب:

-دي باراي، تبدو حزينا! ما بك ؟

كان محدثي الابن الثاني للعجوز المسكين بن سالم إنه الشيخ علي الذي أتى معي لمرافقـــة رتل الجنرال.

-آه! أنت ! قلت له، أنت محق لست مسرورا على الإطلاق، إنني في محنة شديدة ، يمكنني أن أخبرك، لا مال لي ولا مؤونة، ولست أدري بما سنعد طعام الجنـــود هـــذا المساء و ليس فقط للحامية ولكن حتى للجرحى.

---

[1] CLAMAGERAN. J.J: **L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**. Paris. Librairie Germer Bailliere، 1874، p175

رد الشيخ علي بكل بساطة:

- كم يلزمك من المال؟

- أربعون ألف فرنك

- ستكون عندك في خلال ساعة من الزمن، وكم يلزمك من اللحم؟

- يلزمني مائة ثور وخمسمائة كبش.

- ستكون عندك قبل منتصف النهار.

وانطلق مسرعا. لم أعلم أبدا كيف تصرف ولكن في الوقت المحدد كان المبلغ والماشية تحت تصرفي.

لم أكن لأستطيع الخروج من تلك الورطة الحقيقية لولا الشيخ علي، الذي أسدى إلى هذه الخدمة وببساطة غريبة ، وكأنه كان يقوم بشيء بسيط تافه للغاية.[1]

إن هذه الحادثة لا تنضوي على خصلة الكرم وحسب ، ولكنها تبرز خصالا وقيما اجتماعية رائعة كانت عنوانا لشهامة الرجل الصحراوي ؛ فاحترام الكلمة المعطاة، وتنفيذ الوعد والحفاظ على العهد في الوقت المحدد، وبهذه السرعة المذهلة، كل هذه القيم مجتمعة وغيرها من القيم الاجتماعية التي أبهرت الفرنسيين، ودفعت بهم في كثير من الأحيان إلى مراجعة أحكامهم الجاهزة والخاطئة التي رسخها البعض في أذهانهم ، والتي تكرس مفهوم البربرية لدى هذا المجتمع الذي ما جاءوا إلا من أجل تمدينه كما كانوا يزعمون.

[1] Du BARAIL: **Mes Souvenirs**، Paris، Plon، 1898 T2 PP 5859،et60

2- حسن الضيافة

حسن الضيافة عند سكان الصحراء من العادات البارزة في حياتهم، وتقديم الضيافة للغريب تأخذ لدى المجتمع البدوي الصحراوي بعدا عقديا وتكتسيها هالة من القداسة، يتسابق إليها الوجهاء والأثرياء والفقراء، على حد سواء، فإكرام الضيف من العادات المتوارثة والمهمة، يقول فرج محمد فرج في دراسة حول منطقة توات وعاداتها؛ حتى أنه كانت من المهام الموكولة للوقّاف، التعرف على الغرباء والأجانب بالبلدة ومصاحبتهم إلى دار الضيافة، ثم إخطار الأسرة التي عليها تقديم الطعام للضيف لمدة ثلاثة أيام.[1]

وهي أمر عظيم لديهم، وهذه القداسة التي يولونها لإكرام الضيف والغريب والزائر، أذهلت الرحالة الفرنسيين، فسجلوا الكثير مظاهرها، ورووا العديد من الحكايات التي تبرزها كميزة ملتصقة بالمجتمع الصحراوي؛ ومن هذه الحكايات الغريبة ما رواه فرانك إليزا في ذكرياته عن الصحراء الجزائرية: "لا شك أن نقص الحضارة قد حرمهم من ميزات عدة غير أنهم يتمتعون بفضائل استثنائية جدا.

لم يمض إلا يومان على وصولي إلى الواحة، حتى تبين لي الدليل القاطع والمؤثر:

استضفت ببيت أحد الميزابيين الأثرياء، واستقبلت أحسن استقبال، لطف عال واحترام وتقدير يتميز به سكان هذه المنطقة، والذين يضاهون العرب في حسن معاملة الضيف وإكرامه.

" كنت على وشك مغادرة مضيفي، حين بادرني بكل بساطة ودون أي مرارة:" لقد عملت بالأصول الواجبة في استقبالك قدر ما استطيع، أنت وخادمك، وما تركت علامات الحزن تبدو على محياي، أو تشوب صوتي نغمة كئيبة ، لقد أعانني الله أن أكون لطيفا مع المسافرين، ولكني الآن أطلب منك عربون صداقة بالأمس حين أخبرتك أن ولدي نام ، كان في

---

[1] فرج ، محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر1977،ص36

الحقيقة لحظتها قد لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي أمه، هي إرادة الله، رحمـــه الله... وحـــتى لا أنغص عليك صفوك وأعكر سرورك، كان لا بد علي أن أتمالك نفسي وأحتوي ألمي، وفرضت الصمت على زوجتي ، فلم يصلك بكاؤها، والآن أرجو منك أن تحضر معنا مراسيم جنازة ابني وأن تضيف صلواتك على صلواتي"

كنت أشد على يد ذلك الرجل الشجاع، و لم أجد أي حرج في إظهار تـــأثري الكـــبير وانفعالي الذي تركته كلماته في نفسي، أما باستيون فقد كان يمسح بمقبضه دموعه المنهمرة على خديه"[1]

وهكذا يضرب هذا الصحراوي مثلا حيا في احترام الضيف وإكرامه.

وهذه القصة نفسها يوردها أوجين دوماس Eugene،DAUMAS في رحلتـــه " الصحراء الكبرى أو مسار قافلة من الصحراء إلى بلاد الزنوج" بنفس التفاصـــيل، مـــع بعـــض الإضافات[2] ، كأن يذكر دوماس أن الرجل الذي استضافهم يدعى أبو بكر ، ويدعي كل مـــن أوجين دوماس وفرانك إليزا أن الحادثة وقعت لهما، ولست أدري أيهما فعلا وقعت معه هـــذه الواقعة.

وحسن الضيافة عند أهل الصحراء ، لا يقترن بتقديم أشهى وأحسن ما يملك المضيف من الأطعمة، ولكن في طريقة تقديم تلك الضيفة كما يسمونها ، وفي السلوكات المصاحبة، فخدمة الضيف ، واجب من الواجبات المقدسة؛ يقول كلاماجرون في الجزائر ، انطباعـــات رحلـــة" كرمهم يمتاز بنوع من العظمة والفخامة، لا يمكن إلا أن يؤثر في الغريب. وهذا لا يعني أنه دوما فاخر وباذخ؛ وحتى ولو كان بسيطا فقدم لك بعض الكسكس بالفلفل مع نبيذ النخـــل، فـــإن

[1] ELISA، Frank **Willie Butler suivi des souvenirs du Sahara Algerien** Tour Alfred Mme et fils، éditeurs

[2] DAUMAS، Eugene: **Le Grand Désert ou Itinéraire d'une Caravane du Sahara au Pays des Negres**، Paris، 1848، p 40 et 41

العظمة تكمن في سلوكاتهم، في حركاتهم وملامح وجوههم المعبرة عن الوقار والود والاستئناس، عبارات أبلغ من أي بذخ . إنهم يتمتعون إلى درجة عالية بفن التعبير عن أحاسيس عميقة بطرق بسيطة جدا.[1]

ويؤكد ليون روش هذه الفكرة وكيف أن قاضي البلدة هو من كان يقدم لــه وبيديــه أحسن قطع اللحم، بكل الود والشاشة؛ وجيء بالحولي ؛ خروف له سنة واحـــدة، مشـــوي، شهي، كان قاضي الدوار يمنحني بنفسه أحسن قطع اللحم بأصابع نظيفة رشيقة للغاية، يمكنـــها أن تحل محل الشوكات بمطاعمنا، ثم قدم لنا مترد كبير من الكسكس تعلوه قطـــع مـــن لحـــم الخروف والدجاج والبيض والزبيب.2

كما يصف فرومونتان الضيفة وطعامها وكيفية تقديمها مؤكدا دائما على سلوك المضيف في خدمة ضيفه فيقول:

"الضيفة هي طعام الضيافة. ومكوناتها سطرتها العادة والأعراف فأصبحت علامـــة مـــن علامات اللياقة .

... وتتكون الضيفة حسب التقاليد الرسمية للولائم من: أولا وقبل كل شيء كـــبش أو كبشين مشويين، يؤتى بهما مرفوعين على خازوق طويلة واللحم يتقاطر دهنا وشحما : وعلى الزربية طبق خشبي بطول الكبش؛... وصاحب الدار هو أول من يقطع أول شريحة وأحســـنها ليقدمها لأكبر الضيوف مكانة ووجاهة.

---

[1] CLAMAGERAN. J.J: **L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**. Paris. Librairie Germer Bailliere، 1874، p 175

[2] ROCHE، Leon**: Dix Ans à travers L'Islam**، 1834- 1844، Paris، p 160

يقدم الكبش المشوي مع الرغيف المصنوع بالزبدة، ثم تأتي الأطباق الأخرى المبوخة باللحم والفواكه المجففة، بصلصات متبلة بالفلفل الأحمر ، ليأتي الكسكس في طبق خشبي كـــبير، أمـــا المشروبات فالماء والحليب واللبن...[1]

ثم ينتقل فرومونتان إلى وصف أطباق الوليمة وطريقة الأكل وكيفياتهـــا بدقـــة وبكـــل التفاصيل، إلى أن يصل إلى القول بأن الضيافة عند الجزائري ليست من الواجبات الاجتماعيـــة، هذه الأخيرة غير المعروفة تماما عند هذا الشعب ذو النزعة المعادية لما هو اجتماعي، وإنما بداعي توصية إلهية بعابر السبيل، لذا يعامل بهذه الكيفية؛ ومن هنا فإن اللياقة لا تنبعث من الأعـــراف والتقاليد ولكن من مبدإ ديني. ولذلك يمارسونها بذلك الاحترام الذي يولونه لكل ما هو مقدس، ويطبقونها كعمل من أعمال التقوى والورع.[2]

ويضيف، إن هناك تناقضا صارخا عند الرجل إذ ورغم معاملة المرأة الخشنة والمهيمنـــة في كل حال ، تنمحي وتزول تلك الهيمنة ويلجأ الرجل إلى ترجيها عندما يتعلق الأمر بتشـــريف الضيف. يجب أن نعترف هنا أنه درس يقدمونه لنا نحن أهل الشمال، الضيافة بهذا الشكل مـــن طرف الرجال تقديرا ومراعاة للرجال، أوليست هذه هي الطريقة الوحيدة الجديرة والوحيـــدة الأخوية التي وكما يقول العرب تضع لحية الغريب في يد المضيف".[3]

وفي الصحراء لا يخلو أي دوار من خيام الضيافة حيث أشار دوماس إلى ذلك بقوله:

"عادة يتكون الدوار من سبعين إلى مائة خيمة منصوبة حول فضاء واسع نوعا ما يـــدعى المراح ، وغير بعيد في الخارج قليلا تنصب سبع أو ثمان خيام أخرى تسمي: "قياطين الضياف"؛

---

[1] FROMENTIN، Eugenne : **Un été au Sahara**، Paris Librairies Plon. pp18 et 19

[2] المصدر السابق ، ص20

[3] المصدر نفسه ص 21

خيام الضيوف تشيد من طرف أغنياء الدوار، يسهر عليها بعض الخدم ليل نهار، مكلفون خصوصا بخدمة الغرباء".[1]

وهكذا فالضيف متى دخل على صاحب البيت يستقبل بالحفاوة والترحيب. وقد قالت البدو في الضيف "إذا أقبل أمير وإذا جلس أسير وإذا قام شاعر". ومعنى ذلك أنه يجب على المضيف أن يستقبل ضيفه بالحفاوة اللازمة والترحيب الحار على قدومه وإظهار الوجه البشوش والفرح وهو يتساوى في ذلك بمترلة الأمراء.

وهذه الأهمية التي يوليها المجتمع البدوي الصحراوي للضيافة، تكتسب قداستها من العقيدة الدينية إذ يعتبر الصحراوي الضيف مرسول الله[2] كما يقول فرومونتان، والصحراويون لا ينعتونه إلا بعبارة **ضيف ربي**،[3] ولا غرو أن يكون كذلك، فالإسلام حث على احترام الضيف وإكرامه؛ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

" من ألقم أخاه لقمة حلوة ، صرف الله عنه مرارة الموقف"

وفي أحاديث الصحابة رضوان الله عليهم ما يشير إلى خدمة الضيف؛ قال علي بن الحسين رضي الله عنه: " من تمام المروءة، خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه بنفسه وأهله"

وقد نزل الإمام الشافعي بالإمام مالك رضي الله عنهما فصب بنفسه الماء على يديه وقال: " لا يرعك ما رأيت مني ، فخدمة الضيف على المضيف فرض" وقال عبد الملك بن مروان: " أربعة لا يستحى من خدمتهم؛ الإمام والعالم والوالد والضيف".

---

[1] Le General Daumas، **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara**، Paris de L-Hachetteet Cne.1853 p85

[2] المرجع نفسه ص 20

[3] DAUMAS، Eugène: **Le Grand Désert ou Itinéraire d'une Caravane du Sahara au Pays des Nègres**،Paris، 1848،p 45

3- التمرس الحربي

جاء في كتاب "الشخصية الجزائرية، الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية " للدكتور عشراتي حول قدرة الجزائري على ممارسة الحرب، وتعلقه بفنون القتال بأن هذه الصفات هي نتاج لظروف تاريخية، أرغمته على تنمية قدراته القتالية لصد العدو الذي ما فتئ يتربص ببلاده منذ دهور بعيدة ، فيقول :"لا محالة أن التمرس الحربي لسكان القطر الجزائري، سجية ثابتة وملموسة والانتفاضات المسلحة التي واجهها الإنسان المسلم في القرنين التاسع عشر والعشرين، ليتبين بوضوح عدد الحروب المذهلة التي خاضها الجزائريون دوريا.[1]

ويواصل الدكتور عشراتي تحليله لترسخ الروح القتالية الحربية للجزائري عبر العصور وكيف أن الانتهاكات المتعددة لهذه الرقعة من إفريقيا هي التي رسمت معالم هذه الروح، لقد كشفت وقائع تاريخية قديمة وحديثة أن روح القتال لم تفارق الجزائريين بسبب تعرض وطنهم للانتهاكات المستمرة، لا لهوان الجزائريين ولكن لامتياز وطنهم بالموقع والخيرات.[2]

إن ميزة الجزائري بالقتالية ميزة عامة لدى كل أفراده على اختلاف أعراقهم ومناطق عيشهم، غير أنه يلاحظ أن سكان المناطق الجبلية الصعبة، وسكان الصحارى أكثر روح قتالية من غيرهم وأكثر حب لركوب الخطر وامتشاق صهوات المجازفة والموت. وهذا راجع لتأثير تلك البيئة القاسية على طبائعهم ويرجع الدكتور عشراتي هذه النزعة على بداوة المجتمع الجزائري فيقول مما لاشك فيه أن رسوخ هذه القتالية التي ميزتهم ولابستهم حتى أوشكت أن تكون سجية تعود – أساسا- إلى بداوتهم، وعدم توغلهم في المدينة. لقد بات ثابتا أن الانغماس في الحضارة يتولد عنه طبع اجتماعي يرقق الهمة وتغدو الجماعة به تجنح إلى السلم وأحيانا حتى على حساب الكرامة.

---

[1] د عشراتي، سليمان: **الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية**، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ص233.

[2] **المرجع نفسه**، ص233

فالبداوة – كما قرر الاجتماعيون- تغلظ الطبع وتكسبه خصائص الجفاء وتوطنه على الاحتمال والمقاومة. ولما كان حظ القطر الجزائري من البداوة ثابتا، فقد ترسخ وازع المغالبة والقتال في روح الأهالي...

ويتابع الدكتور عشراتي لذلك استمرت روح الفطرة في الإنسان الجزائري وظل على طبيعته الأولى، خاصة وأن تركيبة الأهالي المكونة من قبائل زناتة والهلاليين هم من أقحاح البدو بحكم تاريخهم ومترعهم الارتحالي الذي لم يحيدوا عنه من غابر العهود. بل لقد كانت العصبيات التي تستولي على الحكم هي بذاتها عصبيات بدوية ديدنها أن تحترف الحرب ذوذا عن حياضها، الأمر الذي تأتى معه لأهالي هذا الوطن أن يتكيفوا مع شروط الترال والمطاولة والاحتراب.[1]

إن الحروب التي خاضها الجزائريون سواء في العهد العثماني أو العهود التي سبقته ثم في فترة الاستعمار الفرنسي جعلت ظاهرة الحرب والقتال لدى الجزائري ظاهرة مألوفة فهو دائما في حالة استنفار.

وطبيعة الجزائري المقاتلة و التصاقه بالحرب له مؤشرات كثيرة في عاداته وألعابه وولعه بالصيد ،فألعاب الفروسية والبارود نابعة من هذه الترعة الحربية، يقول بيار دو لونكل في كتابه **الحياة والطبائع في الجزائر** بأن أحسن ألعاب للفروسية هي تلك التي يؤديها الفارس العربي ببنادق محشوة بالرصاص، إذ لهذه المعركة أناقة رياضة وحلاوة لعبة... أين تكون فيها الموت هو الرهان.[2]

إن شجاعة العربي في المعارك مشهود لها، وقد أثارت إعجاب الكثير من الفرنسيين، وساهمت في إنماء إحساس الاحترام والحب؛ يقول الجنرال باراي Barail في كتابه **ذكرياتي**: "إن ما دفعني إلى أن أحب العربي وما جعل رؤيتي، اليوم، لبرنوس أبيض تجذبني وتثير في نفسي

[1] المرجع السابق، ص234

[2] DELONCLE، Pierre : **La Vie et les mœurs en Algérie**. Publications du Comité Metropolitaindu Centenaire de l'Algérie. P 74

الحنين تقريبا، السبب الذي من أجله عارضت الإدانة التي زرعها النقيب ريشار وتبنتها الجهات العليا، هي أن العربي أولا وقبل كل شيء جندي لا يشق له غبار، في الحـــرب يمنحـــه ازدراؤه للموت - هذا الازدراء الذي ينبع من إيمانه العقائدي- شجاعة لا حدود لهـــا... و يضـــيف: خلق العربي لحمل السلاح، وإنها غلطتنا أننا لم نحسن استغلال تلك القدرات الثمينة التي يمكـــن أن يمنحها لقوتنا العسكرية." [1]

أما أسلوب الجزائريين في القتال والحرب فقد أثار الرهبة والخوف في نفـــوس المقـــاتلين والمعمرين على حد سواء؛ يقول دوبيجاز DOPIGEZ:

"وأسلوب الجزائريين سواء البدو منهم أو البربر أسلوب أدخل الرعب والرهبة في نفـــوس الفرنسيين، ولعل هذا الرعب هو ما جعل دوبيجاز يعلن: " يحارب البدو القبائل بطريقة رهيبة، فليس ثمة رحمة بالعدو المهزوم لديه، ومحظوظ من يقع بين أيديهم ولا يقومون إلا بقطع رأســـه فقط". [2]

وقد لعب حب الجزائري للخيل وللرياضات الممارسة في كل المناسبات والاحتفالات دورا في تدريبهم على التوازن والخفة في القتال ذلك أن الفروسية كانت أهم رياضـــة في المجتمـــع الجزائري في القرن التاسع عشر وهي تجمع بين سحر ركوب الخيل وجاذبية الصيد والحرب .

التمرس الحربي والثأر

إن الجزائري وخاصة العنصر البربري رغم سجاياه العديدة يتميز بحقده علـــى الآخـــر ، خاصة إذا تعرض إلى الإهانة في عزة نفسه أو عرضه أو أرضه؛ فلا يهدأ له بال إلى بعد أن يثـــأر

---

[1] Genéral Du Barail. **Mes Souvenirs**، Paris، Plon، 1897، Tome 1 p 407et 408

[2] DOPIGEZ: **Mémoires de l'Algérie et de la France Méridionale**، Douai ،V.Adam، Imprimeur- éditeur P 248

لنفسه ممن أهانوه أو حقروا من شأنه وقد أبرز هودا HOUDAS هذا التعلق بفكرة الثأر في دراسة إثنولوجية حول المجتمع الجزائري بقوله:

"من بين كل الأحاسيس فإن الثأر هو الأكثر تجدرا في عمق البربري، لا شيء يمكـــن أن يثنيه عن عزمه في الثأر لنفسه من الشخص الذي أهانه، فالوقت لا يخفف لديه من وطء ذكرى الإهانة التي يضحي بكل شيء من أجل إشفاء غليله. فهو في غاية القسوة ؛ وقتل رجل بالنسبة له خطيئة عرضية طفيفة، وبسبب نزاع تافه لا يتردد في قتل أخيه. وبالرغم من شجاعته فإنـــه يحاول دائما خداع عدوه ، واستعمال السم طريقة لا تختلف لديه عن البندقية".[1]ونفس هـــذه الميزة أوردها أوجين دوما س Eugene،DAUMAS في رحلته إلى الصحراء المعنونـــة: "الصحراء الكبرى أو مسار قافلة صحراوية إلى بلاد الزنج" أين روى قصة الرجل الطارقي الذي ثأر لمقتل والده بطريقة تنم عن تجذر هذه الصفة في نفوس الطوارق والمجتمع البربري عمومـــا، ولأهمية هذه القصة أوردها كاملة كما رواها المؤلف:

"خرج الشيخ بدة ومعه ثمانية من أصحابه للصيد، ممتطين صهوات جمالهم ، تتبع كلاب الصيد السلوقي، واستهوتهم بعض الطرائد فلحقوا بها ، وهكذا مرت عليهم ستة ايام وهم يهيمون السهول وشعاب الغرب، يعيشون على صيدهم، وفي إحـــدى الصباحات، تعثروا بمجموعة من الغزلان، واختار كل واحد منهم غزالـــة وأطلـــق وراءها السلوقي، لكن في الوقت ذاته كان عشرون فارسا من أيت دزداق يلاحقون هذه الغزلان، وصادف أن وجد الشيخ بدة نفسه وجها لوجه معهم، فحوصر وباغته رئيس البربر:

- **أين قطعانك؟**

[1] HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**،Paris، 1886. p 73

- **قطعاني حول خيمتي ، على مسيرة يومين.**

- **وأين رفاقك؟**

- **لا أحد معي ، إني بمفردي.**

- **أنت تكذب، أيها الكلب، ولكن العصا ستجعلك تتكلم، ترجل**

- **أنا لست كاذبا إنني هنا بمفردي. محاولا ألا يعرض رفاقه للخطر**

ثم أناخ جمله ونزل، وقال للبربري:

- **هل عرفتني؟**

- **أنت كلب من سوكمارن، وعدو لنا ، هذا كل ما أريد ان أعرفه.**

- **ما لا تعرفه هو انني لست من الذين يرضخون تحت العصا، هل سمعت بالشيخ بدة، أقتله لأنه الآن بين يديك ، ولكن لا تحاول أن نعامله كعبد من العبيد.**

- **أنت هو إذن، ذاك اللعين الذي أفقدنا خمسمة من رجالنا ببئر عريب.**

وهوى الرجل البربري على الشيخ بدة بسيفه يريد قتله ، لكن أحد رجاله أوقفه مشيرا عليه بعدم قتله، وبالتالي تجنب إثارة غضب الطوارق وانتقامهم، لكن رئيس البربر أجاب بأن أيت دزداق رجال أقوياء ولا يخافون من السوكمارن ، وهوى على الشيخ الطارقي فأرداه على الرمل قتيلا.

وبحث الرفاق عن الشيخ بدة ولم يعثروا عليه، فعادوا للخيمة ليجدوا كلبه قد سبقهم على هناك، وفي اليوم التالي خرج الجميع للبحث عنه ، ليجدوه ميتا وقد اتت الذئاب والضباع على جزء منه، ولكنهم استطاعوا التعرف عليه بلحيته البيضاء. وبواسطة آثار الجياد على الرمل واتجاههم إلى الجنوب ، عرفوا القتلة.

وبعد شهر من التقصي والبحث استطاع ابن الشيخ بدة التعرف على القاتل والمجموعة التي كانت معه، فكتب إليه رسالة جاء فيها:

"لقد التقيت منذ شهر بالسهل شيخا ذا لحية بيضاء ، لا هم له إلا الصيد، ولم يكن مسلحا للقتال والحرب، فلم قتلته؟ نحن في عرفنا من لا سلاح معه لا يجب أن يموت أو يقاتل، ولكنك نسيت أعراف جدودنا و قوانينهم. ولكني سأكون أكثر نبلا منك، وأخبرك بأنه مهما كان بطنك واسعا فسأملؤه لك بالحجر وأنت حي، لقد أقسمت."

وبعد معرفة مكان تواجد القبيلة، انطلق ابن الشيخ بدة ومعه ثلاثون فارسا، متنكرين في زي نساء البربر، وحين وصلوا إلى مشارف الخيام، أناخوا جمالهم وتفرقوا منحنين مثل النساء اللائي يجمعن الحشائش والحطب، وهم يتقدمون ببطء باتجاه خيمة القاتل، لقد كان تنكرهم جيدا ، إلى درجة أنه خرج لينهرهن ويطلب منهن الابتعاد عن خيمته، وفجأة التف الرجال حوله، وقبل أن يتفطن رجال القبيلة ، كان القاتل مكبلا فوق جمل ، لينطلقوا به باتجاه جبل مويدير. وعند وصولهم إلى المكان الذي دفن به الشيخ بدة، أنزل القاتل من على الجمل، وطرح أرضا، ثم قيد من رجليه ويديه إلى أوتاد في الأرض، ثم أشربوه ماء السيكران المغلي، هذا الشراب الذي له مفعول المخدر، ثم شقت بطنه وملأوها بالحجارة، ثم أعادوا خياطتها بإبرة تستعمل لخياطة القرب.

وأفاق الرجل من شدة الألم ليجد نفسه في تلك الحالة، فأخذ يتلوى كثعبان جريح...

عندها بادره ابن الشيخ بدة قائلا:

- لقد ملأت لك بطنك حجارة كما وعدتك، يمكنك الـذهاب الآن.. إن أردت ..

وفي اليوم التالي وجد الرجل ميتا غير بعيد من المكان الذي تـرك بـه، وقـد استطاع أن يقطع الخيط الجلدي الذي أخاطوا به بطنه، وقد اتضح ذلك من خـلال سكينه ويديه الملطخة بالدم ، وأحشاؤه التي برزت على جانبي الشق الفاغر".[1]

4- السحر (مقاربة انتروبولوجية)

تعريف السحر

جاء في موسوعة المورد أن السحر فن يدعي أصحابه القدرة على القيام بأعمال تعجز عنها القدرة البشرية العادية، وذلك من طريق الاستعانة بقوى خارقة للطبيعة أو من طريق السـيطرة على بعض القوى الخفية في الطبيعة[2]. وقد عرف البشر السحر منذ فجر التاريخ، ولجأ بعضـهم إليه للسيطرة على أفراد مجتمعاتهم وعلى القوى الطبيعية حينا، ولمعالجة المـرض وطـرد الأرواح الشريرة حينا آخر. ولا يزال بعض القبائل الإفريقية، إلى اليوم، يقيم حلقات الرقص الصـاخبة لطرد هذه الأرواح وهم يرتدون في تلك الحلقات ملابس غريبة ويضعون على وجوهم أقنعـة توقع الرعب في النفوس، في محاولة لترويع الأرواح وإكراهها على مفارقة أجساد من تلبستهم. وإنما يمتزج السحر هنا بالدين امتزاجا قويا حتى ليتعذر على المرء الفصل بينـهما عنـد تلـك الجماعات البدائية. وكثيرا ما يتخذ السحرة من الرقى والتعاويذ وسيلة لما يزعمون من إمكـان

---

[1] DAUMAS، Eugene: **Le Grand Désert ou Itinéraire d'une Caravane du Sahara au Pays des Negres**، Paris، 1848،p 148et 149 et 450

[2] موسوعة المورد الالكترونية مادة **سحر**

السيطرة على قوى الطبيعة. ومن معاني السحر أيضا فن إيهام المشاهدين بحدوث أمور غير واقعية وذلك بالاستعانة بما يدعونه (خفة اليد).

ويمكن أن يقسم السحر إلى قسمين: السحر النافع أو المفيد، وهو ذلك الذي يستخدم في المساعدة والتطبيب وغير ذلك من أغراض عامة لصالح المجتمع، والسحر الضار الذي يسمى أحيانا السحر الأسود La Magie Noire وهو الذي يقصد به إلحاق الضرر أو الموت بآخرين، أو بالمجتمع كله.[1]

السحر عبارة عن نوع من السلوك مرتبط ومعتمد على اعتقاد ما في نوع أو أنواع من القوى والطاقات فوق الطبيعية.2

الطقوس

الطقوس احتفالات فخمة موجودة في الحياة الاجتماعية أو الدينية لمجتمع ما، يقوم خلالها بممارسات منظمة، أو يلقون خطابات مسجلة من عاداتهم كالصلوات والقرابين أو الانجذابات الصوفية، والمراسيم الجنائزية. وتعتبر الطقوس إبداعا ثقافيا معقدا، مثلها مثل الفن والشعر والفكر الميثولوجي للشعب، و هي نشاط رمزي يصعب في كثير من الأحيان فهم معانيها وأبعادها، إلا بالاعتماد على دراسات إثنولوجية دقيقة حول النظام العقائدي الذي ينتمي إليه المجتمع.

وفي غالب الأحيان فإن هذه الطقوس احتفالات ذات طابع روحي او سحري، أو ديني تؤديها المجتمعات لإقامة توازن نفسي؛ فعندما تصل الخبرة الدينية المباشرة هذه إلى حالة من الشدة لدى الإنسان فإنها تستدعي القيام بـ*سلوك* ما، وذلك من أجل إعادة التوازن إلى النفس التي غيَّرتْ التجربةُ من حالتها الاعتيادية. هذا السلوك ندعوه بـ*الطقس*. والطقس هو مجموعة

[1] االميرا، اسماعيل علي: **السلالات البشرية**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص 216.

[2] االميرا، اسماعيل علي: **السلالات البشرية**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص 215.

من الإجراءات والحركات التي تأتي استجابة للتجربة الدينية الداخلية، وتهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية.[1]

وقد قسم في ثقافة الشرق القديم يمكن تقسيم الممارسات الطقسية إلى ثلاث زمر رئيسية هي:

- الطقوس السحرية،
- الطقوس الدينية الروتينية،
- والطقوس الدورية الكبرى.

إلا أنه يمكن أن نتحدث هنا عن الطقوس العابرة Rites de passage وهي تلك الطقوس المتعلقة بأحداث الهامة والأساسية في الحياة الاجتماعية مثل الميلاد والموت والزواج، وكذا الطقوس اليومية المطهرة مثل الصلاة يعود مفهوم الطقوس العابرة للإثنولوجي الفرنسي أرنولد فان غينب Arnold Van Gennep [2] الذي حلل من خلاله الطقوس المصاحبة لتغيرات إيقاع الحياة الإنسانية.

الطقوس السحرية

تقوم الطقوس السحرية على الإيمان بوجود قوة سارية في جميع مظاهر الكون. وهي قوة غفلة غير مشخَّصة، بمعنى أنها لا تصدر عن إله ما أو عن أي كائن روحاني ذي شخصية محددة وإرادة مستقلة فاعلة؛ كما أنها قوة حيادية، بمعنى أنها فوق الخير والشر بالمفهوم الأخلاقي المعتاد. ويبدو أن الاعتقاد بوجود هذه القوة السحرية هو أول شكل من أشكال الاعتقاد الديني، وأن

---

[1] السواح ، فراس: *الأسطورة والطقس*، **مجلة معابر**، دمشق ، سوريا

[2] أرنولد فان غينب Arnold Van Gennep إثنولوجي فرنسي ، صاحب نظرية الطقوس العابرة ؛ ولد بلوفيغسبرغ بألمانيا سنة 1878 من اب فرنسي وأم هولندية، درس اللسانيات العامة، اللغة العربية والمصرية القديمة، كما درس ديانات الشعوب البدائية. واللغات ؛ كان يتكلم ست لغات وهو بعد شابا. في سنة 1909 نشر " الكقوس العابرة " Rites de passage" توفي سنة 1957.

الطقوس التي نشأت من أجل التعامل مع القوة السحرية هي أول أنواع الطقوس، وتهـــدف إلى التأثير على القوة الحيادية وتوجيهها لتحقيق غايات معينة.[1]

وفي بالجزائر العميقة وصحرائها الشاسعة، نجد الكثير من هذه الطقوس التي تعكس هـــذا الإيمان بهذه القوى الخفية، والتي أوردها بعض الرحالة خلال زياراتهم خلال القرن التاسع عشر. ومن هذه القوى الخفية والتي يخشاها سكان الصحراء الجزائرية؛ قوى الجن، إذ لا يوجد في كل إفريقيا فرد مستنير أو جاهل، متعلم أو أمي لا يرد إلى الجن كل غريب يحدث فوق الأرض.[2]

وبالرغم من تغلغل الإسلام إلى أقاصي الصحراء لم يزل الطارقي مثلا، وحتى اليوم يقـــوم ببعض الطقوس السحرية؛ كما جاء في كتاب " حضارات الصحراء الذي يقول: "بقي الاعتقاد بارواح الطبيعة والجن، وبالسحر لدى الطوارق برغم الإسلام كما أخبرنا اليوناني هـــيرودوت والروماني يونبوتيوس ميلا ، فكثيرا ما يلجأ الطارقي إلى معرفة المستقبل فيجلس القرفصاء أمـــام قبور أجداده متأملا في انتظار أن يخبره الميت بالبشرى."[3]

وهذا الخوف من هذه القوى يؤثر في سلوكات الفرد والجماعة، فيتصرفون تصرفات تبدو للجاهل بمعتقداتهم غريبة، وقد أخبرنا هنري ديفيريي بأن الطارقي لا ينام تحت سقف أبدا، خوفا من أن يبقى محبوسا من طرف **الهاينن** أي الجن.[4]

وفضاءات تواجد الجن ليست الأماكن المغلقة وحدها، بل تتعدى إلى أمكنـــة أخـــرى كالمناطق المهجورة – وما أكثرها بالصحراء- وتعدى الأمر عند الطوارق إلى احتلال الجن بعض

---

[1] السواح ، فراس: *الأسطورة والطقس*، **مجلة معابر**، دمشق ، سوريا

[2] DUVEYRIER، Henri: **Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 415.

[3] GAUDIO، Attilio: **Les Civilisations du sahara**، Marabout Université، 1967. p75

[4] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 419.

الواحات الجميلة؛ أين تنساب المياه الرقراقة العذبة، بين أشجار النخيل المتدلية عراجين تمر دقلة نور؛ والأسطورة التي رواها الرحالة ديفريي عن إحدى الواحات الآهلة بالجن انعكاس صورة جلية لهذا الضرب من الاعتقادات ولأهميتها أوردها هنا كما ذكرها ديفيريي على لسان احد طوارق الآير:

عند طوارق الآير، يسكن الجن واحة مسحورة، لم يكن أحد يعرف عنها شيئا إلى غاية الحادثة التالية:

كان أحد الطوارق من هضبة تافاسفست قد أخذ جماله بعد أن ارتوت من إحدى الآبار بجانب المخيم، إلى حقول الرعي بالصحراء قرب بلدة تبو، أين تركها كالعادة، ذلك أن الجمال تعود دائما إلى البئر الذي شربت منه، عند العطش. ولكن هذه المرة طال غياب الجمال، و عند عودتها لاحظ الطارقي بأن بعرها مليء بنوى التمر.

من أين أتت إذن، ولا يوجد بالمنطقة نخيل.

مدفوعا بالفضول، تتبع الطارقي أثر الجمال، فأوصلته إلى بستان من النخيل وسط الرمال، تسقيه عدة منابع. أكل من ذلك التمر ثم ملأ زفرا وركب أحد جماله ليعود إلى محله. وكم كانت دهشته كبيرة حين في الصبح يكتشف انه ورغم سيره طول الليل، فإنه لم يبرح مكانه عند نبع تلك الواحة.

ربما هو الليل منعه من معرفة طريقه؟

وانطلق مرة أخرى ليسير النهار كله ، ليجد نفسه في المساء عند نفس النقطة. وانتبه الطارقي بأن الجن لا يريد أن يأخذ التمر، فأفرغ زفره وسار مرة أخرى ليكتشف أنه لم يتحرك، بحث في أمتعته فوج حبة تمر وعرف بأنها

سر السحر، فرماها وانطلق ليصل إلى مخيمه ويقص على الجميع مغامرتـــه في واحة الجن.[1]

ولان هذه القوى تشكل خطرا معينا في مخيلة المجتمع الصحراوي الجزائري يلجـــأ أفـــراده الذين تنتابهم هذه المخاوف إلى حماية أنفسهم وأفراد عائلاتهم إلى بعض الوصفات الســـحرية، والتي يضعون كل ثقتهم في قدرتها على صد الخطر وجلب الحـــظ واتقـــاء الضـــرر والأذى. فالطوارق يقول ديفريي يؤمنون بالسحر والسحرة ، ومقدرتهم على تحويل الإنسان إلى حيوان . وبسبب تلك المخاوف والخرافات، يلعب الحرز دورا مهما عند الطوارق في حمايتهم من كل عدا الموت، ولأن الطوارق يتطيرون ويخافون من أشياء كـــثيرة، فـــإن رؤوســـهم وأعنـــاقهم وصدورهم مليئة بالتمائم. ولا تختلف تمائم الطوارق عن تمائم كل المسلمين، فهي تتكون مـــن كيس من الجلد مزخرف نوعا ما ، تعلق في سير جلدي هو الآخر لتشمل عقدا.

وهناك نوعان متميزان من التمائم؛ تلك التي تمنح حاملها كل الخير الذي يتمناه، وتلـــك التي تبعد عن حاملها كل الأخطار والشرور التي يخافها"[2]

أشكال الوقاية من السحر عند المجتمع الصحراوي

إن الوصفات السحرية عديدة ومختلفة منها الشفوي ومنها المكتـــوب ومـــن الوصـــفات المكتوبة التميمة أو ما يسميه سكان الجزائر بالحرز والجدول وهما عبارة عن طلسم يكتبه أحـــد المرابطين أو الطُّلبة فما هو الحرز وما هو الجدول وما هي وظيفتهما ؟

يصف فيكتور لارجو الحرز فيقول:

---

[1] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 417.

[2] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 419.

الحرز أو الطلسم هو ورقة وسخة يكتب عليها المرابط بعض الآيات القرآنية او العبـــارات السحرية؛ قطعة الورق هذه تطوى بعناية وتوضع بداخل كيس جلدي صغير، تعلق في العنـــق و يمسح بها على موضع المرض عند الحاجة. كما يقي الحرز من العين الشريرة والسحر.[1]

أما الجدول فطريقة أخرى يلجا إليها السحرة وهو عبارة عن رسم هندسي، وعليه رموز أو أرقام أو أسماء الجن أو أسماء النجوم. والجدول عادة ما يأخذ شكل المربع، غير أنـــه توجـــد جداول مثلثية أو دائرية.وللساحر كتاب يعتمد عليه لإيجاد الأجوبة عن طريق حسابات معقدة، ويكون الرقم الأخير هو الدال على اسم الجن الذي يمكن أن يأتيه بالحل للمشكلة المطروحـــة، شريطة تقديم حيوان صغير **كقربان.** [2]

ويتضمن الجدول الكثير من الأسماء والرموز

-السبع خواتم

-الحروف ذات المنظار

-الأسماء السحرية: وهي تلك الأسماء التي كانت مكتوبة على عصا النبي موسى[3] ، أو على حذاء سليمان، أو جبة يوسف، أو الأسماء التي كان سيدنا عيســى عليــه السلام يحيي بها الموتى وغيرها. انظر الأسماء المكتوبة على عصا موسى كمــا أوردهــا البوني. **ê**

[1] LARGEAU، Victor، **Le Sahara Algérien_**. Paris، Librairie Hachette et Cie، 1881 p82et 83

[2] DOUTTÉ، Edmond: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، p143

[3] انظر نموذج رفم 1

ê هو أحمد بن علي بن يوسف، تقي الدين أبو العباس البوني المتوفي سنة 622 هــ - 1225 م، من أشهر المصنفين العرب في العلوم الخفية، من أهل بونة عنابة ، رحل إلى المشرقواستقر بالقاهرة إلى أن توفي له: "أسرار الحروفوالكلمات" و"إظهار الرموز وإبداء الكنوز" و "بحر الوقووف في علم الأوقاف والحروف" و" وموضح الطريق وقسطاس التحقيق من مشكاة أسمى الله الحسنىوالتقرب بها إلى المقام الأسنى" و"سوابغ النعم وسوابقالكرم"و" شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف" الذي أخذ منه إدومند دوثي هذا الجدول، وغيرها من المصنفات .

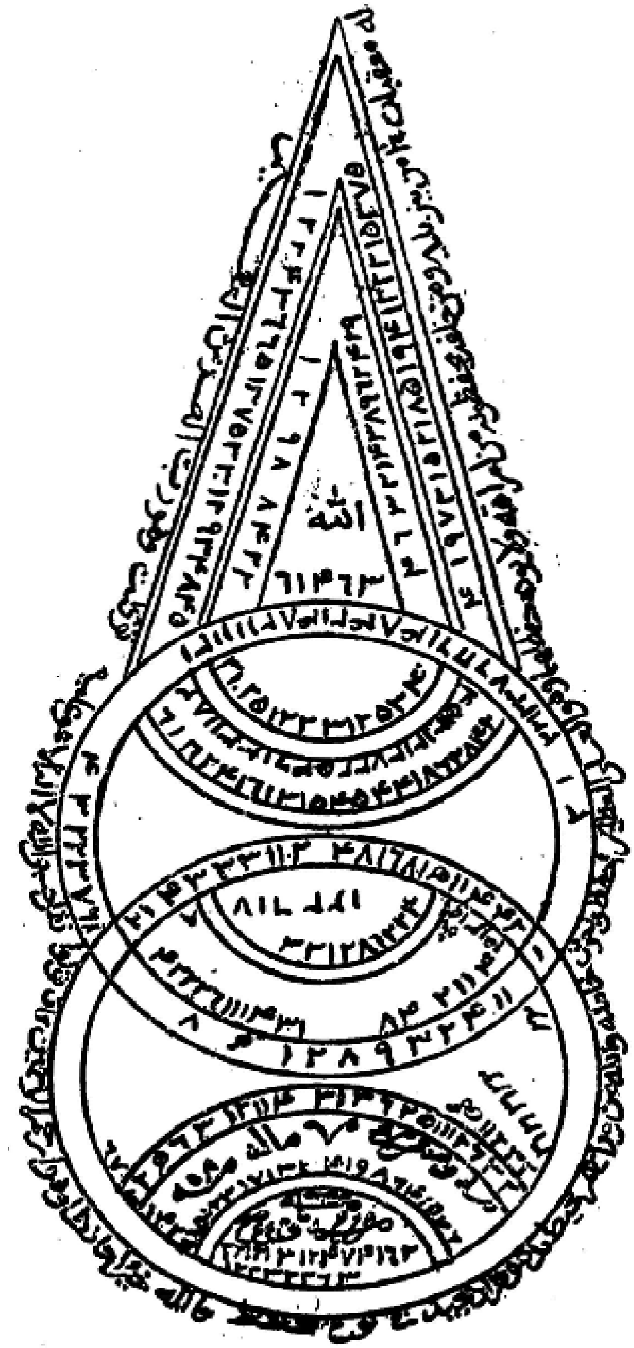
-أسماء أيام الأسبوع

-أسماء الكواكب، أسماء العناصر كالبرد والحر والرطوبة

-أسماء الجن والملائكة

-أسماء الله الحسنى

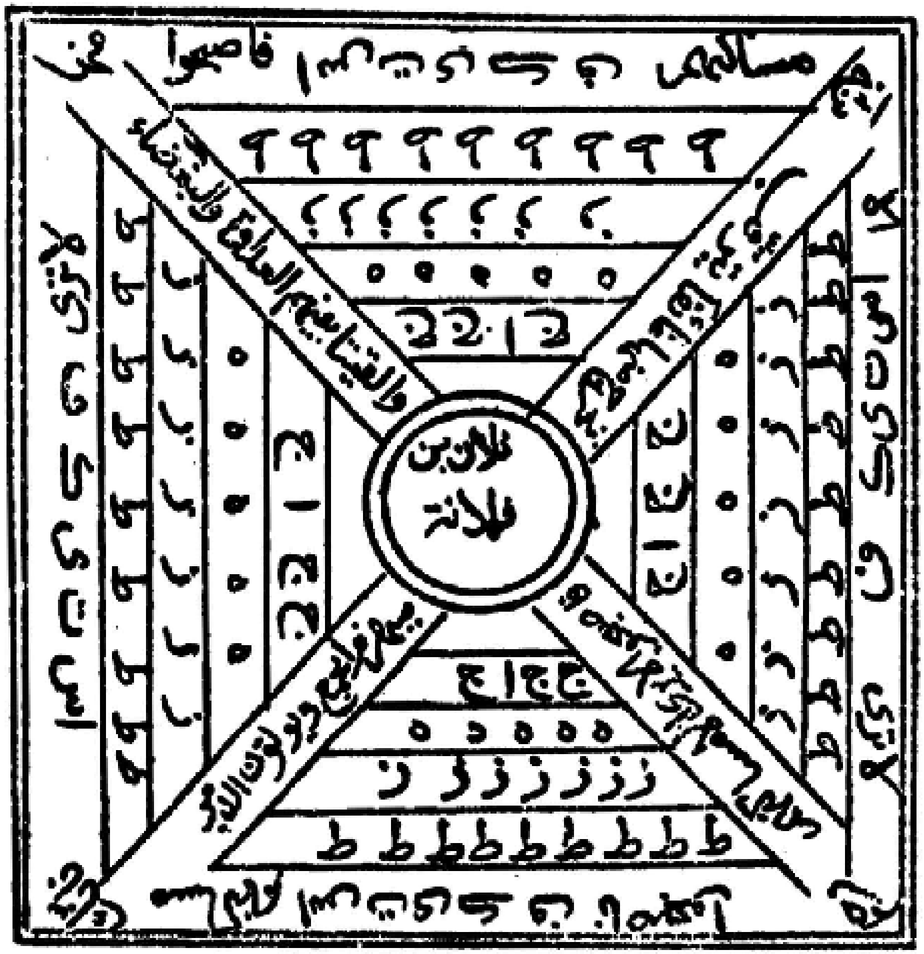
-الآيات القرآنية



نموذج رقم (01) عصا موسى

وعلى الرغم من أن التمائم نهى عليها الإسلام حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "من علق تميمة، فلا أتم الله له" غير أنها منتشرة بأوساط المجتمع الجزائري بجميع فئاته ، ولكل حالة تميمتها الخاصة فهناك ما يوصف للحماية من وساوس الشيطان، حيث يكتب في الوسط اسم المعني فلان بن فلانة[1]، وفي الخطوط القطرية بعض الآيات القرآنية، والباقي أحرف ليس لها معنى واضحا.

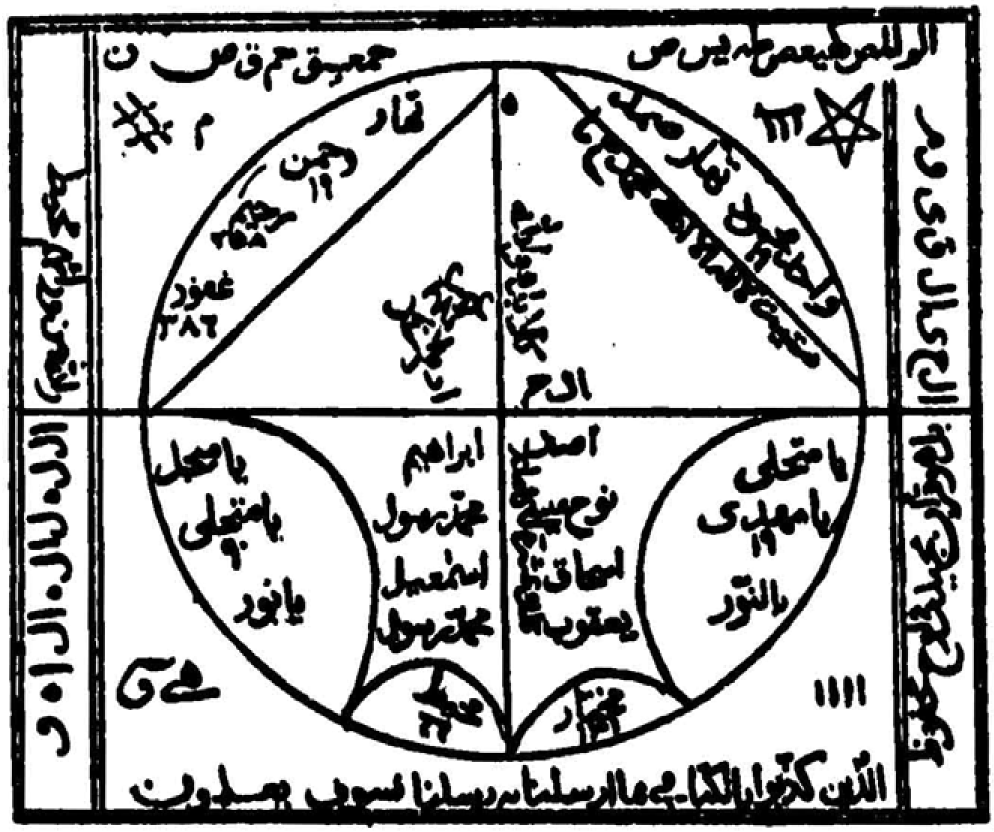
[1] الملاحظ أن كلما تعلق الامر بالسحر يكتب اسم المعني واسم الام لا الاب ، ويشرح إدموند دوثي هذا بالقول بانه ربما هي ذكرى عهد بدائي كان الرجل ينسب إلى امه.



نموذج رقم(2): جدول للحماية من وساوس الشيطان

وهناك أيضا من بين التمائم أو الطلاسم الشهيرة بالجزائر وشمال إفريقيا تميمة **الدائرة المحيطة** والمعروفة أيضا كما يقول البوني تحت اسم "الدر المنظم" وهي عبارة عن آيات قرآنية على هوامش التميمة الأربعة إضافة إلى أسماء الله ، أسماء الأنبياء، أسماء السبع خواتم ، ولهذه التميمة تأثير عجيب وتختلف تأثيراتها بحس الحبر الذي تكتب به والمادة التي تكتب عليها والطريق التي تحمل بها والوقت الذي تهيأ فيه، وهي تحمي صاحبها من عدة أخطار وأضرار كما

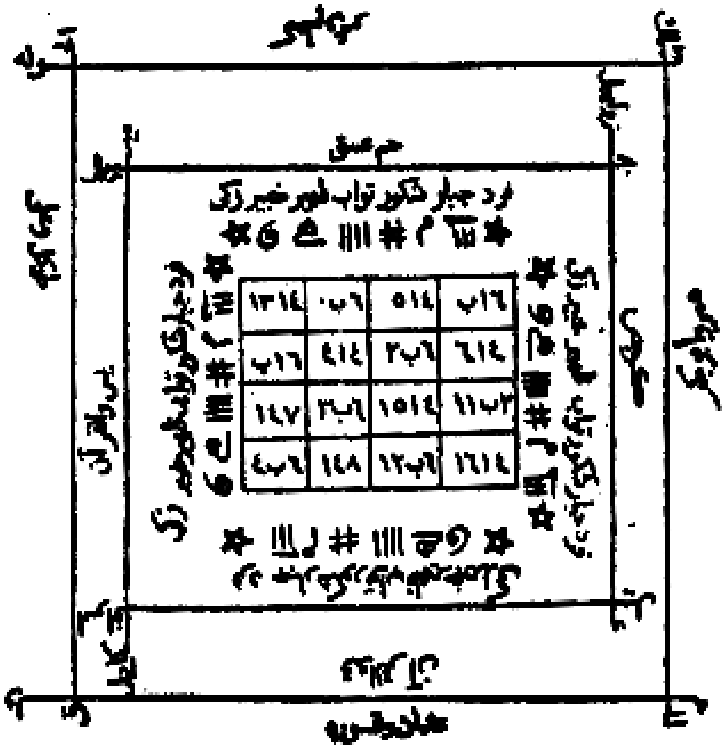
تجلب له الكثير من المنافع. فكتابتها مثلا على صفيحة من الفضة بحبر ذهبي تؤمن لحاملها استقبالا حسنا وتعطيه قبولا عند كل الخلائق.



نموذج (3): طلسم الدر المنظم

ولا بأس أن أعطي هنا نموذجا آخر لهذه الطلاسم الكثيرة والخاص بزرع العشق في قلب المعشوق فيحول صاحب القلب الخالي إلى عاشق متيم ؛ يجب كتابته في الرابع والعشرين من الشهر وتعليقه في الهواء بشعرة الشخص الذي نرغب في إخضاعه لتأثير الطلسم؛ أو كتابته في أول الشهر بماء الزهر والزعفران، ثم نضرب به صدر الشخص المراد إدخاله عوالم العشق الجنوني، ثم وضعه في الذراع اليمنى. في وسط الحرز مربعات من الأرقام والحروف التي لا معنى

لها ظاهريا، وفي كل زاوية من زوايا المربعات تكتب السبع خواتم، وستة من أسماء الله الحسنى ويحاط الكل بمربع تكتب عليه أسماء الملائكة؛ جبريل ، ميكائيل، عزرائيل و إسرافيل.[1]



نموذج رقم (4): طلسم العشق

الرموز السحرية المرئية

إذا كان الحرز عبارة عن تعزيمة مكتوبة فإنه هناك أشكال أخرى من محاربة القوى الخفية وهي أشكال تعتمد على الصورة والأشكال والرموز كرمز تدرا الضرر ومن هذه الوسائل المنتشرة ليس فقط عند المجتمع الصحراوي ولكن في كل مناطق الجزائر على اختلاف بيئاتها

[1] DOUTTÉ، Edmond**: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، 164

وعناصر سكانها نجد الخمسة أو يد فاطمة، ومن خلال تسميتها يتجلى ارتباطها بالدين ففاطمة هي فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتعود هذه التسمية على الحادثة التي خلالها رفع الرسول عليه الصلاة والسلام يد فاطمة أمام أصحابه ليقول لهم بأن يظلوا متحدين كأصابع هذه اليد. ثم اعتمدت لطرد الشر والعين كما يعبر عنها سكان الجنوب.

يقول دوثي عن رمز الخمسة بأن السحر طقس شفوي، أي أن العملية السحرية ألأولى يرد عليها بطقس صوتي آخر، غير أنه يمكن أن يقابل عوض الحركة أو القول بطريقة أخرى؛ فهناك التعزيمة المكتوبة ، كما يمكن أن يعبر عنها بالصورة

وهكذا فالعين الشريرة يمكن أن تبعد بحركة اليد ممدودة إلى الأمام بأصابعها الخمسة مفتوحة. وعوض أن نقوم بهذه الحركة يمكن أن نمثلها مثلا في شكل يد فضية تحمل معلقة كما هو الحال بالنسبة للخمسة الجزائرية.[1]

وزيادة على الخمسة توجد رموز كثيرة أخرى لطرد العين مثل السمكة التي ترسم على أبواب المنازل كما يعتبر القرن وسيلة دفاع، وبالسحر المحاكي يعتبر واق من العين الشريرة: في الصحراء يوضع القرن وأحيانا الجمجمة كلها بمداخل المنازل

سحر التلقيح

نظرية الإلقاح أو التطعيم ومفادها أن بعض الشعوب البدائية تعتقد أنه إذا ما أدخلت مادة الكائن الضار بجسمك أو أن يحدث اتصال به مباشرة أو بصورته، فيغدو جزء لا يتجزأ من ذلك الكائن وبالتالي يكتسب مناعة ضد أخطاره. فمثلا الزولو الذي يريد أن يعبر نهرا مليئا

---

[1] DOUTTÉ، Edmond **: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، p143

بالتماسيح، يقوم بمضغ فضلات الحيوان، و حك جسمه بها... وفي كل شمال إفريقيا تعالج لذعة العقرب، بسحق العقرب على الجرح.[1]

ويلجأ المجتمع الصحراوي بالجنوب الجزائري إلى انتهاج نفس الطريقة في عـــلاج مـــرض الكلب فقد جاء في كتاب الصحراء الجزائرية لصاحبه فيكتور لارجو Victor Largeau أنه إذا عض العربي كلب ، يمسك به ويترع بعضا من شعره ويضعه على مكان العضة، أمـــا إذا شك بأن الكلب مصاب بداء الكلب فيلجأ إلى قتله، يفتح بطنه ليخرج قلبه ثم يشويه ليأكلـــه فيما بعد.[2]

الديانة والسحر والفنون

كثيرا ما يلتقي السحر بالدين غير انه كما يقول الميرا إسماعيل علي ليس من الضروري أن يكون السحر مرتبط بالدين، ولكن الكثير من الحالات توضح ارتباطا وثيقا به .[3] و ينعكس هذا الارتباط من خلال أشكال عديدة لدى كل المجتمعات الإنسانية يضيف ألميرا :" توجد الديانة والسحر والفنون بأشكال ومفاهيم مختلفة عند كل المجتمعات مهما كانـــت بســـيطة أو غـــير منطقية. لكن هذه الموضوعات لم تحظ بدراسة موضوعية بالقدر الكـــافي، وخاصـــة الديانـــة والسحر، وذلك نتيجة لهيب جوهري هو صعوبة فهم ونقل المعاني التي تعبر عنها المفاهيم المجردة من لغة إلى مجتمع وإلى لغة الباحثين من الإثنولوجيين.ومن ثم تظهر الأفكار الدينية والميثولوجيـــة في كثير من المونوغرافات غير منطقية أو مليئة بالكثير من الجزئيات دون الشمول، مما يؤدي إلى ظهورها في صور متناقضة. ولكن هذه أيضا سمة من سمات القطاع الفكـــري والرمـــزي مـــن

---

[1] DOUTTÉ، Edmond**: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، p 145

[2] LARGEAU، Victor، **Le Sahara Algérien**_. Paris، Librairie Hachette et Cie، 1881 p 80

[3] الميرا، اسماعيل علي: **السلالات البشرية**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص 215

الحضارات. فمن الصعب على غير من تعايش مع المجتمع منذ نعومة أظفاره أن يـــدرك إدراكـــا كليا مشتملات الدين وطقوسه ومعتقدات السحر والعبادة.[1]

ومن هذه الأفكار الموجودة عند الشعوب فكرة الاستحياء.

الاستحياء

الاستحياء Animisme هذه الفكرة وجدت قبل قرن، بدا بدراستها وبلورتهـــا ادوارد تايلور[ê] Edward Burnett Tylor، وفحواها الاعتقاد بوجود كينونة غير مفهومة وغير محسوسة أو كائنات غير مادية قد تكون أرواحا أو أشباحا أو عفاريت للسلف أو الحيـــوان أو النبات أو أي شيء من الجماد المحيط (نهر، بحيرة، جبل...الخ). وأصل هذا الاعتقـــاد مختلــف ولكن لعله راجع إلى عدد من الظواهر المادية غير المفهومة ، كالرؤى والأحلام والهلوسة المؤقتة الناجمة عن تأثيرات مختلفة الأسباب. وهذه تأول على أنها أحداث روحية قادمة من عالم غـــير عالمنا المحسوس.

كذلك قد يستحيي البدائي في عقله أرواحا للمستنقع أو النهر نتيجة انعكاسات أضـــواء غامضة(قد يكون مصدرها أنواعا من الأسماك أو الغازات المتصاعدة). أو عفاريت للمـــوتى في

[1] الميرا، اسماعيل علي: **السلالات البشرية**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص ص 206 و 207.

[ê] إدوارد بارنت تايلورTylor ،sir Edward Burnett (1832-1917 : أنتروبولوجي بريطاني ، بدا اهتمامه بالانتروبولوجيا سنة 1856 حين رافق الاثنولوجي البريطاني هنري كريستي في بعثة علمية إلى المكسيك، ومن نتائج هذه البعثة كتابه أنيهـــانوك أو المكســـيك والمكسيكيون سنة 1861، شغل منصب الأستاذ الاول للأثروبولوجيا بجامعة أوكسفورد من 1896 إلى غاية 1909، وكانت دراساته حول الاستحياء وتعريف الثقافة أولى الإسهامات الحقيقية في مجال الأنتروبولوجيا. ومن أهـــم مؤلفاتـــه: دراســـات في تـــاريخ الإنســـانية القـــديم Researches into the Early: History of Mankind (« Études sur l'histoire ancienne de l'humanité ».، الحضـــارة البدائيـــةPrimitive Culture (la Civilisation primitive ، (1865 (1871 وأثروبولوجيا(Anthropology (1881

صورة أشباح تتراقص عند القبور. وهي عادة عبارة عن غازات متصاعدة ناجمة عن تحلل جثث الموتى أو أرواحا للجبال والوديان نتيجة تردد الصدى.[1]

وفي المجتمع الطارقي طقوس تعكس فكرة الاستحياء، فكثيرا مـــا يقومـــون باستحضـــار الأرواح لمعرفة الغيب وقد أورد هنري ديفيريي خلال رحلته إلى بلاد الطوارق هذا الطقس الذي تلجا إليه المرأة الطارقية عندما تريد معرفة أخبار عن زوجها أو أحد أفراد عائلتها الذي طالت غيبته في إحدى الغارات أو في إحدى سفرات التجارة فيقول: " كثيرا ما يسافر الطوارق سواء من اجل التجارة أو الغزوات لمدة قد تطول، وفي فترة غيابهم الطويل تنقطـــع الأخبـــار عـــن عائلاتهم، فتعمد النساء إلى الاتصال بمن اشتقن إليهم؛ فيتزين بأحسن ما لديهن من لباس وحلي ومجوهرات، ويذهبن إلى المقبرة، يتمددن فوق قبور الأجداد، ويستحضرن روح من تـــأتي لهـــن بالأخبار. واستجابة لندائهن" **إدبني** " تتمثل لهن روح في شكل إنسان،فإذا ما أعجبت الروح " إدبدني" بالمستحضرة، يقص عليها كل ما حدث في الرحلة ، أما إذا حدث العكس فتعمد تلك الروح إلى خنق المرأة. ولأن النساء يعرفن جيدا شروط "إدبني وطلباته، فكثيرا ما يعدن بأخبـــار يقال أنها تتوافق مع الحقائق التي يرويها ويؤكدها المسافرون عند عودتهم.[2]

كما أورد دوثي نقلا عن تروملت فكرة استحضار الأرواح لمعرفة مرتكب الجريمة، الذي لم يعرف ، ويبقى يتعذب ويطالب بالثأر بإصدار أصوات وكلمات تســـمى بـــالترع ؛ ففـــي الصحراء حسب تروملت فإن كلمة الترع تحيل إلى المكان الذي وقعت فيه جريمة قتل ويعطيها معنى أنين الشكوى. وهي شكوى دم الميت الذي يطالب بالثأر؛ ولنستمع إلى تروملت وهـــو يقص حادثة الترع ومعرفة القاتل لإنطاق الدم: " يتوجه أقرباء الضحية إلى مكان الجريمة، ويأتون بدم القتيل، مع قطعة الأرض الملتصق بها إلى الكوخ أو الخيمة. مباشرة بعد ذلك يستدعى طالب عزّام، ويطلبون منه إنطاق الدم ... وينتظر كل أفراد الأسرة بفارغ الصـــبر وهـــم يشـــاهدون

---

[1] الميرا، اسماعيل علي: **السلالات البشرية**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص ص 208 و 209.

[2] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 415

.

العمليات التي يقوم بها العزام، حيث يضع هذا الأخير الدم في إناء ويضع الإناء على النـــار؛ ثم يشرع في المجيء والرواح وسط الجمع، ناطقا بكلمات بلغة غير معروفة، ليتوقف أحيانا ويرسم رموزا غريبة على ورقة بحبر خاص، من مكوناته المسك والزعفران. وما يلبث الدم أن يغلـــي ، فيقترب "الطالب" من الإناء ويصرخ ثلاثا: ما اسم قاتلك؟ وفي المرة الثالثة يجيب الدم : فـــلان بن فلان، ولأن هذا الجواب لا يفهمه إلا العزام فإنه يخبر العائلة باسم القاتل. يغادر "الطالـــب" بعد تسلم أجرته، والمقدرة بخمسة عشرة أو عشرين دورو حسب إمكانيات العائلـــة الماديـــة. وحين يعلم القاتل بالأمر ، ولا يمكنه دفع الدية " ثمن الدم" يغادر البلدة بلا رجعة ويبقى الثـــأر عالقا، ولهذا، تعيد الضحية الكلمات التي نطقتها أثناء الجريمة، وتسمع كلمات مثل : " يا بابا! يا يما! "... وغيرها في مكان الجريمة وساعة حدوثها، فيلجأ أهل القتيل إلى وضع حجر في مكان الجريمة، كلما مروا من هناك"[1]

ولتفسير هذه الطقوس يقول إدموند بودي أنه يجب أن نعود إلى الإثنوغرافيا واعتمادا على هذه الدراسات الإثنوغرافية، يمكن معرفة مصدر هذا الطقس الموجود بالصحراء؛ فهنـــاك عنـــد بعض الشعوب البدائية فكرة رمي أو ركم الحجر، فقد شاهد الرحالة في العديد من البلـــدان أن هذه الشعوب، وعند وصولها إلى قمة مرتفع ، يقومون بحك أغصان الأشجار أو الحجر علـــى أجسادهم ثم يرمونها على ركام بجانب الطريق وحول سؤالهم عن السبب يجيبون بأنهم يزيلـــون التعب ويحولونه إلى ركام الحجر، وبهذه الحركة فإنهم لا يزيلون تعب الجسد فقط وإنما تعـــب الروح ، والمخاوف التي ساورتهم أثناء الرحلة؛ وهم بذلك يبعدون ثقل القلق والخوف؛ الخوف من اللصوص ، الخوف من المجهول ، ولكل الانفعالات الكئيبة التي ترافق المسافر.

أما بالنسبة لمكان الجريمة فإن رمي الحجارة، هي بمثابة إبعاد للموت، وإرساله إلى المكـــان الملطخ بالدم.[2]

---

[1] نقلا عن DOUTTE، Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، typographie Adolphe Jourdain، Alger، 1909. p12 et 13.
Trumelet، **Français dans le désert**، 2e éd.، 1885. p. 88.

[2] DOUTTE، Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، typographie Adolphe Jourdain، Alger، 1909. p425 et 426

5- الموت

يختلف تعريف الموت حسب ثقافة الشعوب، وعند المجتمعات العربية الإسلامية، الموت هو مفارقة الروح للجسد، لتعود إلى بارئها، يا أيها النفس المطمئنة عودي إلى ربك، راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

وهكذا فالموت بالنسبة للمجتمع الصحراوي الجزائري ، رحلة أخرى إلى حياة أخرى، فالموت لا يرتبط بالفناء، بل وربما ارتبط بالراحة الأبدية، والتخلص النهائي من حياة الفقر والشقاء؛ وللموت منظومة من العلامات المرافقة له، واللصيقة بطقوسه؛ يمكن من خلال هذه المنظومة التعرف على طبيعة الشعوب، واعتقاداتها، إذ أن هذه العلامات هي التي تكشف صورة الموت عند المجتمع، وتعمل على تفسير معانيه وأبعاده الروحية والثقافية والاجتماعية، ومن هذه العلامات، القبر، والشاهد والجنازة.

و القبر هو مدفن الإنسان. ، قد يكون بسيطا دارسا (أي مستويا مع الأرض) وقد يكون فخما مشيدا من حجارة أو رخام أو غير ذلك ويعرف في هذه الحال ب- (الضريح) ولقد كان الميت يدفن، في كثير من الحضارات البدائية في أرض المترل؛ ثم عرفت من بعد ذلك المقابر أو المدافن. وكثيرا ما كان الموتى يدفنون، في القرون الوسطى، في الكنائس والأديرة وفي جوار بيوت العبادة. وفي العصور القديمة كانت أضرحة الملوك تزود بالملابس والآنية، وضروب الأثاث، وبكل ما يحتاج إليه الميت من طعام وشراب عندما يبعث حيا. ليس هذا فحسب، بل لقد كان خدم بعض الملوك يقتلون ويدفنون مع أسيادهم لكي يكون في ميسورهم الاستمرار في خدمة هؤلاء الأسياد في قبورهم ذاتها. ومع الأيام حلت التماثيل والصور محل الخدم الآدميين في أداء هذه المهمة وهو العرف الذي نجده متبعا في معظم القبور المصرية القديمة. وأيا ما كان،

فأهرام الجيزة لا تعدو أن تكون قبورا لملوك المصريين القدامى وأنها عدت إحدى عجائب الدنيا السبع .ومن أضخم الأضرحة، في التاريخ [ê] .

أما المقبرة فهي عادة أرض مخصصة لدفن الأموات. عرفت المقابر منذ العصـــر الحجـــري القديم، ولكنها لم تشع وتنتشر على نطاق عريض حتى العصر الحجري الحـــديث. والواقـــع أن أصحاب الحضارات القديمة، في مصر وبلاد الرافدين وبحر إيجه، عنوا بإقامة المقابر عناية بالغـــة. ومن أشهر الأمثال على ذلك (وادي قبور الملوك) في مصر. وكان اليهود وقدامى النصارى، في روما وغيرها، يدفنون موتاهم في مقابر تحت الأرض معروفة ب (سراديب المـــوتى)، ولكنـــهم سرعان ما أخذوا يدفنون موتاهم في أجداث بارزة فوق سطح الأرض. وكذلك عني المسلمون منذ عهد الفتوح الأولى، بإقامة المقابر لشهدائهم وموتاهم. وإنما تتميز المدافن الإسلامية، إلا في القليل النادر، ببساطتها الأشد إيقاعا للخشوع في النفس، والأدعى إلى التفكير والتدبر في حقيقة الحياة والموت.

يصف فرومونتان القبور العربية فيقول: "قبور العرب بسيطة جدا، حتى قبور الأثرياء، إنها تتشابه جميعها، وهذا ذوق رفيع من الناحية الفلسفية. هي كتلة من البناء، ذات شكل مستطيل، قليلة الارتفاع عن السطح تحمل على كلتي جانبيها إما عمة منقوشة دونما إتقان على حاضـــن صغير للبناء التذكاري، ويذكرنا إلى حد كبير بنبات الفطر الراقد على ساقه، وإما قطعـــة مـــن لوحة مثلثية الشكل توضع قائمة على طراز سكان أوروبا الجنوبية، وتكون البلاطة من الحجر أو الرخام يدون عليها بعض النقوش العربية: اسم الميت وبعض الآيات القرآنية. أحيانا تنحت هذه البلاطة على شكل حوض سقاية وتملأ بالتراب. و بالتالي ينبت عليهـــا قليـــل مـــن العشـــب المخضوضر وبعض الأزهار، التي إما زرعت خصيصا وإما حملت الرياح بذورها. أحيانا أيضـــا

[ê] وقد عد من عجائب الدنيا السبع أيضا، الموسوليوم في آسيا الصغرى، ومنها أيضا (تاج محل) في الهند.

يمكن أن يحفر على جانبي الصخرة ثقبان صغيران على شكل قدح أو فنجان، أين تملأ الأمطار هذه الثقوب لتشكل مخزن ماء".

وحسب عادة من عادات سكان المغرب العربي يحفر جون صغير في وسط الصخرة باستخدام المقص. تتجمع مياه الأمطار في هذه الكأس الجنائزية، لتكون مصدرا مائيا ترتوي منه طيور السماء في أيام الحر الشديد."[1]

وإضافة إلى هذه البساطة التي يؤكدها الرحالة في مشاهداتهم فإن المقابر تتواجد خارج المدن أو على حواشيها؛ كل المدن العربية تقريبا، وخاصة مدن الجنوب تتقدمها المقابر ، وهي عادة فضاءات فارغة، أين يمكن أن نلاحظ، عددا من الأحجار مرتبة ترتيبا معينا لا غير، وأين يمر عليها الكل دون أدنى اهتمام، كما يمرون وسط طريق.[2]

ويتعجب الكاتب ليون ايرفوشت من هذه البساطة وهذا الاهتمام الواضح بالمقابر في المجتمع الجزائري، مقارنا بينه وبين شعوب أخرى أولت مقابرها وأضرحتها أهمية بالغة، كالفراعنة في مصر، فيقول مستنكرا:" ما تقول في شعب بلا شعور، يدفن موتاه على عجل ويتركهم دون أدنى اكتراث على حافة طريق؟ ربوة من الرمل على طرفين الذي منهما تنتصب آجرة من الطين، أو قطعة من الحجر. لا صليب، لا إكليل ، لا ورود. لا سياج. قبور منسية على الرمل يقتلعها النسيم. لا اسم ، لا تاريخ، كل شيء مجهول بها .

إن المقبرة العربية تشبه بالأحرى آخر أطلال قرية منهارة متهدمة على مسكن يرقد فيه الرقدة الأبدية من بالأمس فقط، كانوا لنا الآباء والأمهات والأصدقاء والإخوة."[3]

---

[1] FROMENTIN، Eugenne: **Une Année dans le Sahel**، Paris، Plon edition. 1925، p 265

[2] FROMENTIN، Eugenne: **Sahara et Sahel**، Paris، Plon edition. 1886، p 73

[3] Van Aerschodt، Léon: **Au Maghreb Impressions d'Algerie**، Bruxelles، 1910، p 62 et 63

والملاحظ هنا أن الرحالة ليون فن ايرشودت Léon Van Aerschodt، يجهل النظم العقائدية التي تتحكم في الطقوس الجنائزية عند المسلمين، فالتعجيل والهرولة أثناء سير الجنازة باتجاه المقبرة ، ليس من اجل التخلص من هذا الميت، وعدم الاحترام لروحه ولذكراه ، وإنما العكس تماما ، فسر العجلة هو تقدير للميت وإكرام له؛ وفي الإسلام إكرام الميت ، التعجيل بدفنه؛ إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف : " أسرعوا بالجنائز ، فإن تكن صالحة فخير تقدموها إليه، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم ".[1]

وتقارن الكاتبة لويس ريجيس بين المقابر العربية الإسلامية وبين المقابر المسيحية؛ لتبرز الفرق بينهما والمتمثل خاصة في انغلاق المقابر المسيحية على موتاها وعلى نفسها، الانغلاق الذي من شأنه أن يكسر ذلك التواصل بين الأحياء وبين الأموات، على عكس المقابر الإسلامية المنفتحة على الآفاق، دون سياج، ولا أسوار عالية تشبه السجن الأبدي لأولئك الذين كانوا بالأمس بيننا، وهذا الانفتاح هو ما يضفي على المقابر العربية سحرا خاصا يهب رؤية منظورية للمقبرة، هذه الروية التي تمنح بدورها اتصالا مباشرا مع الموتى، وهذا ما يفتح نافذة للذكرى، وبابا للتواصل الروحي معهم، فتقول:" للمقابر العربية سحر سوداوي لا يوجد في مقابرنا المسيحية ، و يرجع هذا بلا شك إلى كونها غير مسيجة بأسوار عالية كئيبة. وأنت تتجول و من غير أن تبحث عنها، تجد نفسك في اتصال مع ذكرى الأموات.[2]

و من العلامات الجنائزية غسل الميت والبكاء عليه فعند وفاة شخص ما، تبكي عليه النساء من أقارب وأصدقاء الفقيد وهن يصحن : يا للمصيبة ! يا للمصيبة! وهناك من منهن يندبن وجوههن وصدورهن بالأظافر. أحد أصدقاء الفقيد يذهب لإحضار الكفن المصنوع من الكتان الأبيض والذي سيليف به جسد الميت بعد غسله [3].

[1] البخاري وسلم : حديث متفق عليه

[2] RÉGIS، Louis : **Constantine Voyages et Séjours**، Paris، Calmann Lévy، Éditeur، 1880، p38

[3] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 123

وتشير السيدة لويس ريجيس Louis ،RÉGIS بأن العرب قد حافظوا في المراسيم الجنائزية، على بعض العادات القديمة، التي نجدها عند اليهود، وعند اليونان القدامى، وهي عادة الباكيات؛ وهن نسوة يقمن بالبكاء على الميت .[1]

ومن العادات في غسل الميت بالصحراء أنه يغسل بماء السدر؛ إذ يجنون أوراق هذه الشجرة ويغلونها لاستخلاص ماء يغسل به جسد الميت،[2] وذلك تيمنا بدخول الجنة، إذ أن أصحاب اليمين هم أولئك الذين يتنعمون في فردوس النعيم وسط أشجار السدر. يقول الله سبحانه وتعالى: "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود، وطلح منضود، وماء مسكوب وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة"[3].

أما الجنازة فهي من المراسيم التي تؤدى أثناء دفن الميت ، وإيصاله إلى مثواه الأخير؛ تصف لويس ريجيس سير الجنازة ومراحلها والطقوس المرافقة للدفن من طريقة حمل الميت إلى قراءة القرآن أثناء وخلال التوجه إلى المقبرة فتقول: "شاهدت جمهرة من الناس ، وهم يلتفون حول محمل، مرفوع على أكتاف أربعة رجال، كان الجمع يسير ، وهو ينشدون، وبين حين وآخر يصمتون لإعطاء الفرصة للإمام لترتيل بعض الآيات القرآنية. كان جسد الميت مستورا بزربية خضراء وحمراء؛ الألوان الدينية في هذا البلد. يسير أصدقاء الميت وأهله في خلف الموكب وعلى جانبيه، وحين تمر الجنازة على مكان ما، يترك التجار حوانيتهم لينضموا إلى الموكب، في صمت مهيب، ويتبادلون على رفع المحمل، في حركات منظمة سريعة، دون خلخلة المحمل. إن هذا الاحترام للميت، دون معرفته، يهز مشاعر النفس. فالعرب يقدسون الميت إلى درجة كبيرة،

---

[1] RÉGIS، Louis : **Constantine Voyages et Séjours**، Paris، Calmann Lévy، Éditeur، 1880، p 34

[2] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 123

[3] القرآن الكريم، **سورة الواقعة** الآيات من 28 إلى 34

حيث يسمحون حتى للنساء بالخروج من البيت والذهاب إلى المقبرة ، يوم الجمعة لزيارة الموتى، والدعاء لهم.[1]

أما بالنسبة لقبائل الطوارق فإن طقوس الموت والدفن، لا تختلف كثيرا عن الطقوس العربية الإسلامية؛ إذ تتم مراسيم الدفن حسب التعاليم الإسلامية؛ من تغسيل للميت بالماء الساخن، و تكفينه بكفن جديد، غير أنه لا يبكي الطوارق موتاهم، ويتفادون ذكر اسم الميت، وكل ما يحيل إليه، إذ وبمجرد الانتهاء من المراسيم الجنائزية يعمد الطوارق إلى الرحيل وتغيير مكان الإقامة، وحتى تندثر ذكرى الميت، فإنهم لا ينادون أبناءه باسم والدهم ؛ بقولهم فلان بن فلان. ويرجع الرحالة ديفيريي فكرة العمل من أجل نسيان الميت عند الطوارق إلى الخوف من عودة الأرواح، والأشباح، خوف يستدعي تجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى استحضارهم.[2]

6 - الدعارة

من المظاهر السلبية التي انتشرت في القرن التاسع عشر وسط المجتمع الصحراوي الجزائري ظاهرة الدعارة ، التي لم تخلو رحلة من الرحلات التي قام بها الفرنسيون إلى الصحراء الجزائرية من الوقوف عندها. على الرغم من أنها لم تكن منتشرة بذلك الشكل الملفت للانتباه قبل مجيء الفرنسيين، كما يشير إلى ذلك هودا HOUDAS في كتابه اتنوغرافيا الجزائر بقوله: "كانت الدعارة نادرة في المجتمع الجزائري، قبل مجيء الفرنسيين، ولكنها الآن انتشرت، عن طريق نساء المدن ونساء البربر. أما بالجنوب فإن الدعارة اشتهرت لدى قبيلة أولاد نايل". [3]

وحول أصل هذه القبيلة يقول فريلوز: "ينتمي أولاد نايل إلى قبيلة تحتل رقعة كبيرة من شمال شرق الأغواط. تنتقل فتيات أولاد نايل إلى الكثير من المراكز الصحراوية؛ تقرت، ورقلة، التوات لتعدن في غضون سنوات قليلة إلى مسقط رؤوسهن ثريات ، ليتزوجن زيجات أحسن من

[1] RÉGIS، Louis : **Constantine Voyages et Séjours**، Paris، Calmann Lévy، Éditeur، 1880، p 34

[2] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 431.

[3] HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**،Paris، 1886. p 92

أولئك اللائي لم يغادرن بيت الأسرة.[1] أما إدموند دوتي فيرجع أصولها إلى البلاد التونسية ، حيث هاجرت منها إلى الصحراء الجزائرية قبل ثلاثة قرون إذ يقول: "وقبيلة أولاد نايل قبيلة كبيرة، لها أصول دينية، وتعود إلى رجل صالح، قدم من سوس، في القرن السادس عشر".[2]

وحول انتشار هذه الظاهرة يعتقد بعض الأنثروبولوجيين أنه ثمة علاقة بين الجنس والخصب عند بعض المجتمعات، وقد أشار إلى هذه النقطة الإثنولوجي البريطاني جيمس فرازر[ê] Frazer في كتابه *Early history of Kinship*، وإلى إمكانية وجود حالات من الدعارة المقدسة، تساهم في التأثير على الظواهر الطبيعية وخاصة النباتات. و يشير الكاتب هودا إلى أنه كانت لدى البربر قديما عادة واندثرت الآن، والتي تتمثل في تقديم حظوة الزوجة أو البنت البكر للعائلة المستقبلة للغريب. ولكنها كانت محدودة في بعض القبائل.[3] وهذه الإشارة إلى هذه العادة عند القبائل تأخذ مصداقيتها في أذهان الفرنسيين على اعتبار أن المجتمع البربري مجتمع زراعي، على عكس المجتمع العربي ، وقد بين الكثير من الرحالة هذه الفروقات الموجودة بين العنصرين العربي والبربري، فالقبائليون مزارعون والعرب بدو رحالة رعويون؛ فهذا كلاماجرون CLAMAGERAN يقول :" كلما تأملنا القبائليين كلما أدركنا الفرق بينهم وبين العرب؛ فهم ليسوا فرسانا ولا بدو رحالة ولا رعاة، بل على العكس، مشاة، مقيمون ومزارعون، أو على التخصيص بستانيون لأنهم يعيشون على أشجار التين والزيتون.[4]

---

[1] DE FRILEUZE، Henri: **Impressions de Voyage**، **Algerie et Tunisie.** Alencon 1900. p20

[2] DOUTTÉ، Edmond**: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، p 560

[ê] جيمس جورج فرازر Frazer،(1941-1854) sir James George)، أنثروبولوجي بريطاني، عرض مفهوم نشوئي تطوري يرتكز على فكرة أن الإنسانية، مرت بثلاثة عصور متتالية، وهي عصر السحر ، الدين ثم العلم. ولد فرازر بغلاسكو اسكتلندا سنة 1854، وأصبح أستاذا للأنثروبولوجيا الإجتماعية بجامعة ليفربول سنة 1907. اهتم بدراسة الأساطير والدين، ويعتبر كتابه الغصن الذهبي 1890 The Golden Bough أهم أعماله الانثروبولوجية. ومرجعا أساسيا في دراسة السحر والدين عند الشعوب.

[3] Collection Microsoft ® **Encarta** ® 2005. © 1993-2004 Microsoft Corporation..

[4] CLAMAGERAN. J.J، **L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**. Paris. Librairie_Germer Bailliere، 1874، p 210.

ونفس هذه الفكرة يعرضها إدومند دوثي Edmond،DOUTTÉ حـــول علاقـــة الجنس بالأرض والزراعة، والبركة التي تتأتى وفيرة ، كلما كانت الدعارة منتشرة ، وكيـــف أن بعض الأهالي رفضوا تدخل الإدارة من اجل تنظيم ميكانيزمات تسيير أقدم مهنة في العالم، يقول دوثي DOUTTE: "ولدى أولاد عبدي، بالأوراس تنطلق النساء، ليمارسن مهنة الدعارة، قبل زواجهن مرة أخرى ، وأثناء هذه الفترة، لا تمنعهن ممارستهن العهر مـــن المكـــوث لـــدى أهاليهم، الذين يعتبرون سلوكاتهن طبيعية جدا. وحين أرادت السلطة الإدارية تنظيم هذه المهنة، عارض السكان هذا التدخل بحجة أن مثل هذه الإجراءات قد تؤثر سلبا على كثـــرة المحاصـــيل الزراعية[1]... إن هناك ما يشبه البركة مرتبطة بالدعارة.[ê]

ويضيف نفس الكاتب حول الاحترام الذي تتمتع به المومس في الصحراء ، لـــيس مـــن طرف المواطنين البسطاء فحسب ، ولكن من طرف رجال الدين الأكثر التزامـــا " إن جاريـــة الصحراء ليست منبوذة؛ يمر عليها المسلمون الأكثر ورعا وتقوى، فلا يولون وجوههم عنـــها، دون تجهم أو تقطيب أمام مقرها. معظمهم يظهرون تجاه بعض منهن احتراما، لا تتمتع به حتى زوجاقمم.[3]

ولعل هذا الاحترام الذي يتمتعن به هو ما جعلهن يمارسن مهنتهن دون خجل، وكأن هذه الصفة حتمية لا مناص من الهروب منها كمـــا يؤكـــد ذلـــك الرحالـــة فيليســـين شومســـر Félicien،CHAMSAUR حين يتحدث عن ميزات مومســـات قبيلـــة أولاد نايـــل

---

[1] نقلا عن DOUTTÉ، Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Seddik (alias A. Robert)، **Moeurs habitudes**، **usages et coutumes arabes**، in Rev. Alg.، XIIIe ann.، 2e sem.، n° 20، 18 nov. 1899، p. 628-629.

[ê] ولقد أثارت هذه الملاحظات حول علاقة الجنس بالخصب جدلا واستياء كبيرا لدى رجال الدين في الجزائر خلال مؤتمر المستشرقين الـــذي انعقد بالجزائر عام 1907

[3] نقـــلا عـــن DOUTTÉ، Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du Nord**، Typographie Adolphe Jourdan، Alger، 1909، p 560
Huguet، **Contribution à l'étude sociologique des femmes sahariennes**،in Rev. de l'École d'Anthropologie، XIV، 1904، p. 414.

بقوله:"ما يميز عاهرات أولاد نايل؛ هي تلك الحتمية، وذلك الخضوع التام، يمارسن مهنتهن دون الإحساس بالعار؛ لأنها مشيئة الله. بلا خلاعة أو شهوانية وبلا إغراء، فتاة الرمل تبيع جسدها بلا تأثر وفي فتور، في هدوء رصين، كما تبيع حبة تين أو صحن من الكسكس،أو زربية أو فستان".[1]

فصل رابع

تجليات المظاهر الثقافية

[1] CHAMSAUR، Félicien: **Le Baiser du Soleil**، Ferenczi et fils éditeurs، 1888،p242

تمهيد

الثقافة كما يقول روجي غارودي هي نمط حياة مجتمع إنساني وطريقة تعامله مع المجتمعات الإنسانية الأخرى ومع الله، والتي تنعكس في علومه وتقنياته وفنونـــه، في نظامـــه الاقتصادي، وفي مؤسساته[1]. والحياة الثقافية لأي مجتمع من المجتمعات مرهونة بنسبة القـــدرات الفكرية والذهنية لهذه المجتمعات، والمجتمع الجزائري لم تكن تنقصه هذه القدرات، وهذا ما جعل الحياة الاجتماعية حافلة بالعديد من المظاهر الثقافية والفكرية المميزة للمجتمع الجزائري؛ ســـواء منها المظاهر الفنية أو الأدبية أو العلمية، ولعل هذا التميز هو ما جعل النصوص الرحلية الفرنسية في القرن التاسع عشر زاخرة بهذه المظاهر؛ من نصوص شعرية وحكايات شعبية وأمثال وحكـــم وغيرها.

1- الحياة الذهنية

يؤكد الكثير من الرحالة أن الجزائريين يتمتعون بملكات ذهنية وفكرية تؤهلهم لاستيعاب جميع الآداب والفنون والعلوم ؛ يقول الدكتور أبو العيد العيـــد دودو في كتابـــه: الجزائـــر في

---

[1] GARAUDY? Roger: L'islam Vivant، La maison des Livres، Alger1986،. p94

مؤلفات الرحالة الألمان:"وتذكر المجلة[ê] في نهاية دراستها أن الجزائريين لا ينقصهم الـذكاء ولا المواهب ولا القدرة على التطور، ولكن الاضطهاد التركي هو الذي تركهم على هذه الحالة التي هم فيها! وقد بدأ اتصالهم بأوروبا قبل نصف قرن، إذ سافر إليها كثير منـهم، وزاروا بعـض بلدانها وحصلوا على معارف متنوعة، أدت إلى ظهور مواهبهم المختلفة بصورة أوضح![1]

ويواصل الحديث عن هذه الإمكانات بإيراد مقارنة شيمبر بين الأوروبيين والجزائـريين، فيقول :"وبعد ذلك يقرر فيلهلم شيمبر في كتابه رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر :" لقد بحثـت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثـر عليـه، في حـين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة مـن بـين أفراد الشعب. ومن الإنصاف أن نقول أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعـا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية أما الفرنسيين الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا في النادر جدا"[2]

ويؤكد بول بورد هذه القدرة على تعلم اللغة الفرنسية، ليس فقط عند الكبار ولكن حتى عند الأطفال، فعند وصول القافلة البرلمانية إلى بسكرة، في الزيارة الـتي قـام بهـا البرلمـانيون الفرنسيون للجزائر في شهري سبتمبر وأكتوبر من سنة 1879، ووصلوا إلى السوق، اندهشـوا جدا حين وجدوا أن كل أهالي المدينة الجديدة وهم حوالي ألف ومائتين أو ألف وخمسـمائة، يتكلمون الفرنسية قليلا أو كثيرا، ودون نبرة أو لحن كما أشرت مـن قبـل، أمـا الأطفـال فيتكلمونها في العموم جيدا، كثيرون منهم من يعرف القراءة، وبعضهم يعرف القراءة والكتابة. ولأننا وعدناهم بقطعة نقدية لكل من يعرف كتابة اسمه على الجدار، تهافت عدد كـبير منـهم لكتابة اسمه؛ وراحوا يكتبون: سراور، جاب الله ، سعد، يزيد ، محمد، داود، وغيرها من الأسماء

[ê] يقصد مجلة الكتب السنوية الصادرة في سبتمبر سنة 1830.

[1] دودو، أبو العيد، **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان** (1830- 1855)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1975. ص 9

[2] المرجع السابق، ص13

العربية، فاضطررنا إلى إيقافهم وإنهاء تلك المصاريف، كل جدران الترل لن تكفي على كل حال.[1]

إن أطفال العرب ، في المدارس والمعاهد، في حالة توفر مدرسين يحبونهم ويولون لهم الاهتمام يتعلمون بسهولة كبيرة وبسرعة خارقة...

يقال، وأعلم هذا ، بأن العربي يحفظ كل ما يلقن له حتى سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر، لكن بعد هذا السن يبدو وكأن ذكاءه يدخل في مرحلة من الفتور لا يستطيع من خلالها مضاهاة الفترة الأولى، والوصول إلى المستوى الأول، وترد هذه الظاهرة إلى سبب تشترك فيه الشعوب الشرقية؛ وهو تبدل العادات والأعراف التي تميز مرحلة سن البلوغ، حياة الحريم. وإني هنا لا أنكر، بل بعيدا عن هذا أن التربية والتعليم فاشلة عند العرب، غير أنه هناك أمثلة تتزايد من يوم لآخر ، تبرهن على أن العربي غير متمرد على حركتنا الفكرية. يوجد في الجزائر العاصمة أطباء عرب تخرجوا من أكبر الجامعات الأوروبية. والشعب الذي يمكن أن يلد أطباء يمكنه أن يصنع مهندسين ،رجال قانون وإداريين وغيرهم،ذلك أنه ومن بين جميع الفروع العلمية والدراسات الإنسانية تعتبر دراسة الطب الفرع الذي يتطلب أكثر من غيره جهدا فكريا.[2]

وجاء في تصريح السيناتور كومب أمام مجلس الشيوخ الفرنسي أنه كان بالجزائر عند الاحتلال أكثر من ألفي معهد ثانوي .

ويقارن يالسن وأورابان بين الحالة الثقافية في باريس والجزائر فيذكر أن نسبة الأمية في الجزائر سنة 1830أقل منها في فرنسا بالنسبة لتعداد السكان.[3]

---

[1] BOURDE، Paul: **A Travers l'Algérie Souvenis de l'excursion Parlementaire**، G. CHARPENTIER، ÉDITEUR، PARIS، 1880، p 138

[2] General DU BARAIL: **Mes Souvenirs**. Paris، Plon، 1897 Tome 1، pp405 et 406

[3] الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد: **تاريخ الجزائر الحديث، ج3**، دار الثقافة ، بيروت، 1980 ص 537

ومما يؤكد ازدهار التعليم بالجزائر إبان الاحتلال الفرنسي ما كتبه الجنرال فالز سنة 1834 قائلا: "كل العرب الجزائريين تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، حيث هناك مدرسان في كل قرية.

وحول اختلاف هذه القدرات عند البربر والعرب، وذلك التباين بين الجنسين يقول هودا :" وعلى العموم فالبربري ينقصه الخيال، وعقله الثقيل لا يسمح له بالتعامل مع الفنون أو الأعمال الذهنية، غير أنه يملك قدرة كبيرة على المحاكاة، وقدرته الجسدية أكبر من قدراته الذهنية، وأنانيته الكبرى تجعله لا يتأقلم مع المجتمع، فيعيش لذاته دون أدنى اهتمام بالآخر. أما لدى البربري المستعرب ، فهناك توازن بين طاقات الجسد والطاقات الفكرية، وهو اقل مقاومة للتعب الجسدي ، غير أنه يعوض ذلك بنشاط ذهني يمكنه من القيام بأعمال ذهنية فكرية.

ويضيف: "أما بالنسبة لعرب الهضاب العليا والصحراء، فإن الحياة البدوية ساهمت في التأثير على ذهنياتهم ، وسحر الآفاق المفتوحة في طبيعة بلا حدود أطلق عنان مخيلتهم، أين تضفي أنوار الشمس على الأشياء المألوفة صبغة أكثر حيوية وحياة. ورحلاتهم الطويلة والمستمرة حافظت على أجسادهم السليمة والقوية، وعلى عقولهم ، حيث تساهم حرارة الشمس في إذكاء جذوة الخيال التي تلعب دورا مهما في حياتهم الذهنية، فالصيد، والغارات الحربية هي أكثر اهتمامات البدوي الرحالة".[1]

ومن المظاهر الثقافية التي أفرزتها هذه القدرات الفكرية والذهنية لدى المجتمع الجزائري ما يلي:

1- الموسيقى

الموسيقى هي فن تنظيم وتنسيق الأصوات والنغمات المصاحبة للكلمات أو الرقص أو الطقوس الدينية والسحرية، وتعتبر الموسيقى من وسائل التعبير الفنية الأكثر تجريدا، ومن مكونات ثقافة الشعوب وتراثهم. ومن مستلزمات الحياة الاجتماعية والثقافية، وقد أجمعت

[1] HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**،Paris، 1886. p21

الكثير من الدراسات النفسية الحديثة أن الموسيقى تلطف المشاعر الإنسانية وتسمو بها. والموسيقى هي معيار تقدم الأمم في الحضارة، فقد كانت معجزة داود عليه السلام، وقال فيها نابليون بونابرت: ليس هناك ما يعادلها تأثيرا على الإحساس فهي ربة التهذيب والذوق والإحساس، وقال فيها الإمام الغزالي: " من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج، ليس له علاج"

والموسيقى خلقت مع خلق الطبيعة، مع أصوات الرياح، والأمواج، وخرير الأنهار، وأصوات الحيوان وغيرها، وترتبط الموسيقى بالإيقاع، ففي الإيقاع اشترك الشعر والغناء وصارا صنوين هائمين في بحر الخيال – وعلى هذا الأساس ابتكر العرب قديما الحداء وهو الغناء الذي يعين الإبل على قطع المراحل البعيدة دون أن تشعر بتعب.[1]

تتميز الموسيقى الجزائرية باللحن و بالإيقاع في الوقت نفسه، ذلك أنها متأثرة بالموسيقى الإفريقية المرتكزة على الإيقاع والموسيقى العربية المتسمة باللحن.

وتتميز الموسيقى الجزائرية بثراء بحسب اختلاف البيئات الجزائرية ؛ الصحراوية ، الجبلية ، البدوي، وغيرها. ويقسم الكاتب أحمد سفطي أنواع الغناء والطرب في الجزائر إلى:

1- الموسيقى الأندلسية الكلاسيكية الموروثة من الموشحات، والتي توجد بالخصوص في المدن المتحضرة لا سيما تلك التي توجد على شواطئ البحر المتوسط والتي نزل بها المهاجرون بعد سقوط غرناطة سنة 1492.

2- الموسيقى البدوية التي تنحصر في الهضاب العليا.

3- الموسيقى الصحراوية.

4- الموسيقى الجبلية، منها الأوراسية والقبائلية والأطلسية.

[1] د. المهدي ، صالح: **الموسيقى العربية تاريخها وأدبها**، الدار التونسية للنشر، تونس، و ديوان المطبوعات الجمعية، الجزائر، 1986 ص7

5- الموسيقى الشعبية ومنها تلك التي انبثقت من الأندلس وتلك التي نشأت من البدوي.

6- الموسيقى العصرية الخليطة والمشتقة من عدة فروع متنوعة.[1]

وعن أصل الموسيقى والطرب الجزائريين فيرجع نفس الكاتب أصولهما إلى شبه الجزيرة العربية ، خاصة الموسيقى الصحراوية التي تتطابق مع البيئة العربية في شبه الجزيرة وغيرها من الأقطار العربية فيقول: " أما الطرب المنتشر في باقي البلاد، في القرى الصغيرة والبوادي والواحات الصحراوية والمعروفة بالغناء البدوي أو الصحراوي، فهي موسيقى يتغنى بها العرب الرحالة أو الفلاحون وأصلها تاريخا من جزيرة العرب أتى بها المسلمون في حملة بني هلال في القرن الحادي عشر الميلادي وبقيت على حالها من دون تطور كثير إلا في الشعر والكلام. وسواء كانت أندلسية أو صحراوية بدوية أو مدنية فالموسيقى الجزائرية منتمية إلى أصل واحد وهو الأصل العربي...[2]

وما يقال على الغناء البدوي ينطبق على الموسيقى البدوية فهي برغم كل شيء وبرغم التطور الطبيعي للأشياء إلا أنها حافظت على ارتباطها الوثيق بمعالم النمط العام للحياة الصحراوية،

فمصيرها نفس مصير الغناء البدوي في جزيرة العرب كما جاء في كتاب **:"دراسات في الموسيقى الجزائرية"**، مرت عليها الأجيال وهي تنسحب من بطحاء إلى أخرى ومن صحراء إلى أخرى ومن بلاد عربية إلى أخرى ولكنها لم تبرح البوادي والجبال كمن يريد التمسك بالحياة

---

[1] أحمد سفطي: **دراسات في الموسيقى الجزائرية. المؤسسة** .الوطنية للكتاب. الجزائر.1988 ص5.

الحرة بين الخيام والطبيعة. فتبعت العرب الرحالة في حياتهم الفطرية وبقيت مثلهم تحت سيطرة الحقول والرمال والآفاق البعيدة لا تتكلف ولا تتقيد.[1]

ولقد أشار العديد من الرحالة إلى الموسيقى الجزائرية، فلا تكاد تخلو كتاباتهم من الوقوف عند هذه الظاهرة السوسيوثقافية ولو بالإشارة إليها.وأجمع هؤلاء أن الموسيقى الجزائرية عموما والصحراوية خصوصا لا تخلو من جمال وعذوبة برغم بساطتها.

يقول شانوني CHANONY في كتابه "ذكريات رحلة إلى الجزائر والعودة عن طريق إسبانيا: " ثم انبعثت الموسيقى... وموسيقاهم متعددة وجميلة، فلا يمكن القول بأن العرب أجلاف أو بلداء، أو أنهم لا يتذوقون الإيقاعات الجميلة والأصوات الشجية، وإني أرى هنا عكس ذلك تماما، وعلى حد تعبيرهم فإنك ترتوي من أذنيك"[2]

والرقص في الجزائر منتشر عند كل الأهالي؛ في الجبال، في المدن، وفي الواحات، ولا يقتصر على جنس من الأجناس أو قبيلة من القبائل؛ كل الجزائريين يقول بيار دولونكل Pierre DELONCLE في كتابه " حياة وعادات الجزائر" الموسيقى أحد المتع التي يعتني بها أهالي شمال إفريقيا حضر، بدو، جبليون، بربر كلهم يعشقون الموسيقى والطرب".[3]

أما الرحالة سوليي Soleillet فقد راح يثني على جمال إيقاعاتها التي لا يمكن للمرء أن يدرك سحرها من الوهلة الأولى، ليعقد مقارنة بين الموسيقى العربية الجزائرية والموسيقى الأوروبية والاختلاف الواضح بين النوعين، ليشير بأن الموسيقى العربية الجزائرية تعمل على عزل المستمع داخل أحاسيسه الشخصية؛ فيقول: " وأنا أستمع للموسيقى العربية التي أحب كثيرا،

---

[1] أحمد سفطي: **دراسات في الموسيقى الجزائرية .المؤسسة** .الوطنية للكتاب. الجزائر.1988 ص12.

2 المرجع نفسه ص 13 -

[2] CHANONY: **Mémoire d'un Voyage en Algérie et Retour par l'Espagne**، Paris ، 1853، p 20

[3] DELONCLE، Pierre :**Vie et moeurs en Algérie**.Publications du comité Metroplitain du centenaire de l'Algérie, p 125

تذكرت أنها بلا سحر عند سماعها للمرة الأول؛ غير أنه وبعد التعود والتعرف على الذهنية والحياة الشرقية، يكتشف المرء جمال ألحانها وسحر إيقاعاتها الرتيبة التي تدعوك للإبحار والحلم.

الموسيقى الأوروبية تعبر عن إحساس محدد تحاول إيصاله للسامع؛ إنها تعمل على انتزاعه من حالته الشخصية لإدخاله في حالة أخرى محددة. أما الموسيقى العربية فعلى العكس تعزل السامع داخل أحاسيسه الشخصية بزيادة حدة تلك الأحاسيس. كل الفنون الشرقية تتشابه في هذه النقطة، وترتكز على هذه الخاصية، وما قيل عن الموسيقى ينطبق على العمران كما ينطبق على الرقص والأدب. وهذه الفنون تعمل على المحافظة لكل إنسان على شخصيتة المتميزة، والعمل على ربطه بمشاعره الشخصية."[1]

و لم تخلو الدراسات الإثنوغرافية التي خصها الفرنسيون لدراسة المجتمع الجزائري ووصف عاداته وثقافته في القرن التاسع عشر، من الاهتمام بفنون المجتمع الجزائري، كالموسيقى والرقص الرسم والأدب، وقد أشار هودا Houdas في كتابه: **إثنوغرافيا الجزائر** إلى أن الجزائريين لهم إمكانات ضخمة في مجال الإبداع والفن وبأن هذه الفنون ستعرف تطورا مذهلا في المستقبل فيقول: "الجزائريون بخيالهم المتقد، وذكائهم المتفتح لهم استعدادات هائلة للفنون، خاصة منها الموسيقى والرسم، وستعرف الجزائر في وقت قصير تطورا مذهلا في هذه الفنون التي لا تحتاج إلى كثير من التفكير والدراسات التطبيقية كما هو الحال بالنسبة للنحت والعمران. وهذا النزوع في رؤية الأشياء من خلال الخيال تظهر في كل أعمال الجزائريين. وحدود الخيال لديهم لا متناهية حتى أنه يصعب على الشخص الهادئ والمتزن فهم الأفكار الأصيلة المبتكرة التي تنبع من أذهان الجزائريين."[2]

---

[1] Gros، Jules: **Les voyages et découvertes de Paul Soleilet dans le Sahara et dans le Soudan.** Paris Maurice Dreyfous، Editeur 1881،p 35

[2] HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**،Paris، 1886. p 114

ومن أنواع الموسيقى المنتشرة بكثرة في كل أنحاء الجزائر في القرن التاسع عشر و لم تـــزل متداولة في الكثير من المناطق حتى الآن، الموسيقى المتكونة من القصبة والطبل والدفوف، أو كما أطلق عليها الكاتب الفرنسي ليون روش تسمية النوبة وحول إيقاعات هذه الموسيقى ومعانيهـــا أورد هذه الملحة التي رواها الكاتب السابق الذكر في كتابه: "عشر سنوات عبر الإسلام":

بخصوص النوبة حكي لي هذه القصة النموذجية:

سأل عربي ظريف مجموعة من مواطنيه إذا كانوا يفهمون لغة النوبة

- إنها لا تقول شيئا فهي مجرد موسيقى ردوا عليه
- آه أيها الجهلاء ! إن النوبة تتكلم باسم السلطان وباسمكم اسمعوا: الطبـــل الكبير يصرخ :

دراهم، دراهم، دراهم

دراهم معناها المال وينطق الكلمة بقوة وتفخيم نقلد صوت الطبل الكبير

القصبة هي صوت العرب الذين نطلب منهم المال وهي تقول باكية :

منين، منين، منين

(منين معناها من أين وفي حالة نطق منين عدة مرات بحماسة وبطريقة متتالية وبصوت حاد يتم تقليد صوت القصبة أو الشبابة)

أما الدفوف فهي صوت فرسان السلطان وهي قادمة لجمع الضرائب مـــن المـــواطنين والذين يجيبون:

دبر، دبر،دبر

ومعناها جد وبنطق الكلمة مع التركيز على حرف الباء يتم تقليد صوت الدف"[1] و لم ترتبط الموسيقى عند المجتمع الصحراوي بالترفيه والمتعة والرقص، فحسب، ولكنها اقترنت بوظائف أخرى كذلك، ترتبط ارتباطا وثيقا بنمط حياة المجتمع الصحراوي، الــذي يعتــبر الرحيل والسفر علامة متميزة في حياته البدوية ، ومن هذه الوظائف؛ حث القوافــل علــى السير؛ وقد أشار الرحالة أوجين فرومونتان في رحلته: "صيف في الصــحراء " إلى هــذه النقطة بقوله:"لم تكن الموسيقى بالنسبة للبدو الرحل مجرد وسيلة للرقص وإنما وسيلة للحث على السير أثناء الرحيل أيضا: بدأت تتشكل خيط من غبار على الســهل بينــا وبــين تاجموت

-إنها قبيلة راحلة قال علي: رحيل

وما لبث أن اقترب الصوت فاستطعنا أن نتعرف على الفرقة وهي تعزف بعــض تلــك الألحان الغريبة التي تستعمل للرقص وللسير في آن واحد."[2]

وإذا كان بعض الرحالة الفرنسيين قد أنصف فنون هذا الوطن وثقافته وموســيقاه فــإن البعض الآخر استهان بها و لم ترق له نغماتها وألحانها معتبرا إياها موسيقى رتيبــة مملــة مــثيرة للأعصاب؛ وأنها موسيقى ضاحلة تتكون من بعض النوتات لا غير كما ذكرت ذلك الســيدة لويس ريجيس[ê] في كتابها **رحلة إلى قسنطينة**، تقول ريجيس: "في نفس الوقت انبعثت الموسيقى، والمكونة من قصبة وطبل كبير وآخر أصغر، كانت القصبة تتمتم جملة موسيقية حادة جدا؛ كان الإيقاع المبني على وتيرة واحدة متكررة، وهذا ما يؤدي إلى إثارة الأعصاب."[3]

---

[1]Roche، Leon : **Dix ans à travers l'Islam 1834-1844.** Paris. 1904 pp.82 et 83

[2] Fromentin،Eugenne: **Un ete au Sahara**، Paris Librairies Plon. p230

[ê] لويس ريجيس Louis، REGIS في الحقيقة هو اسم زوج كاتبة هذه الرحلة الموسومة برحلة إلى قسنطينة Voyage à Constantine

[3] REGIS، Louis: **Constantine Voyages et Séjour**s، Paris، 1880، p200

وإن مثل هذه الآراء المتسرعة والأحكام كثيرة لدى الكتاب الفرنسيين، وقد أشار الباحث عبد الباسط دردور إلى هذه النقطة في مؤلفه حول الأقطار المغاربية بقوله: " إن نظرة الفرنسيين إلى الموسيقى الجزائرية نظرة خاطئة وكثيرا ما تجانب الصواب، إذ يلجئون إلى إطلاق الأحكام الجاهزة من خلال عينة أو عينتين دون دراسة علمية موضوعية دقيقة فالقول بان الموسيقى الجزائرية ذات تواقيع رتيبة مملة قول أكد عدم صحته الفرنسيون أنفسهم، حيث أكدت كما يقول الأستاذ عبد الباسط دردور في كتابه أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي الغربي أبحاث فنية قام بها موسيقيون فرنسيون تؤكد غنى الموسيقى المغاربية بتواقيعها وألحانها، وليس كما يظن الكثير بأنها ترديد لتواقيع مملة، يروي أحد الباحثين، أن إحدى شركات الحاكي الفرنسية أرسلت مهندسا صوتيا ليسجل لها بعض الاسطوانات لبعض الأغاني الشعبية الجزائرية البحتة، فذهب إلى أعالي جبال القبائل التي ليس لأهلها أية صلة بالأوروبيين ولا بالفنون الأوروبية، واستمع إلى أحد الفلاحين يغني لحنا ، فإذا به يشبه الشارلستون، وكان من المؤكد أنه لحن بربري عريق، وليس له أية صلة بالألحان الحديثة. وسمع موسيقي آخر بنات جزائريات يتغنين بلحن يشبه بعض ألحان موزار فتعجب مما سمع، وبعد الاستقصاء اكتشف بأنها ألحان أصيلة، تضرب بجذورها في أعماق الزمان والمكان."[1]

2- الرقص

الرقص مصطلح يطلق على لغة متميزة ومعقدة جدا هي لغة الجسد والحركة ويعتبر من بين أهم الفنون الشعبية الفلكلورية التي لا غنى عنها بالنسبة لعالم الأنتروبولوجيا أو عالم الاجتماع في فهم خصوصية شعب من الشعوب التي يراد دراستها وهو موروث شعبي ثقافي تشترك فيه جل

---

[1] أحمد سفطي: **دراسات في الموسيقى الجزائرية. المؤسسة** .الوطنية للكتاب. الجزائر.1988 ص11.

المجتمعات على اختلاف ثقافاتها و تقاليدها وعاداتها وهو في البداية والنهاية وسيلة تعبير شعبية تنطلق من الذاكرة الجماعية للمجتمع وتصب في بحر آمال هذا المجتمع وطريقة تفكيره.

وفي واحدة من أهم الدراسات الجادة عن الرقص الإفريقي يقول د. عز الدين إسماعيل أن ثمة حقائق تاريخية لم يثر حولها الجدل بين أساتذة علوم الموسيقى والرقص وهي أن الشعوب الإفريقية هي أول شعوب العالم معرفة بفنون الرقص والموسيقى، كما أنها من أصدق الجماعات الإنسانية تعبيرا عن بيئتها الفنية لاسيما فن الرقص، حتى برع الإفريقي _ في عصر الصيد _ في محاكاة الحيوانات التي كان يصطادها في الغابة وتقليد حركاتها بطريقة تقليدية..

يصف الرحالة أوجين فرومونتان Eugenne Fromentin الرقص الجزائري فيقول: "إن الرقصة العربية على العكس[ê]، رقصة الجنوب، تعبر برشاقة حقيقية أكثر وبعفاف أكبر وفي لغة إيمائية أدبية للغاية، حكاية عاطفية، مليئة بالتقلبات المفاجئة الرقيقة، تكون الرقصة في البدء بطيئة محتشمة وكأن الحياء الذي يطبع المرأة العربية، وهي تحاول الهرب من النظرات التي تلاحقها، لكن ومع تسارع الإيقاع الموسيقي، تصبح الراقصة أكثر انفعالا، فتتسارع خطواتها، وتشتد حركاتها؛ وتبتدئ تلك الحكاية الغرامية بينها وبين عشيقها غير المرئي، والذي يحدثها عن طريق نغمات الناي، يقترب منها، تتملص، تهرب ، ومع كلمة رقيقة تجرح قلبها ؛ تضع يدها عليه ، لتشير أن الكلام قد أثر في الشغاف، وبحركة أخرى تبعد العدو على مضض . بعدها تزداد الحيوية والحماسة عند الراقصة بوثبات ممزوجة بالرفض والمقاومة، ونلاحظها تحاول الهروب وكأنها تريد الدفاع عن نفسها، ثم تعود فترتخي ...كل هذه الحركات تستمر على غاية توقف الموسيقي التي تتعب قبل تعب الراقصة.[1]

[ê] يقصد فرومونتان هنا بالعكس : رقصة أهل التل لأنه يقارن بين رقص الصحراويين ورقص أهالي المدن.

[1] Fromentin،Eugenne: **Un ete au Sahara**. Paris Librairies Plon p 31 et 32

ومن الملاحظ أن العنصر العربي لا يحبذ الرقص رغم حبه لـــه وذلـــك لذهنيـــة العـــربي الارستقراطية، إذ يفضل أن يتمتع برقص الآخر على أن يرقص بنفسه ، لأن العـــربي يعتقـــد أن الرقص ينقص من هيبـــة ووقـــار الشـــخص؛ تقـــول الكاتبـــة بـــولين نوارفونتـــان DE Pauline،NOIRFONTAINE : "غير أن العرب لا يحبون ممارسة الرقص؛ العرب يحبون الرقص ولكنهم لا يرقصون، فيجيؤون براقصين للرقص أمامهم، ويدفعون لهم ثمن رقصـــاتهم، وذلك أنهم يعتقدون بان هذا أليق وانسب للحفاظ على وقارهم".[1]

بعض أنواع الرقصات الصحراوية

رقصة النخ:

إن رقصة الشعور تؤدى المناسبات العائلية عند قبائل الشعانبة والثرود، وفي بعض قـــرى وادى سوف خاصة بقمار والرقيبة ووادى علاندة وعميش وغيرها.

وهي رقصة ليبية الأصول أدخلها إلى وادى سوف قوافل الجريد، وهي رقصة تؤدى مساء على ضوء القمر، تشارك فيها النساء العازبات والمطلقات والعجائز والأرامل أما المتزوجـــات، فيجلسن في الصفوف الأخيرة. وتكون مرفقة بأغاني وأشعار شعبية.

وتجدر ألإشارة أن رقصة النخ بمنطقة الصحراء الجزائرية تشبه إلى حد بعيد رقصة آســـيوية عند الآينو Ainoux شعب آسيوي باليابان يقطن بجزيرتي صاخالين وهوكايدو، غير أن رقصة هؤلاء تؤدى بأرجحة الرأس مرة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف على إيقاع الموسيقى وبضـــرب اليدين على الفخذين.[2]

---

[1] DE NOIRFONTAINE، Pauline**: Algérie Un Regard Ecrit.** Havre، Imprimerie Alph. Lemale.**1856. p 167.**

[2] VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p 139

وحسب روجي أندري فوازان André-Roger Voisin [ê] فإن النقيب بونمان Bonnemain من أوائل الفرنسيين الذي شهدوا رقصة النخ خلال حفل زواج عند بدو عميش سنة 1856.يصف بونمان رقصة النخ فيقول: " تشكل النساء صفين.، الفتيات، الأرامل والمطلقات يشكلن الصف الأول، ونلاحظ أمام كل واحدة منهن قضيب مغروز في الرمل، خلفهن تجلس النساء المتزوجات والعجائز. أما الرجال فإنهم يتجمعون متراصين ولكن حسب نظام معين،قبالة الجنس الآخر، حتى يتمكنوا من الاستمتاع بسهولة بأغانيهن و لهوهن ينير المشهد نار من الحطب والأشواك. وتعطى الإشارة بانطلاق صوت الطبل والغناء. وتنهض نساء الصف الأول والذي توجد من بينهن العروس، ويتقدمن في بطء باتجاه القضبان وهن يحركن خلاخيلهن الفضية. رؤوسهن عارية، وشعورهن المشربة بالزبد والمسترسلة ندائف عريضة على وجوههن تكون بمثابة حجاب. وفجأة تمسك كل واحدة منهن قضيبا، وتبدأ أرجحة رأسها، مرة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال، متتبعات لأنغام الموسيقى التي تنبعث أبية. وبعد هذه الرقصة التي تدوم حوالى ساعة كاملة، تأتي أغنيات الحب، التي ينشدها الفتيان في لحن أغن نحيبي والتي تحدد الطبول إيقاعاتها المختلفة".[1]

وللطوارق أيضا رقصات خاصة يتميزون بها عن غيرهم من سكان الصحراء، ومن هذه الرقصات نجد رقصتي أسوات وشروا.

رقصة أسوات

[ê] أندري روجي فوازان André Roger-Voisin فرنسي عاش بمدينة الوادى وعمل أستاذا بها بين سنتي (1959- 1964) وكتب عنها كتابه: **سوف** دراسة مونوغرافية.

[1] نقلا عن VOISIN، André-Roger: **Le Souf Monographie**، El- Walid، Algérie، 2004، p140

هي رقصة يؤديها الشباب تحت أهازيج النساء، بدون آلات موسيقية، بحيث يدورون حول المغنية الرئيسية التي تدعى كذلك أسوات، في مشهد درامي، يرقص فيه الشابين في حركات منسجمة حتى يتعانقا.

رقصة شروا:

وهو رقص خاص يتخذ شكل اللعبة أو المبارزة، يؤديه الشباب بلباس خاص، ويشرف عليه رجل خبير في أصول المقارعة، والغرض منه التدريب على استعمال وسائل الدفاع، وتعلم فنيات المعارك والحروب.[1]

3- الزي :

اللباس مظهر من المظاهر الثقافية التي كثيرا ما يعتمد عليها علماء الأنتروبولوجيا للحكم على الخلفيات الفكرية والعقائدية للمجتمعات.

يشير فونتير دي بارادي Venture DE PARADIS إلى أن ذوق الجزائريين يميل إلى الطرز؛ ملابس الرجال و النساء لا تخلو من هذا الأمر و هي ملابس غالية الثمن. و لكن الطرز خشن، و الذهب هو المادة الثمينة لدى الجزائريين. تتكون ملابس المرأة من قميص رقيق أو من الحرير أو القطن مقطوعة من الأمام مثل قميص الرجل. و تنزل حتى إلى الوتد. و الأكمام ذات أطوال غير منتظمة، و هي أوسع من عرض القميص في حد ذاته، و لكنها غير مفتوحة إلا من عظم الكتف إلى الورك. و تتخللها عدة قطع من أقمشة حريرية متعددة الألوان. و من الغريب أن هذه الأشكال المضحكة تجعل هذا القميص باهض الثمن.

كما تلبس النساء القفطان الحريري الذي ينزل حتى إلى بطة الساق و هو ليس له أكمام و هو مفتوح تماما من الأمام.

[1] بوشارب، عبد السلام: **الهقار أمجاد وأنجاد**، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 .ص 70

كما تتزين المرأة الجزائرية حلة ذهبية متكونة من الذهب و الماس و الزمرد. كما أنها تضع الأساور و الخلخال الذي يكون وزنه معتبرا. و جمال الحلة لا يكمل حتى تضع المرأة من أربعة إلى خمسة قفاطن و تكون مثقلة بالحلل الذهبية والفضية.[1]

و تصف الرحالة إيزابيل إبرهاردت لباس المرأة الصحراوية بمدينة بوسعادة فتقول في قصتها نحيب اللوز:"يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية يندر المارة غير أنه في الوادي تتجول أحيانا كوكبة من النساء والفتيات في أثواب ساطعة.

ملاحف بنفسجية، زمردية، وردية ناصعة، صفراء ليمونية، حمراء رمانية، زرقاء سمائية، برتقالية، حمراء أو بيضاء، مزركشة بالأزهار والأنجم المتعددة الألوان... رؤوس مغطاة بالبناء الثقيل للتسريحة الصحراوية والمتكونة من ضفائر من أياد فضية أو ذهبية، وسليسلات، ومرايا صغيرة، وتمائم، أو متوجة بأكاليل شعرية مزينة بأرياش سوداء. كل هذا يمر، متألقا في الشمس، تتشكل المجموعات وتتبدل في شكل قوس قزح متغير باستمرار، وكأنها فِرْق فراشات ساحرة.

هي مجموعات من الرجال قد تدثرت وتقلنست بالأبيض، ذات وجوه علاها وقار واسمرار، تخرج في صمت من الشوارع المغراءة."[2]

وفي قصة ياسمينة تصف إبرهاردت مجموعة من النسوة داخل إحدى المقاهي فتقول :"كلهن يتزين بحلي ذهبية، يضعن حلقات ثقيلة في آذانهن. ما عدا البدوية والزنجية فقد كانتا ترتديان لباسا صحراويا، ستار واسع أزرق داكن ، مشبوك على الكتفين مكونا جلبابا. وعلى الرأس تسريحة معقدة، متكونة من جدائل كبيرة من الصوف الأحمر ملوية مع الشعر على الأصداغ، ومناديل منضدة، وجواهر معلقة على سلسيلات."[3]

---

[1] DE PARADIS، Venture : **Alger et Tunis au 18 siècl**e، Sindbad، Paris، 1983. p 227

[2] *Isabelle EBERHARDT*: **Pleurs d'amendiers**، Document électronique http://ourworld.compuserve.com/homepages/bib_lisieux/yasmin01.htm

[3] EBERHARDT، Isabelle: **Yasmina**، document électronique http://www.bmlisieux.com/litterature/eberhardt/pleurs.htm

أما الطوارق فإن الرجل يتميز بلباسه الفضفاض الذي غالبا ما يكون أزرق اللون مطرز الجيب ويتمنطق بخنجر أو سيف يتفنن في تزيين قوائمه وجرابه.. فتارة أحجار كريمة وأخرى عاج فيل أو قرن كركدن يجلبه عن طريق المقايضة من السودان أو النيجر أو غيرهما من البلدان الإفريقية. أما الطوارق، فكلهم تقريبا حسب ديفيريي يرتدون قميصا طويلا أبيض، **تيكاميست**، وسروالا عريضا أزرق، **كرتبه**، من القطن، وثوبا طويلا ازرق اللون كذلك يكون بمثابة المعطف، يسمونه تيكاميست كوري،

ومن مظاهر الزي المتميزة لدى المجتمع الصحراوي والذي أشار إليه الرحالة اللثام عند الطوارق أو ما يطلقون عليه اسم تيقلموست باللهجة الطارقية وهو عبارة عن عمامة توضع بطريقة خاصة حسب طول و عرض معينين و اللثام عادة لا يلبسهم إلا الرجال الأغنياء و النبلاء فهو مقدس عندهم على عكس العبيد الذين لا يغطون الوجه كاملا لا يسمح الطارقي لأي أحد أن يرى وجهه حتى أهله و أقرب الأصدقاء، و يظل اللثام على وجهه طول النهار و بالليل كذلك، و ربما عند النوم، وأثناء الطعام يكشف الملثم عن فمه لتناول الأكل و منهم من يرفع اللثام و يضع الطعام ثم يمضغ، و ربما أخذوا جانبا بعيدا عن الناس حتى لا يراهم أحد.

واللثام أو ما يسمى بالتيقلموست يغطي الرأس، الجبهة الرقبة ، العنق والوجه، وهو قطعة قماش طويلة ملونة ومطرزة من جهة، وتوضع بحيث لا يمكن رؤية إلا العيون، لتي بدورها تكون مغطاة بطرف من هذه القطعة.[1]

و هناك من يقول أن للثام قصة تاريخية تتمثل في أن العدو أغار عليهم مرة و خرجت له النساء ملثمات في زي الرجال و معهن الشيوخ لإيهام العدو بأنهم كثيرون في العدد و يومها و اللثام يوضع على فهم الرجال و لكن هذه الرواية غير صادقة لأن اللثام وجد قبل هذه الحادثة بدليل أن النساء تلثمن في صورة رجال، و يؤخذ من هذا أن اللثام كان موجودا قبل هذه الرواية. يقول بن خلكان:"إن نساء الطوارق كانت تتلثم لشدة الحر و البرد فأصبحت عادة

---

[1] Duveyrier، Henri: **Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، 406

عظيمة يحافظن عليها، و قيل أن هناك غارة حدثت لهم في غفلتهم فأشار عليهم مشـــايخهم أن تلبس النساء زي الرجال و يخرجن في ناحية حتى يخرج إليهن العدو ثم يخرج الرجال بعد ذلك، و فعلوا ذلك فعلا و ساروا عليهم فقتلوهم فلزموا اللثام على اعتقاد أن ذلك بركة لأنه ســـبب النجاح.

أما ابن خلدون فإنه قال بأن اللثام شعار لهم لكي يميزهم عن الأمم الأخرى. أمـــا ابـــن حوقل فيرى أنهم يخفون الفم لأنه يخرج منه نتن و لذلك فإنهم ينشئون أولادهم على ذلك حتى صارت عندهم عادة.[1]

ومن الأساطير الغريبة التي حيكت حول اللثام الطارقي، ما أورده لوير Loyer: " كان سليمان النبي ، يتجول في إحدى المدن، لم يذكر اسمها، فأضاع خاتمه السحري، الذي كـــان لا يفارق إصبعه، وهو الخاتم الذي من خلاله كان يتحكم في الجن، كبيره وصغيره. وعثر علـــى الخاتم رجل من رعاع الناس، وبمجرد وضعه في إصبعه، وجد نفسه يتمتع بتلك السلطة الخارقـــة التي كان النبي سليمان يمارسها على الجن، لم يصدق الرجل، وما لبثت الأفكار اللعينة تشـــتعل، بذهنه وسولت له نفسه، وحبه للسلطة أن يستولي على عرش النبي سليمان... وهكذا فعل.

في تلك الفترة ، بقي سليمان، مجردا من كل شيء، سلطته وعرشه، يعيش مجهولا وســـط بقية الرعية. لكن الحق دوما ينتصر، ليعود الحق لأصحابه، وينال المجرم العقاب الذي يتناســـب مع جريمته. وتمكن سليمان، بعد تقلبات الزمن، من إعادة خاتمه، ومعه كل المجد والقوة اللـــذان كان يتمتع بهما. فأمر بمعاقبة المجرم وتسليط أقصى عقوبة عليه وهي الموت جزاء خيانته الكبرى؛ غير أن بعض أفراد حاشيته أشاروا على الملك، بأخذ إجراءات أخرى، وكان نقاش حول طريقة عقاب المجرم، لينتهي الأمر بالحكم عليه بطريقة يكون هذا الخائن عبرة لغيره من الخونة ، ولكل من تسول له نفسه التآمر على الملك. وفي النهاية استقر سليمان على أن لا فائدة من إراقـــة دم

[1] نقلا عن: بوشارب، عبد السلام: **الهقار أمجاد وأنجاد**، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 ص 45

المجرم، و اتفقوا على جذع أنف أبنائه، وأبناء أبنائه، ليتعرف عليهم كل الرعية ، أنهم من سلالة ذاك الرجل، فلا يحظون بأي سلطة مهما كان نوعها. وعندما كبر الأبناء، واكتشفوا العار الذي لحق بهم ، قرروا إخفاء وجوههم، لإخفاء عاهتهم، وقرروا الرحيل من البلد، ليتفرقوا في أنحـــاء الأرض ، ويتوفون تباعا. ووصل أحدهم إلى السهول الرملية بإفريقيا، بعيدا عن كل من يمكن أن يتعرف عليه، ونصب خيمته هناك، ثم أتخذ له زوجة هناك؛ ليكون أبا للطوارق."

وحفاظا على سلوك والدهم، استمر الطوارق بوضع اللثام على وجوههم.[1]

ومهما يكن من صحة هذه الأسطورة أو عدم صحتها،وكذا الحكايات الأخرى حـــول هذه العادة عند الرجال الزرق، فإن الأكيد أن اللثام عند الطوارق وسيلة فعالة، للوقايـــة مـــن حرارة الشمس، وللتكيف مع طبيعة الصحراء ومناخها.

ويلاحظ أن سكان الصحراء يفضلون الألوان الفاتحة، عموما و اللون الأبـــيض على الخصوص، وهذا النزوع إلى تفضيل هذه الألوان يرجع إلى أسباب عدة، أولهـــا مـــرتبط بالعقيدة الإسلامية، فالرسول عليه الصلاة والسلام يحث على لبس الأبيض في قوله: "علـــيكم بالبياض، ألبسوه أحياءكم ، وكفنوا به أمواتكم "، فالأبيض في ذهنية الفرد الجزائري الصحراوي هو لون الأمل والتفاؤل والخير والحب، على عكس الأسود، الذي كثيرا ما يحيـــل إلى الشـــر والتشاؤم والبغضاء. والأبيض أيضا هو سر الطهارة التي يدعو الإسلام إلى احترامها لأنها مرتبطة بالعبادات، وعلى رأسها الصلاة، إذ أن الأبيض سريع التأثر بالألوان الأخرى، فإذا مـــا مســـته نجاسة ظهرت للعيان، وسهل التعرف عليها، فالأبيض، لباس يحافظ من خلاله المسلم على طهارة جسده ولباسه. وإضافة إلى هذين السببين، يعتبر اللون الأبيض من الناحية العلمية اقل الألـــوان امتصاصا لأشعة الشمس وللحرارة، ولأن المناخ الصحراوي، مناخ حار جاء اختيـــار ســـكان الصحراء لأوان ملابسهم.

---

[1] LOYER، Ch: **Les Touaregs**، Benjamin Duprat، Paris، 1863 p 27et 28

4- فن الترسل

فن الترسل من الفنون النثرية التي ظهرت وتطورت في الأدب العربي، خاصة بعد إنشاء المكاتبات الديوانية. و أسلوب الرسائل يتميز عن باقي أساليب الكتابة ولأن كتابة الرسائل وسيلة مهمة وضرورية في دراسة مدى مستوى وثقافة المجتمعات، رأيت أن أشير هنا إلى هذا اللون الأدبي عند الجزائريين خلال القرن التاسع عشر.

لقد اتسمت كتابة الرسائل بخصائص معينة منها الملاءمة بين الموضوع والأسلوب والعناية بالسجع بوجه خاص ومراعاة الفواصل بهدف إحداث المتعة الأدبية أو إظهار البراعة اللفظية.[1]

ويمكن التفريق في هذا اللون من النثر بين نوعين من الرسائل، هما الرسائل الإخوانية والرسائل الديوانية أو الإدارية؛ وإذا كانت الأولى تتميز بالسجع والإسهاب وإبداء المشاعر الذاتية، فإن النوع الثاني يتميز بالبساطة والإيجاز والوضوح " وهو الذي يعمد فيه الكاتب إلى البساطة والوضوح دون قصد للجمال الأدبي، ودون عناية بالصياغة، بحيث اختفى أسلوب السجع والبديع بشكل ظاهر، وطوعت فيه اللغة للتعبير بسهولة ويسر وفي بساطة تجعل منها أداة مرنة صالحة لصياغة المعاني الدقيقة والأفكار العميقة".[2]

وقد أشار لويس فويو VEUILLOT Louis في كتابه إلى أسلوب رسائل الجزائريين في القرن التاسع عشر ، في رحلته التي عنونها: " الفرنسيون في الجزائر، ذكريات رحلة سنة 1841" غير أنه لم يورد رسائل بأقلام جزائرية وإنما حاول النسج على طريقتهم في الكتابة والأسلوب. يقول لويس فويو محاولا محاكاة الجزائريين في رسائلهم:

[1] د. ركيبي، عبد الله، **تطور النثر الجزائري الحديث.** المؤسسة الوطنية للكتاب. 1983. ص 36

[2] المرجع نفسه، ص 40

" الحمد لله الذي ملأ روح الإنسان بالعواطف النبيلة..

من على بن قدور إلى أخينا في الله عبدا لله بن الهاشمي الشجاع في الحـــرب، الحكـــيم في النصح.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصـــحابه أجمعين أما بعد :

السلام له والسلام عليه ألف سلام، حفظه الله وأطل عمره.

آه يا صديقنا، تركت ديار القبيلة، وذهبت تأخذ مالك إلى آخر الدنيا، اعلم أن من يبتعد يبكي بلاده، لأنه لا يتمتع بملذات الغربة إلا من خلال وحدة قلبه المريرة.

إذا كنتم تسألون عن أحوالنا فنحن بخير وعلى خير ولا ينقصنا إلا اللقاء بكم والجلـــوس إليكم والحديث معكم....

أما خاتمة الرسالة فهي على الشكل تقريبا:

هذا ما أكتبه لكم أنا صديقكم من بسكرة، وأرجو مـــنكم في الأخـــير أن تكتبـــوا لي بدوركم، فالرسائل جعلها بين الأحباب ... الخ ".[1]

ويلاحظ لويس فويو أن كثيرا من الجزائريين، كثيرا ما يلجأون إلى الجمع بـــين النبـــيين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في رسائلهم؛ وهي كما يقـــول محاولـــة لمـــزج المجتمعين والمساواة بين الديانتين، [2]

---

[1] VEUILLOT، louis: **Les Français en Algérie Souvenirs d'un Voyage fait en 1841**، Tours، p208

[2] المصدر نفسه ، ص 208

وإذا كانت الرسائل الإخوانية نادرة، و لم يتطرق إليها الرحالة الفرنسيين، فــإن الرســائل الإدارية كثيرة ، وتعتبر رسائل الأمير عبد القادر الجزائري نماذج حية لهذا اللون من الفن، سواء بالنسبة لرسائله الإخوانية أو الإدارية وقد أورد ليون روش تسعة عشر رسالة وجهها الأمير عبد القادر له في السنوات ما بين 1849- 1883.[1] أو الإدارية، تلك التي وجهها إلى القائد الفرنسي بيجو ولغيره من الحكام الفرنسيين، أثناء المفاوضات معهم طوال الفترة التي حمــل فيهــا لــواء المقاومة ضد المستعمرين. وهو في هذه الرسائل ، يقول عبد الله ركيبي قد خطا بــالنثر خطــوة واسعة، حرره فيها من الأسلوب العتيق والركاكة والتكلف وجعل منه وسيلة للتعبير عن الأفكار الحديثة التي غزت الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة.[2]

ومن هذه الرسائل التي وجهها الأمير عبد القادر إلى حكام عصره، رســالته إلى ملكــة إسبانيا التي يستفسر فيها عن أمر المفاوضات مع الحكومة الفرنسية التي باشرها السفير الاســباني بباريس ، ويبدي لها رغبته في الحصول على البارود والرصاص طالبا منها أن تأمر حاكم مليليــة أن يبيعه ما يحتاج من دخيرة.

رسالة الأمير عبد القادر إلى ملكة إسبانيا بتاريخ 12 شوال 1263 الموافق لــ 23 سبتمبر 1847[3]

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمــد وآلــه وصحبه وسلم تسليما.

من أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين أيده الله بتأييد التامين آمــين، إلى عظيمة الجيوش الصبنيولية ملكة أمرهم وسلطان قاعدة ملكهم سمجست راى الجنــود الروميــة

---

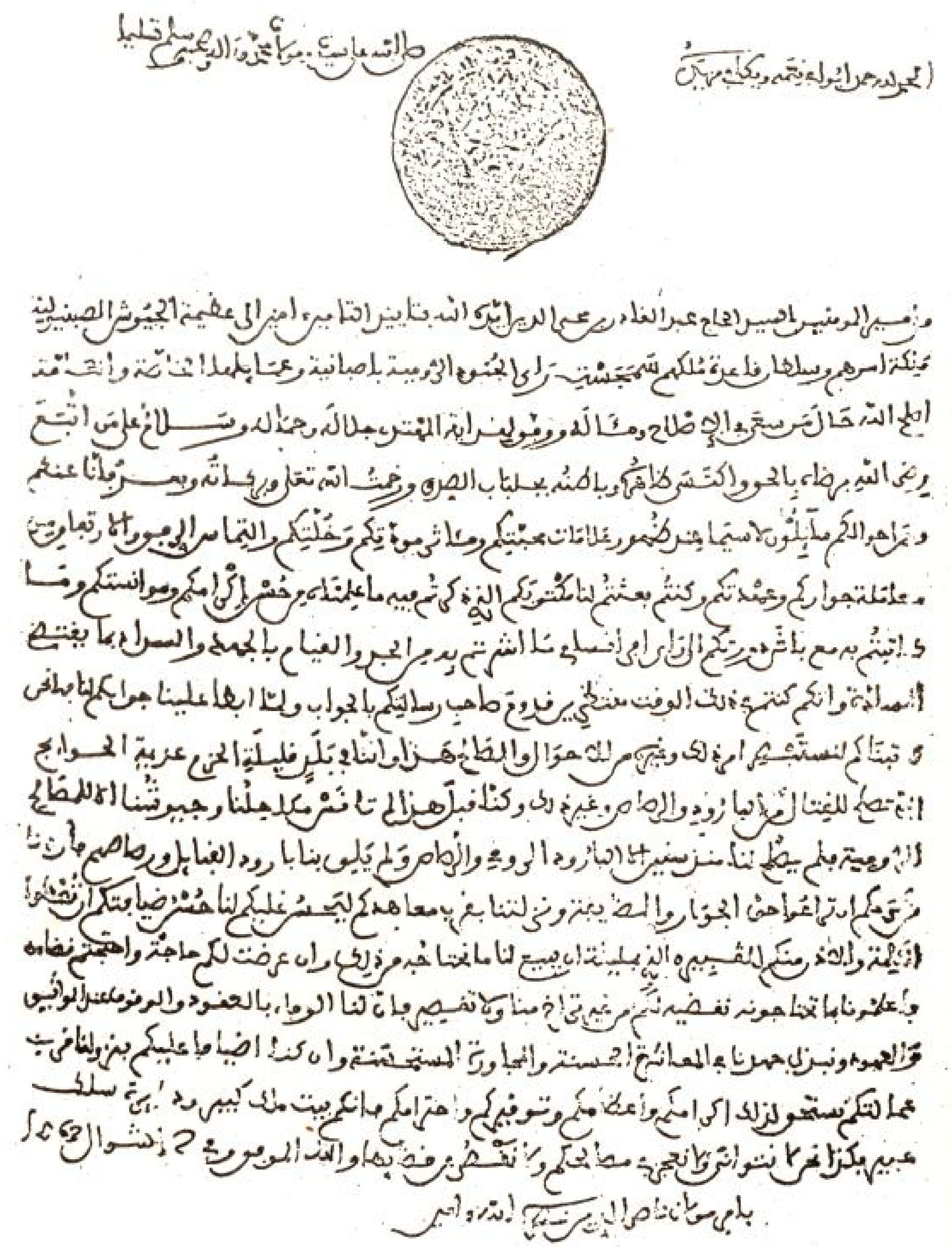
[1] انظر Roche، Leon:**Dix ans à travers l'Islam 1834-1844.** Paris. 1904، p 496 jusqu'à 513

[2] د. ركيبي، عبد الله، **تطور النثر الجزائري الحديث.** المؤسسة الوطنية للكتاب. 1983. ص 41

[3] د. يحيى بوعزيز ود. ميكيل دوايبالزا : **مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985 ص 86

باصبانية وعمائلها الخاصة والعامة، أصلح الله من سعى في الإصلاح ومآله ووفق لهداية المهتدى جلاله وجماله، وسلام على من اتبع رضى الله برضاه بالحق، واكتسى ظاهره وباطنه بجلباب الصدق ورحمت (كذا) الله تعالى وبركاته، وبعد: فإنا عنكم وعن أحوالكم سائلون ولا سيما عند ظهور علامات محبتكم ومآثر مودتكم وخلتكم والتماس الرفق والارتفاق من معاملة جواركم وعمدتكم وكنتم بعثتم لنا مكتوبكم الذي ذكرتم فبه ما علمناه من حسن إكرامكم وموانستكم، وما كاتبتم به مع باش دوركم إلى راى افرنسا في ما أشرتم به من الجد والقيام بالجهد والسداد، بما يقتضي المساد (كذا) وأنكم كنتم في ذلك الوقت منتظرين قدوم صاحب رسالتكم بالجواب ولما أبطأ علينا جوابكم لنا فها نحن كاتبناكم لنستفسر أمر ذلك وغيره من الأحوال والمصالح. هذا وإننا على بلد قليلة الحزم ، عديمة الحوائج التي تصلح للقتال من البارود والرصاص وغير ذلك. وكنا قبل هذا لم تأنس مكاحلنا وجيوشنا إلا للمصالح الرومية فلم يصلح لنا منذ سنين إلا البارود الرومي والرصاص، ولم يلق بنا بارود القبائل ورصاصهم فأردنا من كرمكم أن تراعوا حق الجوار والمضايقة (كذا) ونزلتنا بقرب معاهدكم ليحسن عليكم لنا حسن ضيافتكم أن تعطوا الكلمة والإذن منكم للقبيرة الذي بمليلية أن يبيع لنا ما نحتاجه من ذلك. وإن عرضت لكم حاجة واحتجتم قضاءها فاعلمونا بما تحتاجونه نقضيه لكم من غير تراخ ولا تقصير فإن لنا الوفاء

بالعقود والوقوف عند المواثيق والعهود. ونبذل جهدنا في المعاشرة الحسنة والمجاورة المستحسنة وإن كنا أضيافا (كذا) عليكم بتزولنا قرب عمالتكم نستحق لذلك إكرامكم وإعظامكم وتوقيركم واحترامكم فإنكم بيت ملك كبير، ودائرة سلك عبير، فكذا نحن لا نتوانى ولا نعجز في مصالحكم ولا نقصر في قضائها والله الموفق، وفي 12 شوال 1263 بأمر من ناصر الدين نصره الله آمين.



رسالة الأمير عبد القادر إلى ملكة إسبانيا بتاريخ 12 شوال 1263 الموافق لـ 23 سبتمبر 1847

5- الشعر

الشعر مرآة المجتمع ، يرسم آماله وأحلامه، ويصور معاناته وآلامه، يخلــد مــآثره وبطولاته، ويحكي خيباته ومآسيه. والمجتمع الجزائري كجزء من المجتمع العربي الكــبير مجتمــع شاعر بالفطرة، كل أفراده يتذوقون الكلمة الجميلة المؤثرة، ويقدسونها، فالكلمة الحقــة كمــا يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي من روح القدس؛ فلا غرو إذن أن تجــد الشــاعر في كــل مكان؛ في المدينة ، في الريف ، وفي الصحراء. على عكس المجتمعات الأخرى التي يعتبر فيها قول الشعر هبة ربانية مقصورة على نخبة قليلة؛ ويعترف الفرنسيون للجزائريين بهذه القــدرة علــى القول، وتعاطي الرسم بالكلمات ، بقول دوماس General Daumas :"إذا كان الشعر عندنا موهبة مقصورة على عدد قليل وميزة تخص بعض العقول، زهرة نضرة ونادرة لا تنبت إلا بأرضية خصبة جدا، فإنها عند العرب متواجدة في كل مكــان، تغــذيها الفضــاءات الرحبــة والشمس والخطر ومفاتن الطبيعة ومشاهد الحياة اليومية". إلى أن يضيف بأن قول الشعر يتعاطاه الجميع من الراعي إلى كبير القوم وسيد القبيلة؛ إنه كتر يغرف منه الجميع؛ من الراعي الذي يتبع قطيعه بإحدى السهول المحرقة، إلى رئيس الخيمة الكبيرة الذي يختال بين رجاله على سرج فرسه الفاخر.[1]

وهكذا فالشعر أهم تراث أدبي بالنسبة للمجتمع الجزائري عموما والصحراوي خصوصا، ورغم عدم انتشار الطباعة في البلاد الجزائرية، استطاع المجتمع أن يحافظ على هذا الإرث الثقافي، يقول ليون فان آرشودت Leon،Van Aerschodt مبرزا أهمية وإمكانية خلود الكلمة الشعرية عند العرب دون غيرهم من الأمم :" إذا حدث يوما وان اندثر المجتمع العــربي، فــإن

[1] Le General Daumas: **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara**، Paris de L-Hachette et Cne.1853 p 106.

الشيء الوحيد الذي سيحيا لا محالة هو شعره وأدبه، ذلك أنه من بين كل الشعوب التي لم تعرف الطباعة، فإن العربي ربما هو الوحيد الذي ترك أغنى وأهم تراث أدبي".[1]

أما من حيث المواضيع المطروقة في الشعر الجزائري خلال القرن التاسع عشر ، فإنها تختلف من شاعر إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى ، غير أن الغالب من المواضيع في أشعار المجتمع الصحراوي الجزائري فهي تلك المرتبطة بحياته اليومية وبيئته وما يحيط به من جمال الطبيعة ، ووصف النخيل والفرس والسفر وعشق الحرية والتجوال ، إلى أشعار الغزل ووصف الحبيبة ، إلى القصائد الدينية والمدائح ؛ وقد لخص الكاتب إدوارد دولث ديماسنيل ÉDOUARD D'AULT-DUMESNIL بقوله: " شعرهم يستحق الدراسة؛ إنه يتنفس الدين والحب والحرية".[2]

ومن القصائد التي تصور الحياة الصحراوية، هذه القصيدة أوردها الجنرال دوماس General Daumas في كتابه "عادات وتقاليد الجزائر" :

حرن جوادي قدام الخيمة

حين شاف مولات الخاتم تستعد للرحيل

والقلب حاير

اليوم نهار فراق الدنيا والموت

في خاطر بنات القبيلة لحراير

اختي ما تتقارن غير بفرس ضامر

تمشي في التالي

---

[1] Van Aerschodt، Leon : **Au Maghreb Impressions d Algerie**، Bruxelles، 1910 p 105 et 106

[2] ÉDOUARD D'AULT-DUMESNIL **De L'expedition en Afrique en1830.** Paris Delaunay، éditeur 1832 p 102

وسرجها يلمع مذهب

راكبها فارس شجاع مدرب

عالم بأسرار الفروسية

حين يرن صوت البارود في البرية

اختي تشبه ناقة صغيرة

بين رفيقاها راجعة من التل

محملة بقماش سعره غالي ودخيرة

شعرها على الكتاف حرير مسبل

ريش نعام كحل يتبختر في الصحراء

وحواجبها مثل حرف النون

في الكتب بين الصفحات

واسناها عاج صقيل

واشفايفها في لون الاثمد تشعل

صدرها مثل الثلج

كي يهبط في جبل عمور العالي

ملعون يا زمان! إذا ما السمراء تنساني!

محال الريم تنسى خوها

ويصبح قلبها من حبه خالي. 1

ومن القصائد الجميلة التي تمدح الحياة البدوية ، و تمجد نمط العيش على الطريقة الصحراوية، تحت شمس الفضاءات الرحبة، وعلى رمال الصحراء ، وتبرز هذا النمط من الحياة ، تحت الخيمة ، في هدء الليل، لا أحد يعكر صفو تلك البهجة النابعة من نفس الرجل الصحراوي المترعة بالقناعة، والبساطة، يقول الشاعر:

البدوي في أرض الفساح راه مخيم[ê]

حوله شي ما يعكر عليه سكوت

في النهار غير خوار الجمل

وفي الليل غير عواء الذيابة وملك الموت

داره قطعة قماش مبسوطة

بعظام مغروزة في الرمل

إذا امرض المشي دواه

وإذا حب يكرم ضيوفه ، يجيب غداهم وغداه

يخرج يصيد النعام ولغزال

الكلا اللي نماه في الحقول الخالق سبحانه

مرعى لمواشيه وقطعانه

---

[1] Le General Daumas، **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara**، Paris Librairie de L-Hachette et Cie.1853 p 113

[ê] القصيدة من ترجمتي وارتأيت أن أعيدها كتابتها في قالب الشعر الشعبي لأن هذا النوع من الشعر هو الغالب في تلك الفترة بالصحراء الجزائرية

كلبه حذاه تحت الخيمة

من غدر الخيان يخبره ديمه

وعياله ، صيغتها كلها تتمثل

في عقد من دراهم في عنقها يتدربل

وحبات من المرجان وكش قرنفل

ما ليه عطر غير عطر القطران

ومسك الغزلان

لكن هذا المسلم راه سعيد وفرحان

راضي بمكتوبه ويحمد مولاه

الشمس موقدي ودفايا

ونور القمر شمعتي الضواية

حشيش الأرض مالي وربحي وغنايا

وحليب النوق غدايا

صوف غلمي هي لباسي

وين ما الليل عسعس ، نرقد ، نحط راسي

داري ما تقدر تتصدع ما تنهار

وما نخاف من نزوة السلطان كي يتفرعن

السلاطين عندهم نزوات الصغار

ومخالب الصيودة : رد بالك كي تتصدالو

أنا طير وما نخلي آثار

ما نرفد عوين

ما نزرع ما نحصد

ورزقي على المولى القهار.[1]

وهذه القصيدة تتقاطع في معانيها مع قصيدة الأمير عبد القادر الجزائري، والـــتي ترجمهـــا نفس المؤلف والتي من خلالها يفاضل بين الحياة في الصحراء والحياة في المدينة، ويـــبرز فضـــائل الحياة البدوية الصحراوية وما تحتويه من مباهج لا توجد في الحياة الحضرية. والتي يقول فيها :

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر

وعــــاذلا لحب البــــــدو السفر

لا تذمــــن بيوتا خف محملهـــا

وتمدحــــن بيـــوت الطين والحجر

لو كنت تعلم في الصحراء تعذرني

لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر[2]

كما تتقاطع أيضا مع هذين القصيدتين قصيدة الشاعر احمد بن الشيخين الحاج عيسى اللغواطي التي أوردها سونك في كتابه: الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب، والتي يتحدث فيها الشاعر طريقة عيش المجتمع الصحراوي:

واحنا مع الصحارى سيره ترضيك

[1] Le General Daumas، **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara**، Paris Librairie de L-Hachette et Cne.1853 pp 259et 260

[2] **Ibid**، p 386،

نتفرجوا على مطبـــــــوع الشبه

مفتول في الجعب يلـــــغى بتصرييك

ســـــاعة ونقتلـــــــوا عراد الجلبة

فرغ حدايــــدك والعبــد مواليـــك

خــــــــــدام دايره تجري تـــــــــترابه

فات النهار شكمـــنا بتســـــويك

عرق الخيول متحدره على الركبه

ويدل على نجوعنا دوار خليك

وعلى الرمــــــــال جرتهم مسحوبة

فرقان ترعى واش نـــــــوريك

مثل الغمام ولا ظلول السحــــــــابه

عند الحطوط كيخلط لفريـــــك

ويميـــزوا على مفـــــــلات الهذبه

وعليه جابده فرســـان الدكديك

واجـــحاف على مثالب تتحـــابه

نوار في قراير ضارب تشبيك

وغدير في مشــــــارع للمغبوبـــــه

من جيت تاعب يتــــــولوا ليك

وجدوا الحليب مع غرس أكسبه

زول خواك حتى يتولوا بيـــــك

الاجنــــاب تشوي والغنم تتربه

وفراش من خمل في البيت يدفيك

ووســـايد تعجـــبك وزرابه

من ذم العـــرب الآخر علـــيمك

غير الحـــــود هدرهم غتـــابه

هما طباع الارض بلا فخر عليك

هما اصحاب الشنا لبدا غلابه

اشفيعنا الطاهر نتوســـل ليك

في الخير مبيتنا وافجي ذي الكربه

واجــــمع بيننا دخـــيل يا مليك

كما اجمعت يوسف بعد الغربه[1]

و حول السفر و الجواد يورد الكاتب دوماس Le General Daumas هذا المقطع الذي يصور فيه الشاعر مواصفات الجواد الأصيل الذي يمكنه من الوصول إلى ديار الحبيبة ولو كانت في الثلث الخالي من المعمورة :

" نبغي جواد طيع سرجه غالي

يبغي ياكل لجامه

---

[1] سونك: **الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب** ، موفم للنشر، 1994 .ص 241

على لسفار متعود

يتحمل الجوع والحر العالي

ويقطع في يوم

مسيرة خمس ليالي؛

يوصلني لدوار فاطمة

ولوكان في الثلث الخالي"[1]

ومن المواضيع التي تمجد القيم النبيلة ، وتبرز تعلق المجتمع الصحراوي بها هذا المقطع الطافح بالأنفة والشهامة، و تقديس الشرف، ورفض الذل والهوان ما يقوله أحد الشعراء:

لا تنسى بلي أوقية شرف ولا قنطار ذهب

ما تخلي واحد بقدرك يلعب

البلاد اللي فيها قدرك يتهان

خليها ولو كان سوارها

مبنية باللؤلؤ والمرجان[2]

أما ما تعلق بقصائد الحب ووصف الحبيبة فإن الرحالة الفرنسيين كثيرا ما يلجأون إلى ترجمة القصائد التي تتغنى بالجمال والحب وإيرادهما بين طيات نصوصهم الرحلية، وكأنهم يوشحون بها تلك النصوص ويرصعونها بها ، ومن هذه القصائد الشعبية الجميلة ، هذه القصيدة التي تصف حرقة العشق ولوعة الغرام:

---

[1] Le General Daumas، **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell- Kabylie- Sahara**، Paris de L-Hachette et Cne.1853 p 114

[2] **Ibid**، p 127.

جرى الهوى وحــرق　　قلبـــــي بنـــــار بنارو
مسكيــــن من يعشق　　في الحوما جـــــارو
مسكيــــن من يعشق　　يـــا اهــــل الحميـــا
ما يطــيق شي ينطــق　　كلمــــــه خفيـــا
يا من درى من نعشـــق　　يعطـــــف عليـــــا
الا يرضـــــى يشفـــق　　يجني ثمــــــــار ثمارو
مسكيــن من يعشـــق　　في الحوما جـــــــــارو
من يعشـــــق الفتـــان　　يصــبر لصـــــــــدو
الورد والسيســـــــان　　فاتـــــــــح في خدو
يا من درى التيهـــــان　　ألي أنــــا عبـــدو
نمسي غلامه الحـــــــق　　نخـــدم في دارفي دارو
مسكيــــــن من يعشـــق　　في الحوما جـــــارو
سبحـــــان من انشـــاه　　فتنــــــــه لعبـــدو
هذا الغـــــزال نهـــواه　　ونبـــات عنـــــــدو
نبـــــــوس ونعنـــــق　　نطفي جمار جمــــارو
مسكيــــــن من يعشـــق　　في الحوما جــــارو
صبري كصبر أيـــــوب　　هو الــــــذي ينفـــــع
وخاتم يعقـــــــــوب　　أنا بيه مــــــــــولع
يا من درى المحبـــــوب　　لو كان لي يرجــــــع

الو عيـــــــــون زرق مكحل شفار شفـــارو

مسكيـــــن من يعشق في الحوما جـــــــــارو[1]

هذا بالنسبة للشعر عند العنصر العربي الذي يعتبره الرحالة أكثر قدرة علـــى التحليـــق في عوالم الفن والأدب على عكس العنصر البربري الذي تنقصه هذه القدرة على تعـــاطي الفنـــون الإبداعية التي تعتمد على الوجدان والخيال ، يقول هودا HOUDAS: " والبربر ليس لهم أدب مكتوب، عدا الأدب الشعبي الذي يتكون من عدد محدود من أشعار الحب والحرب، والأساطير و الحكايات والخرافات الحكمية. أما البربر المستعربة فإنه لا يوجد ثمة اختلاف في اللغة بينـــها وبين العرب، وبالتالي يصعب التفريق بين مصدر الإنتاج الأدبي الخاص بهـــم والإنتـــاج الأدبي العربي. أما سكان السهول فلديهم ذوق أدبي أرفع مستوى ، وهذا التفوق يرجع إلى اختلاطهم بالدم العربي، إذ أنه وكلما كان الدم العربي يجري في عروقهم كلما كانوا أكثر تذوقا للفنـــون وإبداعات العقل المرهفة.[2]

ولكن ورغم هذا التفاوت الواضح بين العنصرين ، فالبربر لهم أدبهم وإبداعهم في مجـــال الشعر ، خاصة ما تعلق بقصائد الحب ، ومن القصائد الجميلة مـــا أورده الكاتـــب غوديـــو GAUDIO على لسان هذه الفتاة الطارقية المترع قلبها بالعشق والكبرياء:

لا ارغب في أن يرى عبراتي

ولا أن يعرف كم أحبه

رغم أني كغزالة في الاحال ترتعد

والامزاد يفلت من يدي

سأنتظر...

---

[1] سونك: **الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب**، موفم للنشر، 1994، ص 95

[2] HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**،Paris، 1886 pp118et 119.

كما صياد يتبع طريدته

حتى أخيرا يلقاني

لكن لماذا لا تأتي إلى خيمتي

ستجد لتدفئتك قلبا يحترق من أجلك

كما يحترق الرمل تحت أشعة الشمس .[1]

ومن الأشعار الطارقية القصيدة التي اعتبرها الرحالة هنـــري ديفيريـــي النشـــيد الـــوطني للطوارق، يقول فيها الشاعر الطارقي:

لعنة الله على أمك معطى الله[٤] **.. إبليس يسكن جسدك**

هؤلاء الرجال، الطوارق أو تعتقد بأنهم جبناء

إنهم أعرف الناس بالسفر وبالقتال

يعرفون الرحيل عند الصباح باكرا والسير في المساء

يعرفون كيف يباغتون أي رجل وهو على سريره نائم

خاصة ذاك الغني الذي ينام على ركبتيه وسط قصعة

ذلك الذي مزهوا يبسط خيمته الواسعة

ذلك الذي يفترش زرابيه كلها وينام

ذلك الذي امتلأ بطنه بالقمح المطبوخ مع اللحم

وبالزبدة المذوبة والحليب الساخن الخارج من ضروع النياق

---

[1] GAUDIO، Attilio: **Les Civilisations du sahara**، Marabout Université، 1967. p 90

[٤] معطى الله: اسم يطلقونه الطوارق على رئيس قبيلة عربي

يزجون جسده برماحهم الحادة كشوكة

فيطلق صرخاته إلى أن تحلق روحه

نجرده من أمواله دون أن نترك له قطرة ماء

وزوجته البطرة لن تتحمل خيبته.[1]

هذه القصيدة الطارقية هي لدى الطوارق بمثابة أغنية حرب، وتتميز بإيجاز بديع، حيث عبر الشاعر الطارقي عن موقفه السياسي من العدو، معطى الله ، الذي هو بمثابة رمز للشر، كعميل للشيطان، هذا العدو الذي يتمتع بملذات عظيمة، لا يمكن للطارقي أن يحلم بها؛ النوم على الزرابي الفاخرة، المبثوتة وسط الخيمة الواسعة، وتلك الأنعام و المواشي ، والمأكولات المختلفة، لحوم وأزباد؛ أطعمة مجهولة لدى الطارقي.

ومن القصائد الطارقية أيضا ما يطلقون بقصيدة أليون وهي قصيدة يتغنى بها في الأعراس، عند انعزال العروسين المؤقت(سبعة أيام بلياليها) في خيمة خاصة أو بيت من اختيار عائلة العروس، وفي أليون تنويه بالعروس وتوصية للعريس.

ومن بين هذه القصيدة المطولة هذه الابيات[2]:

هــــذه البــــنت أمانــــــة ـــ بيــــن يديــــــك يـــا بني

فكن رفيقهــــــا في الحيـــاة ـــ وحافــــظ على عــــزها

كما تحافظ على ماء عينيــــك ـــ وإذا انتهى المـــاء بينكمـــا

ارجعها مستـــــورة وستبقى ـــ نظرتنا إليكما عــز وكرامة وحنـــان

تمامــــا مثـــل اليوم الــذي ـــ غـــادرتما فيه بيت أهلكـــما

---

[1] DUVEYRIER، Henri: **Exploration du Sahara Les Touaregs du Nord**، Paris، 1864، p 451.

[2] عبد السلام: الهقار أمجاد وأنجاد، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 ص70

والميزابيون أيضا لهم أشعارهم وأغانيهم الشعبية كهذه القصيدة التي أوردها ريني باسي باللهجة الميزابية، والتي تعتبر من الأشعار التي تصب في نبع الحياة الاجتماعية لبني ميزاب المعروفين بصرامتهم في تعاملهم مع الأطفال:

أبا منصور بوكلال دخلة نغرك

مامو معاك مامو خوياك أبا منصور

احمد بن ذاويا التزوين أبا منصور

مامو معاك مامو خوياك

عبد القادر بن خواجة أبا منصور

الحاج بمحمودي أبا منصور

ما يراح ماني يوكور أبا منصور

****

ماتا يشمر بوبلاق أبا منصور

يزوا يفلق تزواين أبا منصور

يزوا كمباي شايع أبا منصور

قتلا في غضب الله أبا منصور

تاربعيت تامديت أبا منصور

اخسد اركوت غابشة أبا منصور

ما يراح ماني يوكور أبا منصور

*****

يزوا الموكونا أبا منصور

الموكونا الحاج عيسى أبا منصور

يزوا ادبو دبو فلاق أبا منصور

بوقلال دخل اكدك.

وحسب ما يروى فإن طفلا عوقب بالضرب من طرف أبيه، توسل على إبي منصور كي يتدخل ويدافع عنه، غير أن توسله ذلك زاد من غضب الأب فبالغ في ضربه وعقابه، فكتب الحضور الذين شهدوا الحادثة أغنية تسجل الواقعة وما لبثت هذه الأغنية أن انتشرت وأصبحت على كل الأفواه، التي زادت من جنون الأب الذي توفي كمدا فيما بعد.[1]

إن النصوص الشعرية التي تزخر بها الرحلات الفرنسية كثيرة جدا ، وهي نصوص قلما نعثر على نسخها الأصلية ، وتعتبر بمثابة معين وجب على الباحثين التوجه على روافده لجمع هذه النصوص ودراستها، فهي تحتاج إلى دراسة منفردة، لما تحتويه من مضامين تؤسس لتاريخ الأدب الجزائري عموما و الشعري خصوصا.

6- الحكاية الشعبية

الحكاية الشعبية موروث لا تنفرد به أمة عن أخرى أو شعب عن آخر، فكل لها حكاياتها الشعبية، التي تنبع من عمق ذلك الشعب إذ هي نتاج للعقل الجمعي، ونسيج الخيال المجنح للشعوب، تنتقل عن طريق الرواية الشفوية عبر الأزمان والعصور من جيل إلى جيل، وكثيرا ما

---

[1] BASSET، Rene : **Etude sur la Zenatia du Mzab de Ouargla et de L' Oued-Righ**. Paris، Ernest Leroux; Editeur 1893 pp 168 et 169

.

تتحور هذه الحكايات عبر رحلتها هذه بالنقصان أو الزيادة،أو التلوين بحسب ظروف كل جيل وبحسب التطور العقلي واللساني لكل جيل.

وتختلف الحكايات الشعبية من حيث أشكالها وأبعادها فهنـــاك الحكايـــة الشـــعبية ذات الاصول التاريخية، وهناك الحكايات الغرائبية كحكايات الجن و حكايات الكنوز المختفية وهناك الخرافة على لسان الحيوان.

أما من حيث الأبعاد فهناك الحكايات التعليمية ذات البعد التربوي،والحكايات ذات البعد الديني وأخرى ذات أبعاد اجتماعية، تكرس نمط حياة الشعب وذهنيته وتقاليده وأعرافه.

أ- الحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية:

ويعرفها بعض الغربيين بكونها: " قصة شعبية خارقة تقوم على أساس تاريخي" [1] ويطلـــق عليها الغربيون Légende بالفرنسية ، ولعل هذا المفهوم من الأدب الشعبي يكاد يكون هو الأشيع والأعم في تراثنا الأدبي حيث نلفي كثيرا من السير الشعبية تقوم عليه. فإذا كـــان هـــذا النوع على نحو ما رأينا ، أي أنه قصة شعبية تقوم على أصول تاريخية ما، فإن كثيرا من الســـير الشعبية تنضوي تحته.

والسير الشعبية في التراث الشعبي الجزائري كثيرة ولعل أشهرها سيرة ابو زيـــد الهـــلالي وسيرة عنترة بن شداد وسيرة سيف بن ذي يزن[٤] وغيرها.

---

[1] نقلا عن مرتاض، عبد المالك: **الميثولوجيا عند العرب**،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر والدار التونسية للنشر، 1989 ص15
Legende، R: **Dictionnaire de Synonymes**،BAILLY

[٤] إحدى أشهر القصص العربية الشعبية. بطلها سيف بن ذي يزن، فارس اليمن، الذي يوفق بعد معارك طاحنة ومجازفات خارقة إلى الانتصار على الأحباش. وإنما يمتزج التاريخ بالأسطورة، في هذه السيرة، على نحو مثير لا يزال حتى اليوم يستحوذ على إعجاب العامة في كثير من الأقطار العربية. وقد زعم صاحبها - متأثرا بقصة (حي بن يقظان) في أغلب الظن - أن سيفا ولد في الصحراء فغذته ظبية، ومن ثم عثر عليه بعـــض الصيادين فحملوه إلى الحبشة وهناك شب فارسا مغوارا وبطلا صنديدا...ومن الباحثين من ذهب إلى القول إن عددا من المؤلفين المجهولين تعاقبوا على وضع هذه القصة، في مصر، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

غير أنه ليس السير الشعبية وحدها هي التي يمكن أن تندرج تحت مفهوم الحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية، وإنما هناك بعض الحكايات ذات العلاقة بتاريخ الشعوب والمدن والتي يضفي عليها أهلها نوعا من التقديس ويصبغها بصبغة الخيال فتغدو أشبه بالأساطير والخرافات، وفي التراث الشعبي الجزائري عموما والبربري بالخصوص حكايات يمكن إدراجها في خانة هذا النوع من الحكايات كحكاية تدمير مدينة شرشال، وفتح مدينة قسنطينة من طرف العرب، وغيرها.1

بل أن هناك من يفرق بين السيرة الشعبية والحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية لما بينهما من اختلافات. وقد دعا (فاروق خورشيد) صاحب أكثر من قراءة مُركزة وعميقة في السير الشعبية إلى التفريق بين الحكاية والسيرة،2 بل وينفي إدراج السير ضمن الحكايات الخرافية الشعبية ، مع إشارته إلى استفادة السير من الحكايات الخرافية ، ويتفق معه في ذلك أكثر من باحث فسعيد يقطين في دراسته المعمقة للبنيات السردية في السير يخلص إلى : إن السيرة الشعبية فعلاً ، وتأكد لنا بعد طول العلاقة معها بحثاً وتأملاً ، نوع مختلف عن غيره من الأنواع السردية ، رن له خصوصيته وطبيعته المتفردة) والسيرة أن مصطلح السيرة يرتبط بحياة شخصية بارزة أو بطل معروف ، أي أن هناك بعداً مرجعياً تاريخياً لبطل السيرة ، وأن الأحداث في السير الشعبية العربية ، تتحرك على خلفيات تاريخيه ، أو شبه تاريخية ، تمثل كل منها حلقة من حلقات الصراع بين الشعب العربي ، وبين أعدائه ، وبعد تأكيد استناد السير في بنائها الفني على بنية شعرية ، يُضيف كذلك سعيد يقطين أن بنية الإطناب تجعل من السير الشعبية ذات بنية حكائية مختلفة يطلق عليها مسمى (التراكم الحكائي) فهناك (عدد ضخم من الأحداث المتتابعة والمتضمنة ، وحشد كبير من الشخصيات الثابتة ، والمتحولة والعارضة) ورغم كل ما اجتهد فيه الدارسون للسير الشعبية عند كشف قوانين وقواعد بناء فضاءات جنسها ونوعها ، لإثبات خصوصيتها ، إلا أن ذلك لا ينفى مُشتركها مع الحكايات الشعبية فمختلف (القيم التي تم

---

[1] انظر BASSET، René: **Contes Populaires Berbères**، Ernest Leroux، Paris، 1887

[2] انظر فاروق خورشيد - **أدب السيرة الشعبية** - ص 169.

تشخصيها وتقديمها في السير الشعبية العربية ، تظل تمثل في العمق الثوابث العامة للذهنية العربية والإسلامية في رؤيتها للذات والمجتمع والعالم)1.

ب- الحكايات ذات الطابع الغرائبي:

وهي حكايات مرتبطة بقصص الجن الأماكن الأهلة بالكائنات الخارقة ، وما يحدث بين الإنسان وهذه الكائنات من علاقات ومن بين هذه الحكايات :

الحقل المسكون- بوسمغون

كان يا ما كان ، كان راجل ربحان عندو زوج بنات، وفي يوم من الايام وحدة طلب يدها ولد الملك، ووحدة ولد القاضي، مبصح باباهم ماكانش حاب يزوجهم رغم أن الزوج بنات كانوا راضيين . وكانت حديقة قدام الدار تاع هذا الراجل الربحان. في اليل يخرجوا بناته ليها ويطلقاو لتمة مع الزوج فتيان اللي خطبوهم؛ وكانوا يعقبوا اليل تمة يتحاكاو. في واحد الليلة شافهم باباهم، وفي الصباح من شدة الغضب قتل الزوج بنات وادفنهم في هاديك الحديقة، وسافر للحج.

ومرت الأيام، وفي ليلة من الليالي طلب ولد القاضي وولد الخليفة من واحد العازف على آلة العود والرباب باش يروح معاعم لحديقة الراجل الربحان اللي ما حبش يعطيهم بناتو، ويمتعهم بالموسيقى انتاعو، قبل العازف وتفاهموا باش يتلاقاو في ساعة معينة وفي هاديك الليلة راح العازف للحديقة ، مبصح ولد الخليفة وولد القاضي ما جاوش. وبقى وحدو يعزف تمة.

[1] غندور، فاطمة : *مفاهيم وتعريفات المرويات الشفاهية* **صحيفة الجماهيرية** ليبيا .

وفي وسط الليل ظهرو زوج لوانب وخرجوا زوج بنات من تحت الأرض، اتخلع العازف مبصح لبنات كلموه وقالوا له: احنايا بنات الراجل مول الحديقة، قتلنا بابانا ودفننا هنا. ماتخافش هذه الليلة أنت خونا ورايحين نعطيوك المال تاع بابانا اللي راه مخبيه في ثلاث طناجر ودافنهم تحت الارض" ثم وراولوا مكان الكنز وقالولوا " احفر هنا". وابدا العازف يحفر ولقى الثلاث طناجر معمرين بالمال والذهب، أداهم وعاد ربحان، أما لبنات فرجعوا لقبورهم تحت الأرض ومازادوش ظهروا.[ê]

المرأة والجنية

في واحد النهار راحت واحد المرأة اسمها حليمة للوادى باش تغسل في واحد الغدير قديم، كانت المراة ماشية وحدها في وسط النهار، خرجتلها مراة وقالت لها : أنا وانت نوليو صحابات، ونتعاهدوا، كي تجي المرة الجاية لهذا الموادى جيبلي معاك شوية حنة ريحة ، وطيشهم في الغدير اللي في جنب القصر أني نخرجلك ونعطيلك المال. وهكذا كانت المرأة تجي كل يوم وتجيب معاها الحنة والريحة وتاخذ من الجنية المال اللي تعطيهولها. أم خليفة كانت فقيرة كي تعرفت بالجنية، وبين صبحة وعشية صبحت ربحانة، الناس تعجبوا وحبوا يعرفوا مين جانتها هذيك الثروة وشكوا فيها بأنها خليلة مولاي اسماعيل؛ راجل غاني وعندو مال كبير وظنوا بلي هو اللي قاعد يمدلها في المال، لكن أم خليفة خبرتهم بلي ما عندها حتى علاقة بيه وعمرها ما كانت خليلته. وفي واحد النهار تبعوها

[ê] هذه الحكاية جمعها ريني باسي سنة 1883 بفرندة رواها له رجل من بلدة بوسمغون يدعى ولد التيجاني.

حتى وصلت للغدير وجات الجنية تتلاقاها، وتعطيها المال كيما موالفة، ولما شافوها الناس دخلت في وسط الماء ومن هاذاك النهار مازادش خرجت.

القابلة والجنية

في واحد الليلة كانت مرأة قابلة في دارها خرجتلها جنية وقالت لها: اعطني الحنة والريحة ونولي صاحبتك. أنا قريب نزيد وهار يوصل يوم الولادة راني نبعث ولدي لكحل باش يوريلك لبلاصة . وفي نهار الزيادة بعثت لها ولدها في صورة قط اكحل، قالها " أنا ولد الجنية بعثتني يمة باش نوريلك لبلاصة وراهي تقولك بلي لازم تجي في الحين" تبعث القبلة القط حتى وصلها للمكان ، ولما زيدت الجنية ، جابت طفلة زنجية. واعطاتها الجنية المال ورجعت لدارها.[1]

وهذه الحكاية لها مثيلتها في التراث الإنجليزي كما أشارإلى ذلك ريني باسي[2] **ويضاف إليها حسب العادات المسيحية أن القابلة تكون أيضا عرابة للبنت المولودة.**

الزوج والجنية

[1] هذه الحكاية جمعها المؤلف سنة 1883 بفرندة رواها له رجل من بلدة بوسمغون يدعى ولد التيجاني.

[2] نقلا عن ريني باسي BASSET، René: **Contes Populaires Berbères**، Ernest Leroux، Paris، .1887 p163

SEBILLOT: **Contes Populaires de la Haute- Bretagne** 2 serie no:1 p8 وكذلك Gregor: **Stories of fairies from Scotland** Folklore(Journal 1883 p 25)

كان واحد الراجل واسمه مولاي الشريف من عائلة الشـــرفة، يخـــدم طالـــب في مدرسة من المدارس في ورقة، وكان يسكن في بوسمغون، كان يروح يخدم ويقطع مســـافة لا باس بها وفي واحد النهار خرجت له جنية وقالت له: تزوج بيا

قبل مولاي الشريف واداها معاه لداره ، وجابت معاه زوج بنات واحدة اسمهـــا حليمة وواحدة واحد ما يعرف اسمها، وكي ماتت أم البنات بقاو مع باباهم حتى مات.

ج- الحكايات ذات الطابع التربوي التعليمي

ومن الحكايات ذات الطابع التربوي التعليمي حكاية العقرب والخماس والرهان اللعين ؛ فالأولى تبرز فضائل الصدقة وعمل الخير، والثانية تبرز عواقب الرهان غير المجدي

العقرب والخماس

كان لصاحب أحد البساتين خماس ، يعمل عنده بحصد الشعير، كان صاحب الحقـــل يحضر غداء الخماس. وعند وصوله إلى ضفة النهر، الذي يجب أن يقطعه للوصول إلى الحقل: وجد سلحفاة وعقربا، هذا الأخير يركب فوق السلحفاة التي قطعت به النهر، ثم رجعت، اما العقرب فقد انطلقت بسرعة باتجاه نخلة كان ينام تحتها رجل، وقد التف حول عنقه ثعبان كبير، وفمه قرب رأس الرجل النائم ، يتأهب للذغه، لكن الرجل استيقظ في اللحظة نفسها، وأسرعت العقرب ولذغت الثعبان برأسه فسرا السم فيه ومات. كان صاحب البستان يتأمل ذلك المشهد والفزع يملأ قلبه. ثم أيقظ الرجل النائم صائحا به: انهض ! انظر ما بجانبـــك ! نهض الرجل ولما رأى الثعبان ،أراد الهرب مذعورا. لكن صاحب الحقل اوقفه ليسأله: مـــاذا فعلت اليوم كعمل خير لوجه الله؟ واخبره الرجل أنه قدم صدقة لامرأة عجوز تتمثل في قطعة من الخبز: والله سبب في أن يكون ذلك سببا في نجاتي من الموت. الحمد لله! فعمري مـــازال طويلا، والصدقة تمنع البلاء وتزيد في العمر.

الرهان اللعين (ميزاب)

قدم رجل يوما إلى المدينة، فوجد مجموعة من الرجال فانضم إليهم وبينما يتسامرون، قال لهم: " أراهنكم بانني سأدهب الليلة، لأدق مسمارا بجامع الشيخ سيدي عيسى، وكانت الأساطير تقول بأن ذلك المكان مسكون بالجن، وقبلوا الرهان، فتوجه الرجل إلى المكان المذكور، غرز في المسمار في الأرض ، ولكنه حين حاول النهوض والعودة لم يستطع و كأن شيئا يمسك به. حاول بكل قواه أن يتملص فلم ينجح، ونادى الناس أن يأتوا لنجدته لكن ولا من مجيب، و من شدة الخوف سقط صريعا.

في الصبح ذهب المراهنون إلى عين المكان ليجدوا الرجل ميتا، وقد غرز المسمار على طرف برنوسه في الارض.

الرهان اللعين باللهجة الميزابية

يكن ورجاز يزوا لتاورت نتمدينت يوفو ديس مدن اقيمن يقيم معسن يسرس ترشاستس مع ترشاس انسن ينا ياسن اد مرهناغ معون اد زويغ د تمسزيدا نشيخ سيدي عيسى اديغ جيج داجاد ستمسزيدا نسيدي عيسى مرهنن يزوا نتا اد يدى جيج الهكان مدن يزوا ارجازاني لتمسزيدا سي يوض يدى جيج كتمورت د يخس اد يجر ول ينحم باش يوت ابرنوسيس سجيج يزكا يمدن يمت سوكد.[1]

د- الخرافة أو القصة على لسان الحيوان

[1] BASSET، René : **Etude sur la Zenatia du Mzab de Ouargla et de l'Oued Righ**، Ernest Leroux، Paris، 1893. p 107

الخرافة Fable حكاية سردية قصيرة، على لسان الحيوان، وتنتهي بعـــبرة أو درس أخلاقي، تروى في قالب مشوق مثير للدهشة، وهـــي قريبـــة مـــن الخرافـــة الحكميـــة Apologue غير أنها تتميز عنها بعنصر سردي أكثر رحابة، وهي نابعة مـــن التـــراث الشفوي الموجود في كل آداب العالم.1

وهي ذات طابع خلقي وتعليمي في قالبها الأدبي الخاص بها، وتنحو منحى الرمز في معناه اللغوي العام.2

أما بايلي Bailly فيعرفها بقوله أن الخرافة "قصة قصيرة خيالية، تكتب بالشـــعر أكثر مما تكتب بالنثر، وربما كانت ميثولوجية غايتها توضيح فكرة مجردة، لبلوغ هـــدف أخلاقي، أو عدمه، حيث يمكن تشخيص الحيوانات والأشياء". أما سانت بوف Saint Beuve فيذهب إلى أنها "جنس طبيعي ، بل هي شكل للإبداع ملازم لروح الإنسان وهي من أجل ذلك توجد في كل الأمكنة ، وفي كل البلدان"3

ومن أشهر هذه النوع من القصـــص في التـــراث العـــالمي نجـــد البونشـــاتونترا[ê] Panchatantra في جنوب الهند، قصص إيزوب Esope وقصص الكاتب الفرنسي جون دو لا فونتان Jean de La Fontaine. أما في التراث العربي، فنجد قصص كليلة ودمنة لابن المقفع المقتبس من الفارسية.

---

[1] Collection Microsoft ® Encarta: **Fable** ® 2005. © 1993-2004

[2] غنيمي ، هلال : **الأدب المقارن**، دار العودة، بيروت، 1983، ص 179

[3] نقلا عن مرتاض، عبد المالك: **الميثولوجيا عند العرب**،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر والدار التونسية للنشر، 1989 ص 11

Fable.، R: **Dictionnaire de Synonymes**،BAILLY

p.242، T3،St Beuve: **Causeries du lundi**

[ê] البونشاتونترا Panchatantra عبارة عن خمسة كتب من الحكايات الشعبية والخرافات السنسكريتية تعود إلى القرن الأول للميلاد.

وحكايات الحيوان تنشأ فطرية في أدب الشعب، كما يقول غنيمي هلال، قبـــل أن ترتقي من الحالة الشعبية الفلكلورية إلى المكانة الأدبية الفنية، وأدنى صورها في هذه الحالة أن تفسر الظواهر الطبيعية تفسيرا ميتافيزيقيا أسطوريا على حسب عقائد الشعب.[1]

وفي الأدب الجزائري الشفوي الكثير من هذه القصص، سجل بعضها بعض الكتاب الفرنسيين سأورد بعضها:

1 الذئب والأرنب

كان أرنب يتجول برفقة ذئب، بادره قائلا:

-عندي حيلة

-ولي تسعا وتسعين حيلة، رد الذئب

-لندخل هذا البستان ونأكل، فأنا جائع، أضاف الأرنب

دخلا البستان وراحا يأكلان

-كل من التين الجيد، قال الأرنب لرفيقه

-وأنت ماذا تحب أن تأكل ؟ سأل الذئب

-العنب...

افترقا داخل البستان واكلا حتى شبعا

-لنذهب الآن، قال الذئب، لم نعد جوعانين

-أخرج أنت أولا فأنت أكبر مني

[1] غنيمي ، هلال : الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1983، ص 180

-أخرج أنت وانظر إذا كان صاحب البستان في الخارج

خرج الأرنب، وبقي الذئب بجانب الثقب لا يستطيع الخروج.

-أعطني نصيحة كي أستطيع الخروج من هذا المكان

-انا ليس لي إلا حيلة واحدة، كيف أستطيع نصح من له تسعا وتسعين حيلة.

هرب الأرنب، وبقي الذئب الذي قبض عليه من طرف صاحب البستان.

-ماذا أنا فاعل بك الآن؟

-ما يمليه الحق والعدالة

-الحق أن تملك

-إذن فامنحني على الأقل فرصة كي أذهب لتوديع أبنائي وأعود، رد الذئب

-أعطني وعدا حقيقيا بأنك ستعود

وأعطى الذئب صاحب البستان وعدا، فأطلق سراحه، فهرب ولم يعد.

2 الثعلب والديك[ê]

هاجم مرة ثعلب الدجاج، لكنهم أحسوا به وتفرقوا، لحق بهم الثعلب، صعد احد الديكة إلى شجرة عالية.فقال له الثعلب

أولست أخي؟.. انزل لنصلي معا.

كيف يمكننا الصلاة أنا لست إلا المؤذن، انتظر حتى يأتي الإمام

[ê] هذه الحكاية رواها للمؤلف رجل يدعى ميلود بنواحي مليكة (ميزاب) سنة 1885.

ومن هو الإمام؟ سأل الثعلب

إنه السلوقي، إنه قادم

صلوا إذن بدوني فقد نقض وضوئي

سننتظرك حتى تتوضأ.

لا صلوا ولا تنتظروني فالماء لا يوجد إلا على مسافة يومين او ثلاثة من هنا.[ê]

وهذه القصة أيضا معروفة بورقلة [1] حسب ريني باسي، والقصة يمكن أن نستشف من خلالها بعض خصائص العبادات في الدين الإسلامي وهي أن الصلاة جماعة لا تجوز إلا بإمام، وأنها أي الصلاة أيضا لا تؤدى إلا بعد الوضوء. وحكاية الديك والثعلب توحي بمدى تدين المجتمع الميزابي، وتمسكه بالفرائض والعبادات التي تفرضها الشريعة الإسلامية، والحكاية يمكن أن تكون وسيلة لتعليم الأطفال تعاليم دينهم على لسان الحيوانات.

وحكاية الديك والثعلب تقترب في مضمونها العام مع حكاية الكلب والديك الموجودة في حكايات إيزوب[ê] Esope في حكاياته Fables Esopienne ومفادها أن الثعلب كان يريد أن يقدم قبلة السلام للديك ، لكن هذا الأخير وجهه وجهة أخرى، وأشار عليه بإعطاء هذه القبلة للكلب.2

[ê] هذه الحكاية رواها للمؤلف ريني باسي باللهجة تاقوارلجنت الحاج صالح بورقلة سنة 1885.

[1] BASSET، René: **Contes Populaires Berbères**، Ernest Leroux، Paris، 1887. p 145

[ê] إيزوب كاتب حكايات يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلاد، واشتهر برحلاته إلى مصر وبابل وآسيا الصغرى وغيرها من البلدان.

[2] المرجع السابق ص 146

خـــاتمة

خـــــاتمة

إن هذه المقاربة السوسيوثقافية للمجتمع الصحراوي الجزائري من خلال كتابات الفرنسيين سلطت الكثير من الأضواء الكاشفة على بعض مظـــاهر هـــذا المجتمـــع ، الثقافيـــة والاجتماعية والحضارية وقد توصلت في ختام هذا البحث إلى عدة نتائج يمكن تلخيص أهمهـــا في النقاط التالية :

- أن المجتمع الصحراوي الجزائري قائم على الترابط الأسري بين جميـــع أفـــراده ، وان الأسرة مفهوم مقدس لها مكانتها الخاصة في تصور هذا المجتمع.

- أن الكثير من القيم الانسانية متجذرة في أعماق هذا المجتمع كالكرم وحسن الضـــيافة والتعاون وغيرها.

- أن المجتمع الصحراوي مجتمع محارب يعشق الحرية والانطلاق .

- أن المجتمع الصحراوي الجزائري مجتمع متعلم مثقف، له ثقافته المتميزة والمتفردة والتي تختلف عن أي ثقافة أخرى ؛ سواء من الناحية الفنية كالموسيقى والرقص أو الناحيـــة الأدبيـــة كالشعر والغناء والقصة الشعبية.

-أن المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر مجتمع قائم بذاته له من الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والحضارية ما يجعله من المجتمعات الأكثر تميزا وتفردا لتعلقه بنمط حياة فريد ومتنوع .

- أن المجتمع الجزائري في تلك الحقبة كانت له من الإمكانات الذاتية الروحية والعقلية ما يؤهله للنهوض والتطور في جميع مجالات الحياة وهذا باعتراف الكثير من الرحالة الفرنسيين أنفسهم وأورد هنا ما نقله ثيري مياغ THIERY- MIEG في كتابه ستة أسابيع بإفريقيا حيث يقول :" لقد أعطيت إشارة الانطلاق، فعالمنا الشائخ والضجر في حاجة إلى التجدد لتجديد فنونه، وليفعل ذلك فهو بحاجة إلى الشرق.

حتى الصناعة التي تسارع إلى الأخذ ما يلائمها بدأت في تقليد المنسوجات التونسية والزرابي الجزائرية. ولقد استغلت الموضة البرنوس العربي الذي يستعمل الآن في زينة الفرنسيين والفرنسيات على حد سواء، ومن خلالهم سينتشر في العالم المتحضر. بالنسبة للباس الرجال ، وفي وقت ليس ببعيد سوف لن تأتي آخر الموضات من بريطانيا ولكن من الجزائر...وسيترك العمران العربي بصماته على الفن الفرنسي، هناك منجم لا ينضب من الأصالة والتجديد، والتي ستعمل على إذكاء وإنعاش مخيلتنا المهتلكة، والمعتمة بسبب سمائنا الرمادية وغبار مدننا."1

وأن دخول الفرنسيين كان سببا في تدمير البنى التحتية للمجتمع الجزائري وبالتالي سببا في توطين التخلف والجهل وقد اعترف بهذه الحقيقة الكثير من الدارسين والمفكرين الفرنسيين فقد صرح الكاتب أليكسيس دي توكفيل أمام المجلس الوطني الفرنسي سنة 1847 بأنه كان للجزائر حضارتها الخاصة ، رغم تخلفها، واعترف قائلا: " بأننا قد جعلنا المجتمع الإسلامي (الجزائري) أكثر شقاء وأكثر بربرية مما كان عليه قبل وجودنا."

[1] THIERY- MIEG، Ch: Six Semaines en Afrique Souvenirs de Voyage، Paris ، 1861، P170

- أن تأثر الفرنسيين رحالة وكتابا وفنانين كان كبيرا بالجزائر طبيعة ومجتمعا أرضا وسماء وأن هذا التأثر واضح في أعمالهم التي تزخر بنصوص منبهرة بجمال وتفرد هذا البلد . فإذا كانـا اليوم نؤثر في الشرق ، و لا أميز هنا بين الشرق وإفريقيا المسلمة، فسيأتي اليوم الذي سيعمل الشرق علـى التأثير فينا. فهاهم رسامونا يستلهمون لوحاتهم منه، بعد أن كانوا يقصدون روما للاستلهام منـها. ومـن خلال ذكرياتهم ببلدان النور ، استطاع دولاكروا، دي لاروش، هوراس وفارني أن يؤسسـوا لشـهرتهم؛ وقريبا سيأتي دور الكتاب.[1]

- اختلاف نظرة الرحالة الفرنسيين للمجتمع الصحراوي الجزائـري بحسـب التوجـه الفكري والإيديولوجي للرحالة ذاته وقد لاحظت أن الأدباء شعراء وروائيين والرسامين كـانوا أكثر إنصافا للمجتمع الجزائري وأكثر تعلقا بسحر الجزائر ونمط حياة المجتمـع الصـحراوي وبالتالي كانوا أكثر موضوعية في رصد مظاهر المجتمع سواء الاجتماعية أو الثقافية منها علـى عكس الرحالة العسكريين والمؤرخين الذين كانت تحكمهم تلك النزعة الاسـتعمارية المتعاليـة والتي تحاول الحط من قيمة الشعوب والمجتمعات الأخرى محاولين إبراز الوجه القاتم للمجتمـع لتبرير تواجدهم من أجل إخراج هذه المجتمعات البدائية في نظرهم مـن سـراديب التخلـف والجهل. وبصورة أقل نجد الرحالة الانتروبولوجيين الذين حالوا أن يلامسوا الروح العلميـة في وصفهم لخصائص المجتمع .

---

[1] المرجع السابق ص 170

مصادر ومراجع

المصادر

1) BARAUDON, Alfred: **Algérie et Tunisie Recit de voyages et études** Paris librairie Plon 1893

2) BAULARD, Louis : **Un voyage en Afrique ou Description d'Alger**. Bibliothèques Royale

3) BOURDE, Paul: A Travers l'Algérie Souvenirs de l'excursion Parlementaire, G. CHARPENTIER, ÉDITEUR, PARIS, 1880

4) CHANONY: **Mémoire d'un Voyage en Algérie et Retour par l'Espagne**, Paris , 1853

5) CHAMSAUR, Félicien: **Le Baiser du Soleil**, Ferenczi et fils editeurs, 1888,

6) CLAMAGERAN. J.J: **L'Algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**. Paris. Librairie Germer Bailliere, 1874

7) DAUDET, Alphonse: **Aventures prodigieuses de Tartarin de Tarascon**, Paris,1873

8) Daumas, Le General, **Mœurs et coutumes de l'Algerie Tell-Kabylie- Sahara** Paris de L-Hachette et Cne.1853 .

9) DEMAGE, G: **A Travers le Sahara, Aventures Merveilleuses de Marius Mercurin**, Librairies Hachette, Paris, 1903

10) DE BOISROGER. A: **Le Sahara Algérien Illustré, Souvenirs de Voyage** 1886- 1887, Paris

11) DE FRILEUZE, Henri: **Impressions de Voyage, Algerie et Tunisie.** Alencon 1900

12) De MAUPASSANT, Guy: **Bel-Ami**, [Document électronique] [texte établi par Daniel Leuwers,...]

13) DE NOIRFONTAINE, Pauline**: Algérie Un Regard Ecrit.** Havre**,** Imprimerie Alph. Lemale.**1856**

14) Du BARAIL: **Mes Souvenirs**, Paris, Plon, 1897, Tome 1

15) DUVEYRIER, Henri: **Exploration du Sahara. Les Touaregs du Nord**, Paris, 1864.

16) EBERHARDT, Isabelle : Lettres et journaliers

17) EBERHARDT, Isabelle: Le Major

18) FERME, Albert: **Le Touareg,** Paris, Paris, 1900

19) FRANK Elisa **Willie Butler suivi des souvenirs du Sahara Algérien** Tour Alfred Mame et fils,editeurs

20) FROMENTIN, Eugène : **Un été au Sahara**. Paris Librairies Plon

21) FROMENTIN, Eugenne: **Sahara et Sahel**, Paris, Plon edition. 1886

22) GROS, Jules : **Les voyages et découvertes de Paul Soleillet dans le Saha ra et dans le Soudan**. Paris Maurice Dreyfous, Editeur 1881

23) LARGEAU, Victor, **Le Sahara Algérien** . Paris, Libriairie Hachette et Cie, 1881

24) LAVIGERIE , A.: **L'Oasis de Boussada** In:**Tour du Monde** 18/ 2 Mai1902

25) ROBERT, Georg**e: Voyage à travers l'Algerie**, Paris,1891,

26) ROCHE, Leon**: Dix Ans à travers L'Islam**, 1834- 1844, Paris

27) THIERY- MIEG, Ch: **Six Semaines en Afrique Souvenirs de Voyage**, Paris , 1861

28) VAN AERSCHODT, Léon: **Au Maghreb Impressions d'Algerie,** Bruxelles, 1910

29) VEUILLOT, louis: **Les Français en Algérie Souvenirs d'un Voyage fait en 1841**, Tours

المراجع باللغة الفرنسية

1) BASSET, René : **Etude sur la Zenatia du Mzab de Ouargla et de L' Oued-Righ**. Paris, Ernest Leroux; Editeur 1893

2) BLANC Le Capitaine: Récit d'un Officier d'Afrique, Tours Alfred Mama et fils Editeurs

3) DAUMAS et FABRE: **La Grande Kabylie Etude Historique**, L Hachette, France,1847.

4) De LOMBELLE, Le conte: Illustrations d' Afrique. Tour Alfred name et fils editeurs.

5) DELONCLE, Pierre : La Vie et les mœurs en Algérie. Publications du Comité Metropolitaindu Centenaire de l'Algérie

6) DOUTTÉ, Edmond: Magie et Religion dans **l'Afrique du Nord**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1909,

7) GARAUDY, Roger: L'islam Vivant, La maison des Livres, Alger,1986

8) GAUDIO, Attilio: **Les Civilisations du sahara,** Marabout Université, 1967.

9) HAMET, Ismael: **Les Français Musulmans du Nord de l'Afrique**, Armand Colin, Paris,1906

10) HOUDAS. O: **Ethnographie de L'Algérie**, Paris, 1886

11) LOYER, Ch: **Les Touaregs**, Benjamin Duprat, Paris, 1863

12) MARCHAND, Max: **Le Sahara**, édition la fougue 1957.

13) ÉDOUARD D’AULT-DUMESNIL **De L'expedition en Afrique en 1830.** Paris Delaunay, éditeur 1832

14) GARAUDY, Roger : **L'islam Vivant**, La maison des Livres, Alger, 1986

15) IBN KHALDOUN: **Discours sur L'histoire Universelle Al-Muqaddima**, traduit par: Vincent Monteil, Sindbad, 1978

16) KHODJA, Hamdane : Le Miroir

17) LAHARPE, J.F: Abrégé de L' Histoire Générale des Voyages, T1, Paris, 1825

18) MARTINS, Charles: *Tableau Physique du Sahara Occidental* . **Revue des Deux Mondes** 1864.

19) Maxime Du Camp**: Mémoires d'un suicidé** [Document électronique] /

20) POTTIER, René: **Sahara**, B.Arthaud, France, 1950

21) ROZET ET CARETTE: **L'Algérie**, Firmin Didot freresEditeurs Paris, 1850

22) Trumelet, **Français dans le désert**, 2e éd., 1885.

23) VIAL, Yves et Maurice: Sahara Milieu Vivant, Hatier, Paris, 1949

24) VIDAL-BUE, Marion: L'Algérie du Sud et ses Peintres 1830) 1960, Paris Edif 2000

25) VOISIN, André-Roger: **Le Souf Monographie**, El- Walid, Algérie, 2004

المجلات باللغة الفرنسية

1. Bonne :Bulletin de l'académie d'Hippone – n° 24, 1890, p 24
2. **Revue Ethnologies Comparées**, **N°7 Printemps 2004**
3. **Revue de l'Orient**, Tome 1, Cahiers 1 à 4, Paris 1843,

القواميس والموسوعات باللغات الأجنبية

1. Collection Microsoft ® Encarta ® 2005. © 1993-2004
2. Oxford Advanced Learner's Encyclopedic Dictionary, Oxford University Press, Fourth Impression, 1998

المراجع العربية

القواميس والموسوعات العربية

1. المنجد في اللغة والأعلام، ط23، دار المشرق، بيروت 1973

المراجع

3. القرآن الكريم

4. الميرا، اسماعيل علي: السلالات البشرية، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان،

5. الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد: تاريخ الجزائر الحديث، ج3، دار الثقافة ، بيروت، 1980 .

6. السواح، فراس: الأسطورة والطقس، مجلة معابر، دمشق ، سوريا

7. بن عيسى حنفي، المستشرقون وتاريخ الجزائر، مجلة المعرفة، العدد 6 ،نوفمبر 1963، الجزائر

8. المهدي ، صالح: الموسيقى العربية تاريخها وأدبها، الدار التونسية للنشر، تونس، و ديوان المطبوعات الجمعية، الجزائر، 1986

9. بوشارب، عبد السلام: الهقار أمجاد وأنجاد، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995

10. بوعزيز ،يحي ود. ميكيل دوايبالزا : مراسلات الأمير عبد القادر مع أسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985

11. توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية ترجمة الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1985

12. دودو، أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (1830- 1855)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1975.

13. ديفيد فيلبسون: علم الآثار الإفريقي ترجمة د. أسامة عبدا لرحمن النور الجا للنشر، مالطا 2001

14. .أعشي، مصطفى: نماذج من التواصل الحضاري بين شمال أفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ، معهد الدراسات الأفريقية جامعة محمد الخامس /الرباط

15. مجموعة من الأساتذة المختصين، معارف إسلامية،، الجزء الأول ، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 2002

16. حمادي، عبد الله: أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، قسنطينة، 2001

17. ركيبي، عبد الله، تطور النثر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب.

18. سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص ص 60 و61..

19. سفطي ،أحمد: دراسات في الموسيقى الجزائرية. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.1988

20. سونك: الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب، موفم للنشر، 1994،

21. شريط، عبدا لله: تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1983.

22. فرج ، محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر1977

23. عشراتي، سليمان: الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ص233.

24. لعروق، محمد الهادي، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر 1998

25. مرتاض، عبد المالك: الميثولوجيا عند العرب،المؤسسة الوطنية للكتـــاب ، الجزائـــر والدار التونسية للنشر، 1989 ص15

26. هلال، غنيمي ،: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت

المجلات والصحف باللغة العربية

a. جريدة الخبر عددالخميس16 جوان2005

b. غندور، فاطمة : مفاهيم وتعريفات المرويات الشفاهية صحيفة الجماهيرية ليبيا

c. مجلة المعرفة، العدد 6 ،نوفمبر 1963، الجزائر

d. مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر مجموعة أعداد

e. مجلة سيرتا

f. مجلة الجهاد

g. مجلة الأصالة عدد خاص عن تاريخ منطقة الهقار بمناسبة انعقاد الملتقـــى 13 للفكـــر الإسلامي ، السنة الثامنة ، أوت 1979

فهرس

فهرس

فصل أول

تجليات مظاهر الاستصحار

فصل ثان

الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمجتمع الصحراوي

فصل ثالث

تجليات المظاهر الاجتماعية:

فصل رابع

تجليات المظاهر الثقافية

ملحق أول

بيوغرافيا لأهم الرحالة الفرنسيين

أوجين فرومونتان 1876-1820)

Eugène Fromentin

ولد فرومونتان بلا روشال La Rochelle في 24 أكتوبر 1820، من أب يمـــارس مهنة الطب، وله اهتمامات بالفن، تحصل سنة 1839 على شهادة الباكالوريا ليدخل الجامعة، لدراسة الحقوق،ليتخرج منها بشهادة اليسنس سنة 1843. يقرر فرومونتـــان ســـنة 1844 تكريس وقته لدراسة الفنون التشكيلية والرسم، متأثرا بالفنانين المستشرقين، رغم معارضة أسرته لذلك.

قام أوجين فرومونتان بثلاث رحلات إلى الجزائر؛ الرحلة الأولى كانت في ربيع 1846، وهو في الخامسة والعشرين؛ حيث انطلق من باريس في الثالث من شهر مارس، برفقة صديقيه، الرسامين آرنو دي مارســيل Armand du Mesnil ، وشـــارل لابي Charles Labbé ، حيث وصل الجزائر في 12 مارس ويستقر بمدينة البليدة في الثالث عشر، ومكـــث بالجزائر إلى غاية العاشر من أفريل، حيث أقام بها مدة تسعة عشر يوما، ليعود على فرنسا.

أما الرحلة الثانية، فقد كانت أطول من الأولى، حيث غادر باريس في الرابع والعشـــرين سبتمبر من سنة 1847، ولم يبحر إلى مرسيليا حتى الثالث والعشرين من شهر ماي؛ وهكـــذا كانت له الفرصة لزيارة الكثير من المدن الجزائرية؛ بليدة، قسنطينة، بسكرة، إضافة إلى الخرجات والنزهات التي قادته إلى معرفة الصحراء، والاقتراب من البدو ، ونمط حياتهم. وخلال رحلتـــه هذه، تمت تنحية لويس فيليب بفرنسا و إقامة الجمهورية الثانية، بقيادة نابليون الثالث.

اما الرحلة الثالثة، والتي قام بها فرومونتان في تلك الظروف السياسية الجديدة التي كانـــت تمر بها فرنسا، وهكذا استقل فرومونتان الباخرة من مرسيليا، في الخامس نوفمير 1852، رجلا آخر مختلف عن الشاب الذي عرفناه في الرحلتين السابقتين؛ حيث تحصل قبلها على جائزة رسمية سنة 1849، تقديرا للوحاته الجزائرية. في هذه الرحلة أخذ فرومونتان زوجته معه، وتعتبر بمثابة شهر العسل، حيث تزوج

عند وصوله إلى الجزائر، استقر بمدينة البليدة، ومنها انتقـــل في رحلـــة باتجـــاه الجنـــوب وبالضبط، إلى مدينة الأغواط، تاركا زوجته بالبليدة، و لم يعد إلى فرننسا، إلا بعد سنة تقريبا، في الخامس من أكتوبر 1853.

وهكذا قضى فرومنتان بالجزائر حوالى عشرين شهرا، رسم فيها الكـــثير مـــن المشـــاهد الجزائرية، سواء في لوحاته؛ مثل:

- ســـاحة لا بـــراش بقســـنطينة La place de la Brèche à Constantine
- الصيد بالصقر في الجزائرChasse au faucon en Algérie
- ذكرى من الجزائر" Souvenir d'Algérie
- مورد الماء" L'Abreuvoir
- مضيق الشيفا " Les Gorges de la Chiffa،

ولأن الرسم لا يعبر دائما عن كل ما يريد المرء أو كما قال فرومونتان نفسه:: إن صعوبة التعبير بالريشة، جعلتني أجرب التعبير بالقلم"، فقد اتجه للكتبة وتسجيل مشاهداته أثناء جولاته عبر أنحاء الجزائر.

اما بخصوص كتاباته حول الجزائر، فإن فرومونتان ترك أعمالا تضم بين طياتها صفحات مشرقة من المشاهد الحياتية الجزائرية:

-صيف في الصحراء Un été dans le Sahara " (1857)

-عام في الساحل Une année dans le Sahel (1859)،

-الجزائر، مقتطفات من دفتر رحلة Alger "، fragments d'un journal de voyage

وإضافة إلى أعماله هذه حول الجزائر، ترك أوجين أعمالا أخرى ، ولعل أهم هذه الأعمال روايته دومينيك Dominique التي نشرها على حلقات في مجلة العالمين *La* Revue des Deux Mondes

أسياد زمان Les Maîtres d'autrefois نصوص نقدبة حول الفن والرسم

توفي أوجين فرومونتان في السابع والعشرين من شهر أوث سنة 1876 عن عمر يناهز 59 سنة، وحسرة رفض عضويته بالأكاديمية الفرنسية في نفس السنة،

فرناند فورو **Fernand Foureau**

ولد فارناند فورو ***Fernand Foureau*** بقصر بارنيس بسان باربون ، وتوفي سنة **1914** بباريس. كلف في البدء بتقييم منطقة ورادى ريغ سنة **1878** ، وحفر الآبار الإرتوازية، ثم كرس كل وقته للدراسات العلمية للصحراء. مكملا أعمال الرحالة هنري ديفيريي ، وقد قام ما بين سنة **1840** و**1892** بتسع بعثات متتالية إلى سنة **1900**جنوب الجزائري و أطلس آزجر مارا بعرق وحمادة تينغيغت.

ثم في سنة **1890** إلى **1900** قطع الصحراء والسودان، من ورقلة إلى إلى بحيرة تشاد عن طريق زندر، إلى \أن وصل إلى سواحل إفريقيا الاستوائية عن طريق الأوبانغي والكونغو.

ثم عين عين حاكما على مايوت والكومور **1906**.

نشر: مهمة إلى تاهرماريت **" Une mission au Tahermaryt 1890 "**

تقرير حول مهمتي لـــدى طـــوارق الآزجـــر **1894 " Rapport sur ma mission au Sahara et chez les Touaregs azdjer "**

مهمة عند الطوارق **1895 " Mission chez les Touaregs "**

في العرق الكبير **1896" Dans le grand erg "**

من الجزائر إلى الكونغو عن طريق تشاد **1908 " D'Alger au Congo par le Tchad "**

الوثائق العلمية حول المهمة الصحراوية **1903 - 1905 les documents scientifiques de la Mission Saharienne**

خريطة لجزء من الصحراء الشمالية **1908**

جون بيار بونافون Jean-Pierre Bonnafon

ولد جون بيار بونافون سنة 1870.

بدأ حياته المهنية في الطب بمساعدة عمه ، وتحصل على شهادته كضابط صحي، وعمل في الفيلق السادس للحرس الملكي، قبل أن يدمج سنة 1826 ضمن سلك الجراحين العسكريين.

حين نزلت القوات الفرنسية سنة 1830 بسيدي فرج، واحتلت مدينة الجزائر، كان من بين صفوفها جراح عسكري شاب. كان جون بيار بونافون في الصفوف الأولى، يشاهد ويسجل كل ما يرى، وكل ما يقصه له الجرحى، لتكون تلك الشهادات الاستثنائية تفاصيل وحكايات ونوادر هامة . وبعد سقوط الجزائر تواصلت عمليات الاحتلال، وتوالت البعثات؛ معسكر سنة 1835، بعثتان إلى قسنطينة سنتي 1836 و1837 على التوالي، التافنة، أين كان ضمن وفد الجنرال بيجو Bugeaud أثناء لقائه بالأمير عبد القادر، ثم سنة 1840، وبعد أن أصبح رائدا ،جراحا، على رأس مستوصف نقال عمل بالبليدة، شرشال، المدية ومليانة . وكان أينما حل يسجل كل كبيرة وصغيرة، حول السكان ونمط حياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم. بعد رجوعه إلى فرنسا نشر مذكراته سنة 1880، والتي اعيد نشرها سنة 1883." إثني عشر سنة في الجزائر(1830- 1842) "

بعد رجوعه إلى فرنسا، بعد أن قضى بها مدة طويلة، تخصص في أمراض الأذن، وفي سنة 1865 أصبح طبيبا رئيسيا من الدرجة الأولى.

توفي في التاسع عشر من ماي سنة 1891 عن عمر يناهز الستة والثمانين سنة.

ج. ج. كلاماجرون CLAMAGERAN. J.J

كاتب رحالة فرنسي، له دكتوراه في الحقوق ، عضو في المجتمع الاقتصادي السياسي، وعضو سابق ببلدية باريس،إضافة إلى كتابه: "الجزائر انطباعات رحلة" هذه الرحلة التي قام بها إلى الجزائر ما بين 17 مارس إلى 04 جوان من سنة 1873ونشر هذا الكتاب سنة 1874 والتي من خلالها وصف كلاماجرون العديد من المدن الجزائرية ؛ الجزائر ، وهران، تلمسان، سيدي بلعباس ، مستغانم، قسنطينة ، باتنة، كما عرج على المدن الصحراوية ،وأعطى وصفا دقيقا للقنطرة وبسكرة، مركزا على سكان منطقة الجنوب ومنتوجات الصحراء

وللكاتب أيضا دراسة حول المؤسسات القبائلية والاستعمار Etude sur les institutions Kabiles et la colonization

وبالإضافة إلى هذين العملين للكاتب عدة مؤلفات أخرى:

- مديح الصناعة Louanges d'industrie 1856
- الوضعية الحالية للبروتستانتية بفرنسا De l'état actuèl du Protestantisme en France 1857
- تاريخ الضرائب بفرنسا Histoire des Impots en France 1867
- المادية الحديثة Materialisme comtemporain 1866
- خمسة أشهر بنزل المدينة Cinq mois à l'hotel de ville 1872
- فرنسا الجمهورية La France Républicaine 1873

إيزابيل إبرهاردت Isabelle Eberhardt

ولدت إزابيل إبرهاردت سنة 1876 بروسيا والدها هو القس ثروفيموفسكي وأمها ناتالي دي ماردر، عاشت وترعرت بسويسرا.

رحلتها إلى شمال إفريقيا

وتجسدت أحلامها في المغامرة والسفر أولا عن طريق الكتابة بمساعدة أخيها الذي كانت تتبادل مع الرسائل ويصف لها يومياته بالجزائر وكان أول ظهور لها على الساحة الإعلامية سنة 1895 حيث نشرت أولى قصصها كانفرناليا رؤية غسقية في المجلة الباريسية الجديدة - La Nouvelle Revue parisienne - وكذا رؤية المغرب التي تصف فيها الجزائر قبل رؤيتها لها.

في شهر ماي من سنة 1897 غادرت إيزابيل برفقة والدها جونيف باتجاه الجزائر، وعمرها عشرون سنة، واستقرا بمدينة عنابة بالحي العربي أين اعتنقا الإسلام هناك. لكن الأم أصيبت بمرض اضطر الزوج ثروفيموفسكي إلى الالتحاق بهما حيث وجد إيزابيل في وضعية نفسية متدهورة جدا وقد أصيبت بحالة من الجنون والصرع نتيجة لعدم مقدرتها على الوقوف بجوار أمها في محنتها الصحية. في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من نفس السنة توفيت ناتاليا دي موردر عن عمر يناهز 59 سنة.وقد اثر رحيل أمها كثيرا على معنوياتها، فسافرت الى تونس لقضاء فترة نقاهة على حساب السلطات الفرنسية ، و لم تغير إيزابيل هناك من طبعها، ونمط حياتها، مرتدية لباس الرجال ، كانت تنام بالمقاهي و تخالط بسطاء الناس سابرة أغوارهم ، مستكشفة طرائق عيشهم وتفكيرهم.

في 1898 نشر الجهاز الإعلامي L'Athénée بعض قصصها ومقالاتها، ولكنه توقف عن النشر لها بعد نزاع وقع بينها وبين المدير بسبب قضية دريفيس و أفكار أخرى معادية للسامية، وبقيت إيزابيل بلا مصدر رزق. في هذه الفترة بدأت في كتابة " راحيل"، رواية تدور أحداثها حول قصة حب بين طالب مسلم وفتاة يهودية وهي الرواية التي رافقتها أينما ذهبت والتي لم تستطع إكمالها.

في 14 مارس سنة 1899 اضطرت إيزابيل للعودة إلى جونيف بعد مشاركتها في تمرد للجزائريين ضد المستعمر الفرنسي، والتي وصلتها قبل مدة قصيرة من انتحار شقيقها فولوديا أو فلاديمير ومكثت هناك بجانب أبيها فافا Vava إلى غاية وفاته بمرض السرطان.

كان لفقدان والديها وأخيها أثر كبير على إيزابيل من الناحيتين النفسية والمادية، فقد كان لزاما عليها أن تعتمد على نفسها، فعادت إلى تونس، وهي تجهل كيف ستعيش هناك بالمال القليل الذي كان معها والذي بدأ يتناقص، ثم تركت تونس لتلتحق بأخيها أوغستين بمرسيليا، كي تجده هو الآخر معدما، يتخبط في صعوبات مالية جمة، فزارت العديد من المدن الفرنسية باحثة عن مصدر مالي، وفي العاصمة الباريسية حاولت أن تحصل على وظيفة كصحفية، ولكن دون جدوى لولا، تعرفها هناك على الماركيزة مور التي مات زوجها بالجنوب التونسي في ظروف غامضة، اثناء إحدى الحملات العسكرية .كانت المركيزة مور تريد معرفة حيثيات وظروف وفاة زوجها، ولما أعجبت بشخصيتها وجرائها وذكائها كلفتها بمهمة التحري عن تلك الظروف ومعرفة الحقيقة الكاملة. وهكذا عادت إيزابيل إلى تونس برفقة أخيها أوغستين مرة أخرى في شهر جوان 1899. كانت تلك الرحلة مثمرة بالنسبة لها على الصعيد النفسي خاصة، واستطاعت أن تعرف بأن زوج المركيزة مات منتحرا.

ومن تونس تتابع إيزابيل رحلتها لوحدها الجزائر العاصمة، مرة أخرى، وذلك في عام 1900، ومنها تسافر إلى تقرت ثم الوادي، أين تعرفت على سليمان أهني أحد الفرسان المسلمين المنخرطين في الجيش الفرنسي.

في 29 من شهر جانفي عام 1901 نصب أبو أحمد رئيس الطريقة التيجانية التي تعادي الطريقة القادرية، كميناً لمجموعة من الخيالة، كانت ايزابيل ضمنها فجرحت جرحا بليغا لكنها نجت من الموت بعد عملية جراحية ناجحة في مستشفي (العويد) حكم بعدها على الجاني بالأشغال الشاقة وعلى إيزابيل بعدم دخولها الجزائر. وأثناء محاكمة الجاني بمحكمة قسنطينة وقفت إيزابيل بجانب الرجل الذي اعتدى عليها بالسكين، طالبة الصفح عنه مما أثار سخط هيئة المحكمة الفرنسية.

وبسبب تلك الأحداث ونظرا لنمط حياة إيزابيل الغريب، ثارت بعض الشكوك حولها ؛ فتاة في زي الرجال تسمي نفسها سي محمود السعدي ، تحمل جواز سفر روسي ، تعتنق الإسلام ،تقطع الصحراء بمفردها، تسجل كل كبيرة وصغيرة أينما تمر، وتنشر كل ذلك في العديد من الصحف والمجلات...

في ماي 1901 أجبرت إيزابيل على مغادرة الجزائر.وتوجهت إلى مرسيليا، باسم مستعار، متنكرة في بدلة للعمال الزرقاء، حتى تتمكن من السفر في الدرجة الرابعة الممنوعة على النساء.

في مرسيليا فكرت ايزابيل بالعودة ثانية إلى الجزائر، و لم يكن أمامها من سبيل إلى ذلك إلا الزواج ولأنها كانت تدرك أن سبيل العودة إلى الجزائر هو الزواج من فرنسي واستطاعت أن تتحصل من السلطات الفرنسية على رخصة الزواج المدني وتم ذلك بعد التحاق سليمان بها

بمرسيليا في 17 أكتوبر1901 وأصبح اسمها (ليلي محمودة).. . وبذلك استطاعت العـــودة الي فرودوسها المفقود في الصحراء الجزائرية وسط الرمال الذهبية أين يسطع النور من كل الجهات. وعادت إيزابيل برفقة زوجها سليمان إلى الجزائر في 14 جانفي 1902

وعن زواجها كتبت الكاتبة الفرنسية سيمون دوبفوار .. "عندما تزوجت ايزابيـــل الـــتي انطلقت الي الصحراء بزي الرجال علي ظهر جوادها، لم تشعر بعدم الاحترام تجاه ذاتهـــا. مـــن الصعب القول لماذا اختارت ايزابيل هذا الزي. قد يكون أن ذلك قد راق لها أو اعتمدته للدفاع عن نفسها. إن الزي الرجالي قياسا إلى الزي النسائي شيء مصطنع، لكنـــه قياســـا إلى الـــزي النسائي أكثر راحة. جورج صاند مثلا، كانت مثل ايزابيل ترتدي ملابس الرجال..."

بعد رجوعها إلى الجزائر ، انطلقت تخترق الرمال في اهتمام خاص بالمياه من ينابيع ووديان وبالناس وعاداتهم ونمط حياتهم. وفي زيارة لها إلى الجزائر العاصمة، عرض عليها الناشر فيكتور باريكون Victor Barrucand العمل كمبعوث خاص لجريدة الأخبار، كمـــا تعاونـــت أيضا في المجال الإعلامي مع لوس دنابين Luce Denaben مديرة مدرسة أوفروار للفتيات المسلمات بالجزائر. ولأول مرة يمكن القول بان إبرهارت عاشت حقيقة من مصدر الصـــحافة وأصبح لها دخل منتظم، خاصة وأن سليمان أيضا تحصل على منصب عمل كترجمان

وتقربت إيزابيل في تلك الفترة أيضا من جماعة من الكتاب أصدروا مجلة أدبيـــة أسموهـــا" فرنسا الكبرى "La Grande France.

شغوفة بالذهاب إلى عمق الأشياء، عاشقة للفضاءات الرحبة ، ظمأى لاستكشاف المجهول دوما،كانت إيزابيل تتوغل أكثر فأكثر في الصحراء الشاسعة، وكانت رحلاتها تلك تنشر بانتظام في جريدة الأخبار حيث تتولى تحرير عمود ثابت بها. في كتاباتها الطافحة بـــالألوان القزحيـــة

والأجواء السحرية لم تتردد إيزابيل في الدفاع عن القضايا الانسانية وفضح بعض ممارسات المستعمر.الفرنسي الذي لم ترق له بعض مواقفها والذي ربما قام بإتلاف جزء من كتاباتها خاصة اليوميات الخامسة بعد العثور عليها تحت الأنقاض من طرف الجينيرال ليوثي1

في خريف (شهر سبتمبر)1903 أرسلت إلى الجنوب الوهراني كمراسلة حرب – وتجدر الإشارة هنا أنها كانت أول امرأة مراسلة حرب في نهاية القرن التاسع عشر – من طرف جريدة الأخبار، بعد موافقة الجنرال ليوثي لتغطية أحداث المواجهات بين المقاومة الجزائرية وجنود الاحتلال الفرنسي، وكذا الصراع الحدودي بين الجزائر والمغرب. وأقامت بعين الصفراء ، لتلتقي بالماريشال ليوثي في ديسمبر 1903 ببني ونيف.

في ماي 1904 عادت إيزابيل إلى عين الصفراء أين أجرت مترلا أقامت به هناك.، في تلك الفترة كتبت كثيرا عدة مقالات عن المنطقة؛ عين الصفراء، فقيق، الزوبية، بني ونيف، كما التقت هناك بمسؤول زاوية الشيخ بوعمامة الواقعة بالحمام الفوقاني

وفي صيف 1904 سافرت إلى المغرب، متجهة إلى مدينة قنادسة من أجل الالتقاء بالمتصوفين، قاصدة زاوية زاوية سيدي ابراهيم ولد محمد. هذه الأخيرة التي تعتبر مزار للعديد من الشخصيات الدينية وتنظم ملتقى سنوي يحضره متصوفون من كل أنحاء الشمال الإفريقي. إيزابيل كانت في السنتين الأخيرتين من حياتها قد اعتنقت الطريقة القادرية وأطلق عليها مريدو الطريق اسم : باز الاسلام ونظرا للاضطرابات التي كانت تسود المنطقة ، قبض على إيزابيل من طرف رجال الزاوية وزج بها في السجن لمدة اسبوع بتهمة التجسس لحساب الفرنسيين، لكن أطلق سراحها فيما بعد مباشرة.

1 انظر مقال" ليوثي وأعمال إيزابيل إبرهارت" لصاحبه بغدادي بوثخيل الصادر بتاريخ 20 و21 أكتوبر 2004 بجريدة Le Quotidien d'Oran

في 02 أكتوبر 1904، تدخل إيزابيل المستشفى العسكري بعين الصفراء للمعالجة من مرض الملاريا الذي كانت تعاني منه منذ مدة، وبقيت بالمستشفى لمدة أسبوعين. بعد خروجها كتبت لسليمان رسالة تطلب منه الالتحاق بها لمرافقتها، حيث أجرت منزلا من الطين في الجهة المنخفضة من القرية واستقرت به.

في 21 أكتوبر1904 ، بعد تغير مفاجئ للأحوال الجوية ،غمر المدينة الوادى ، الذي كان ناشفا كلية، ودمر جزءا من عين الصفراء. استطاع سليمان أن ينجو من هذه الكارثة الطبيعية، غير أن إيزابيل وقد أضعفها المرض لم تستطع الهروب ووجدت ميتة تحت أنقاض منزلها، مرتدية لباس الفرسان العرب. ودفنت على الطريقة بمقبرة سيدي بوجمعة الإسلامية.

أعمالها

تركت إيزابيل بعد وفاتها عدة أعمال مخطوطة وأخرى منشورة في الجرائد والمجلات ، وتعتبر أعمالها وثائق شاهدة على العصر وعلى فترة مهمة من تاريخ الجزائر وقد نشرت كما يلي:

كتابات على الرمل Ecrits_sur_le_sable

من جزأين عرض وتعليق ماري أوديل دولا Marie-Odile Delacour كور وجون ريني ايلوJean-René Huleu وكتبت المقدمة إدموند شارل رو d’Edmonde Charles-Roux

باريس ، غراسي 1988-1990

الجزء الاول:

سرديات ، ملاحظات ويوميات Récits ، notes et journaliers

يحتوي على ملاحظات في الرحلات، كتاباتها الأوتوبيوغرافية الحميمة الشخصية

تسكعات Vagabondages مجموعة من ذكريات رحلاتها في الصحراء التونسية.

نشر في المجلات في حياتها ثم أصدره بعد وفاتها صديقها فيكتور باريكون

عودة إلى الجنوب Retour_au_sud_

يخص الجزائر وبالضبط الجنوب الوهراني وهوعبارة عن ملاحظات في الطريق

كتبت الجزء الأول منه حين كانت مراسلة حرب على الحدود المغربية الجزائرية سنة 1903.

أما الجزء الثاني كتب خلال إقامة أخرى بالجنوب الوهراني وقد فاحت بعطر البعد الصوفي مع وصف للقنادسة قلعة الصحراء الدينية. بعد موتها نشر فيكتور باروكون بعد تحوير في ملاحظات طريق وفي ظل الإسلام الدافئ

اليوميات Les_Journaliers_

هي بمثابة دفتر شخصي وأدبي كتبته خلال الأربع سنين الأخيرة من حياتها ويبرز ذوقها الأدبي إعجابها ببيير لوتي والإخوة جونكور

عشقها للمطلق، ميلها للصوفي، حالات الإحساس بالوحدة، حزنها لموت الأقرباء، حبها لزوجها سليمان، محاولة اغتيالها الخ....

الجزء الثاني

قصص وروايات

وقد خصص للكتابات القصصية ويضم

المرآة- رؤيا المغرب – انفرناليا، الجحيمية –النقيب – المغربي- الزاوية- ام زهار- تحت النير- الساحر- وصول المحتل – تسعديت – ياسمينة- ليالي رمضان- الفلاح – عين جابود- الدرويشة- المداح – نحيب اللوز- عصر العدم –الفوقارة- المتشرد- جنة الماء- مريمة- مطوري- الليل – في الفجر- السترة الزرقاء- المشعوذ- دكتوراه- العلماء- رواية التركي- الفوضوي- أسداف افريقية- المخدوعون- مآثر الأهالي- أشواق- المجوسي- المزخرف المحترم- اليد- في الكثيب- الصديق- صورة اولاد نايل- تاعليت- مجرم- الخوني- على الهامش- شحاذ- زهور وياسمينة- في درب الله- تخييم – حداد- افراح سوداء- سيراس- يهودا- المتسكع- ايوستراث

كتبت إيزابيل حوالى ستين قصة نشرت معظمها في حياتها بالصحافة الجزائرية على شكل حلقات أخبار الجزائر

الأخبار- البرقية الجزائرية la Dépêche Algérienne

<u>كتابات حميمة: رسائل إلى أحب ثلاثة رجال</u>

Ecrits intimes : lettres aux trois hommes les plus aimés

ونشر بتعليق وتقديم ماري أوديل دولا كور Marie-Odile Delacour و جون ريني ايلو Jean-René Huleu بالاشتراك مع فائزة عبد الوهاب. بباريس، بايو، 1991

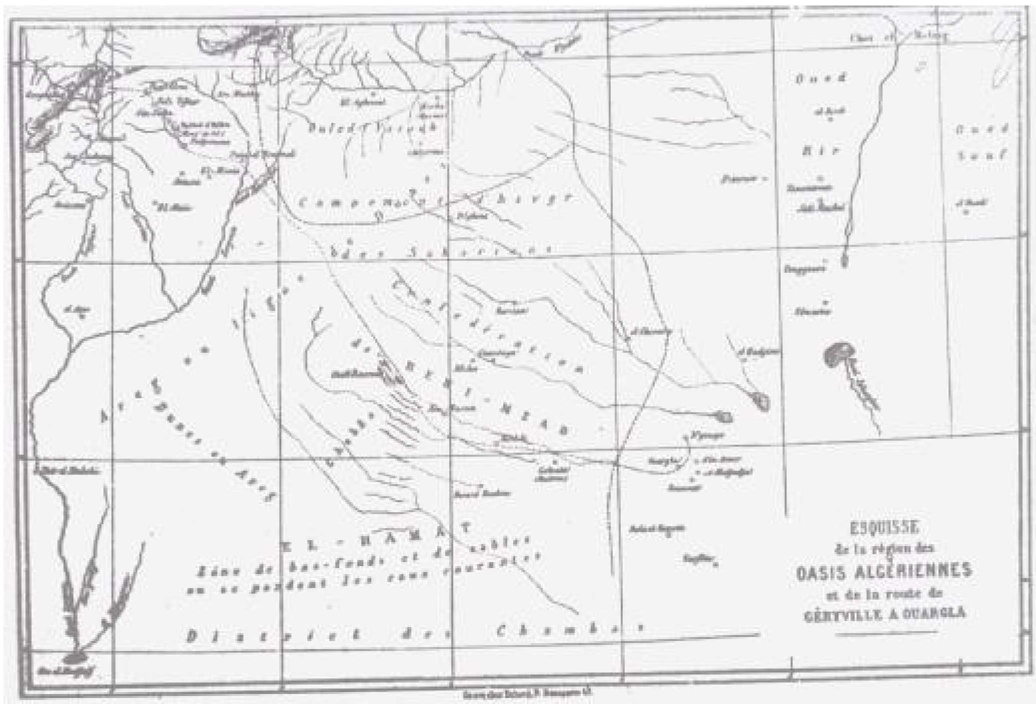
وهو عبارة عن مراسلات مع شقيقها أوغستين، صديقها وأمين سرها علي عبد الوهاب وزوجها سليمان.هذه المراسلات امتدت على مدار سبع سنوات وتبرز شخصيتها المعقدة والمتميزة.

الملحق الثاني

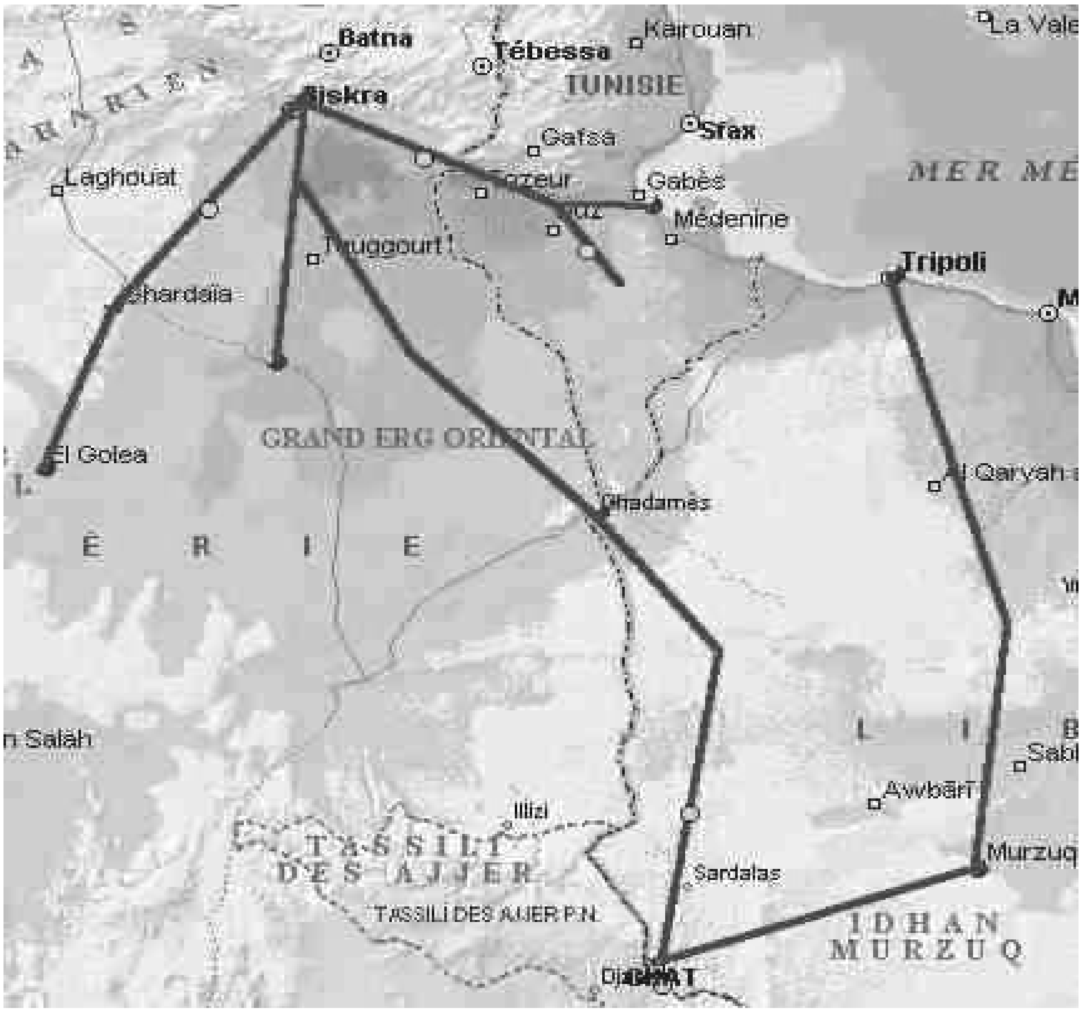
الخرائـــــــط


SAHARA
Echelle
ESPAGNE
MER
MÉDITERRANÉE
ALGER
ORAN
LE TELL
CONSTANTINE
TUNIS
TUNISIE
Kairouan
FEZ
CASABLANCA
MAROC
ATLAS
HAUTS PLATEAUX
ALGÉRIE
El-Kantara
Biskra
Laghouat
El-Oued
Souf
Touggourt
TRIPOLI
Misurata
Ain Sefra
Figuig
El-Abiodh-St Cheikh
Berriane
Mzab
Ghardaïa
Témacine
Guerrara
Colomb-Béchar
Kénadsa
Menouarar
Taghit
Tafilalet
Ouargla
Fort Lallemand
CHAAMBA
El-Goléa
Hassi-Inifel
TRIPOLITAINE
Bouerat
Bou n'Djem
Igli
Beni-Abbès
Hts Plateaux du Draa
Grand Erg Occidental
Grand Erg Oriental
Timoudi
Timimoun
Ghadamès
Hamada el Homra
Hon
TERRITOIRES DU SUD
Plateau du Tademait
Adrar
TOUAT
In-Salah
Fort Flatters
Reggan
Sebha
Erg Chech
Amguid
Fort Polignac
Ubari
Serdelès
Mourzouk
FEZZAN
Tassili des Ajjer
Arak
Plateau du Mouydir
Djanet
R'at
Tin Alkoum
TANEZROUFT
HOGGAR
Tit
Tamanrasset
Fort Laperrine
Bidon V
SAHARA
TIBESTI
TOUAREG
TÉNÉRÉ
SOUDAN
AÏR
Bilma
Tombouctou
Niger
Gao
Agadès
R. Fougon

الصحراء


ESQUISSE
de la région des
OASIS ALGÉRIENNES
et de la route de
GÉRYVILLE A OUARGLA
EL-HAMAÏT
District des Chamba

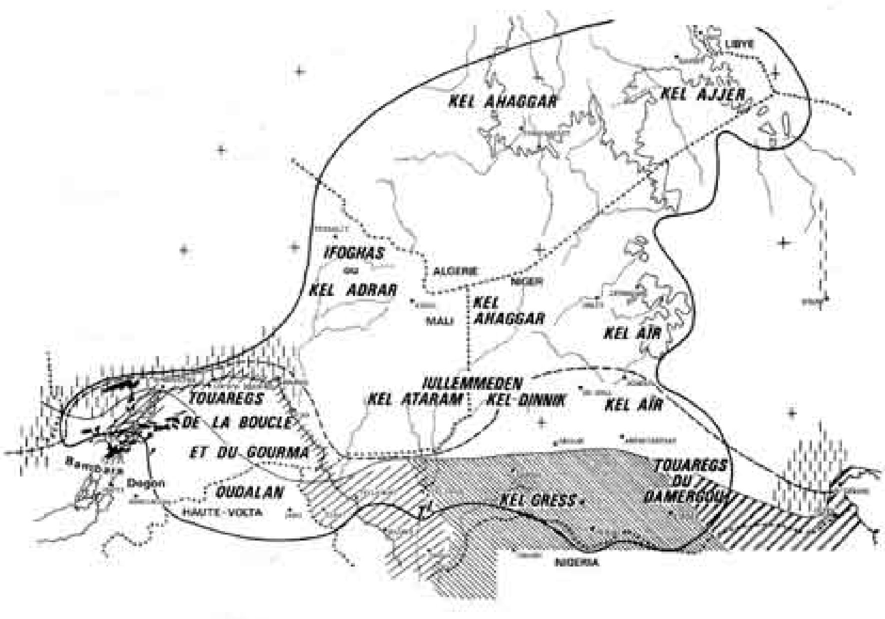
الواحات



مسار رحلة ديفيريي

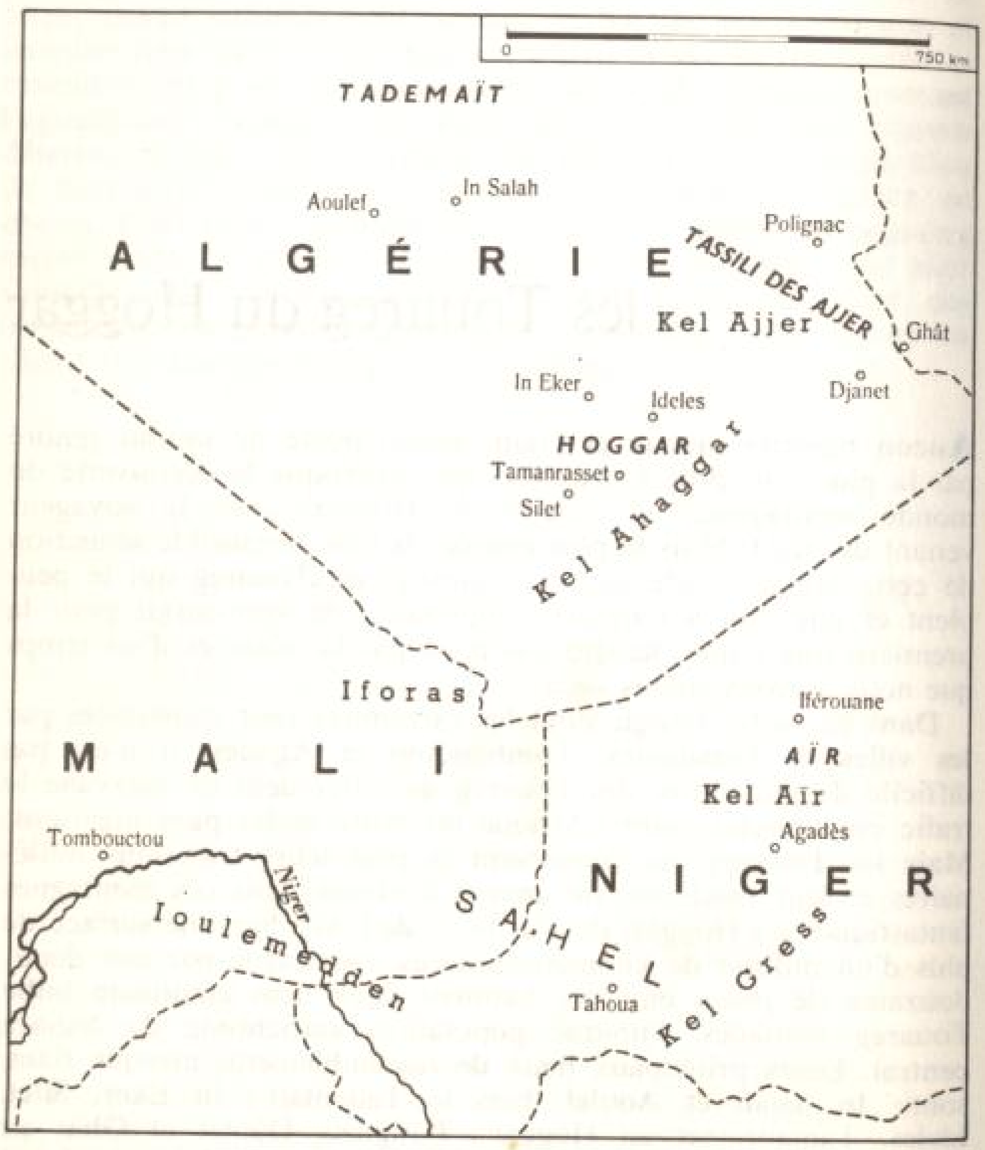


خريطة الصحراء (مسار كافينياك)

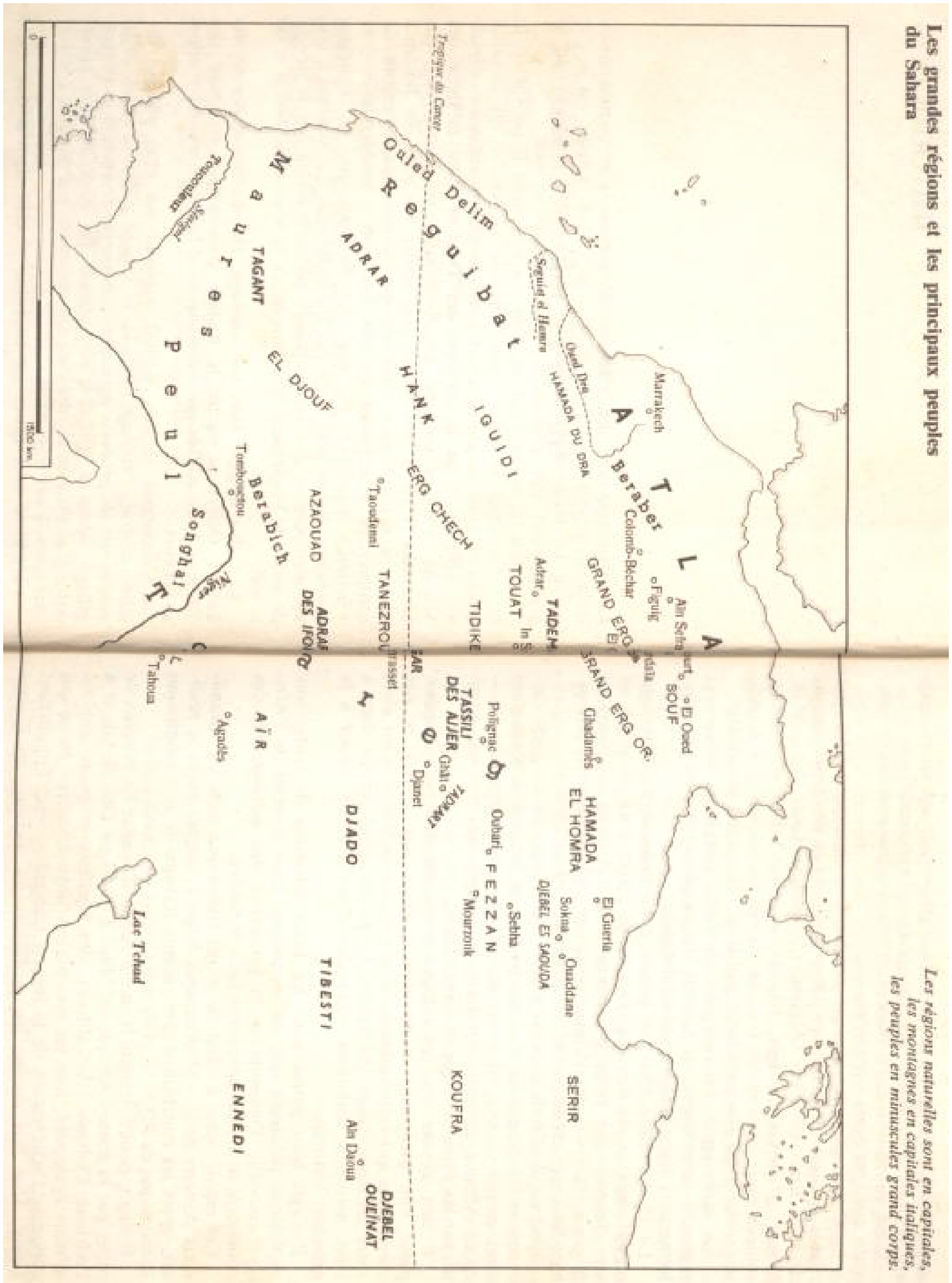


خريطة انتشار قبائل الطوارق

Les grandes tribus touareg : Kel Ajjer, Kel Ahaggar, Iforas, Kel Aïr, Kel Gress, Ioulemedden, et les régions qu'elles occupent.



قبائل الطوارق



المناطق الكبرى وأهم سكان الصحراء

Resumé

Dans cette recherche intitulée:" L'image de la societé Saharienne Algerienne au 19 eme siecle a travers les écrits des voyageurs Français – Approche socio-culturelle , J'ai éssayé de présenter une image globale de la communauté Saharienne à travers la vision des écrivains Français .

Pour atteindre cet objectif j'ai divisé ce memoire en quatre chapitres: Le premier chapitre a été consacré au Sahara Algérien en termes de géographie et d'histoire et certains de ses aspects comme une région géographique distincte et de la vision des voyageurs français de cette région et leur attrait pour le charme de sa nature et de sa beauté.

J'ai essayé aussi de proposer un nouveau terme, comme une alternative à l'orientalisme, qui me semble plus apte au type d'études consacrée au Sahara comme un domaine distinct d'un point de vue sociologique et culturelle. Le deuxième chapitre est consacré à la vie saharienne et surtout pour le nomadisme comme une façon particulière de la vie qui composent un système spécifique de la vie et de la culture, le social et la dimension linguistique de ce système dans le noyau de la société sahraouie, toujours par l'intermédiaire du Vision des voyageurs français… dans ce chapitre, j'ai parlé de la ville comme un espace dans l'environnement saharien donnant trois échantillons de la ville saharienne; Biskra, Bousaada et El-oued.

Dans le troisième chapitre j'ai exposé les aspects sociaux de la société algérienne saharienne qui ont été clairement reflétés dans les écrits des voyageurs français, tels que l'hospitalité, la générosité, la mort, la sorcellerie etc…

Dans le quatrième et dernier chapitre, j'ai discuté les principaux aspects culturels de la communauté saharienne, qui comprend une énorme quantité d'écrits des voyageurs français et parmi ces aspects que je souligne que nous pouvons trouver sur la danse, la poésie, uniforme, des histoires populaires.

A la fin de cette recherche j'ai constate que l'image de la société Saharienne Algérienne se diffère d'un écrivain à un autre; quelques fois elle est blanche et pure imbue de valeurs humains d'autres fois elle si noire qu on que la société Algérienne vit encore au moyen age. Cette dissemblance de visions est du au voyageurs eux même; et j'ai noté que le hommes de lettres et artistes; poètes, romanciers et peintres ont donnés une image éblouissante de la société saharienne et de l'Algérie en général au contraire des historiens les anthropologistes, la clergé et les écrivains militaires .

Summary

In this research entitled : "the image of the Algerian Saharan society in the 19th century through the writings of the french travellers" – a Sociocultural approach- I tried to presents a global image of the Algerian saharan community through the eyes of the French writers

Through this socio-cultural approach of the Algerian sarahan society I tried to answer some questions such as what are the cultural and the social aspects of this society and how much they contribute in building the image of the Algerian society an dits actual structure, and if these aspects of nowdays have their roots through the history of this community an dits stages of evolution through years.

To reach this target I divided this thesis into four chapters ; The first chapter was devoted to talk about the Algerian Sahara in terms of geography and historical and some of its aspects as a distinct geographical area and the vision of French travelers to this region and their attraction to its nature charm and beauty.

I tried also to propose a new term as an alternative to Orientalism which in my opinion fit more the kind of studies devoted to Sahara as a distinct area and to its societies .

The second chapter was devoted to the Saharan life and especially to nomadism as a particular way of life which compose a specific system of life and the cultural, the social and the linguistic dimensions of this system in the core of the Saharan society, always through the vision of the French travelers… in this chapter I talked about the city as a space in the Saharan environment giving three samples of the Saharan city.

In the third chapter I exposed the social aspects of the Algerian Saharan society which were clearly reflected in the French travellers writings such as hospitality, generosity, death etc…

In the fourth and final chapter I discussed the main cultural aspects of the Saharan community which composed a huge amount of the writings of the French travelers and among these aspects which I stressed on we can find dance, poetry, uniform, popular stories etc…

As a conclusion for this research I noticed that the image of the Algerian society differs from a traveler to another. Sometimes it is white brimful of human values other times it is so dark as if the Algerian society is living in middle ages this adversity of views has its roots in the travellers themselves and I noticed that the novelists, poets and artists were more equitable than the other travellers such as the anthropologists , the historians and the militaries .